

المهذب من إحياء علوم الدين

إعداد
صالح أحمد الشامي

الجزء الثاني

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

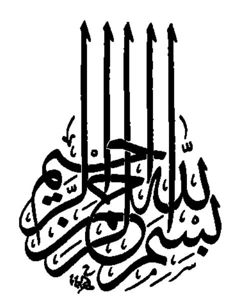
دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

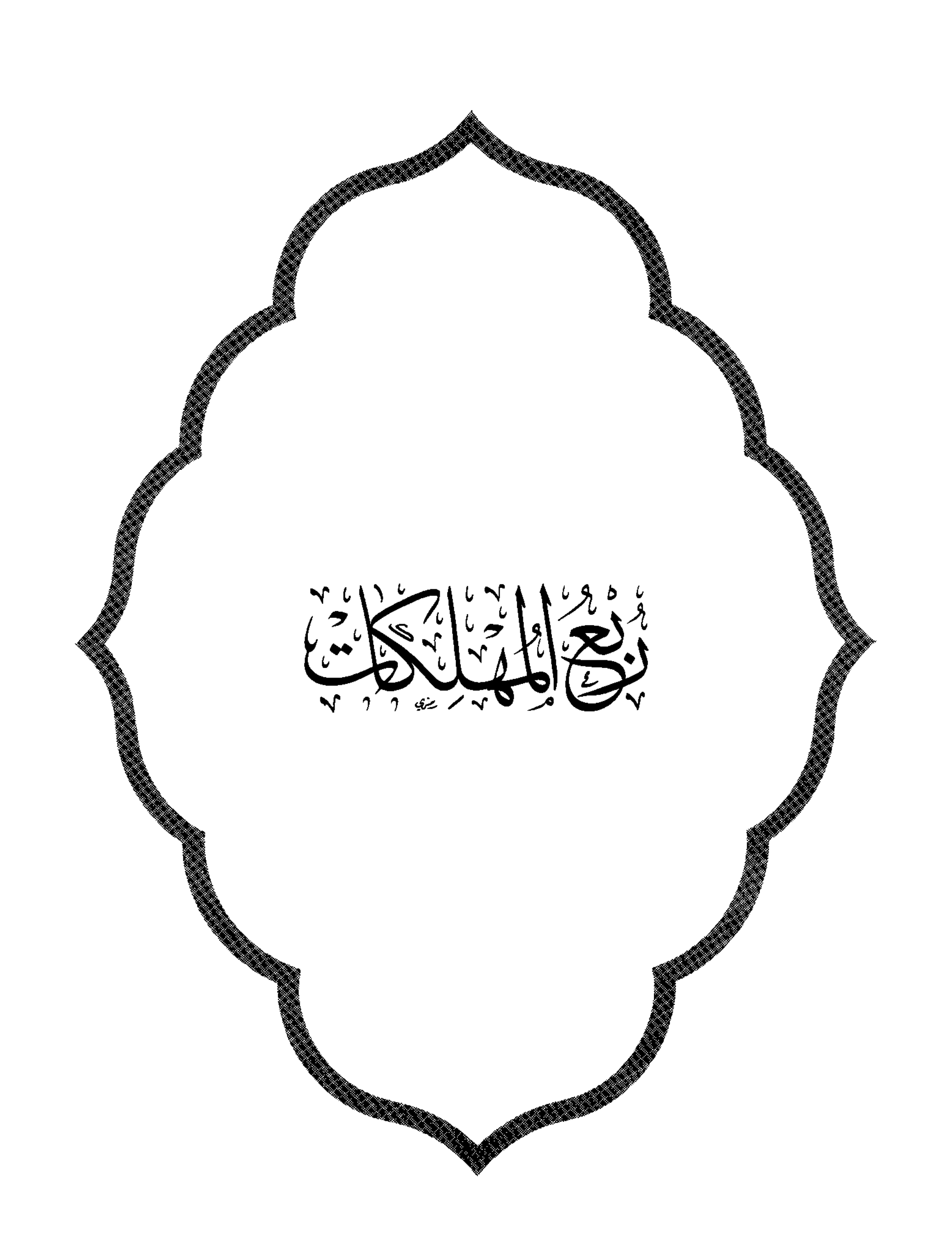
الدار الشامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

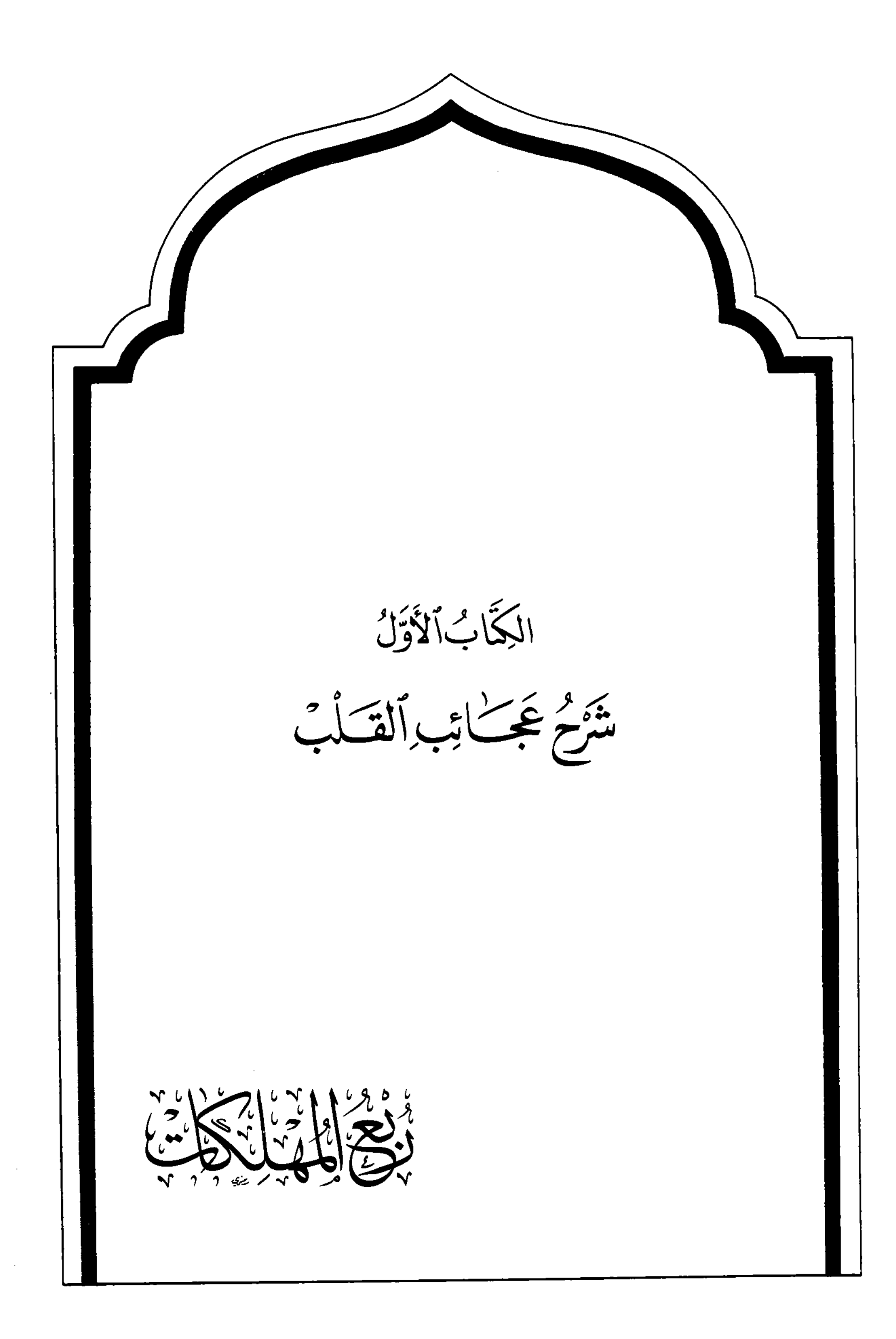

المهذب
من إحياء علوم الدين



بسم الله الرحمن الرحيم


ربع المهلكات





الكِتَابُ الأَوَّلُ

شَرْحُ عَجَائِبِ القَلْبِ

رُبْعُ المُهْلِكَاتِ



[مقدمة : مكانة القلب]:

إن شـرف الإنسـان وفضيلتـه ــ التي فـاق بهـا جملة من أصنـاف الخلق ــ بـاستعداده لمعـرفة الله سبحـانه، التي هي في الـدنيا جمـاله وكمـاله وفخـره، وفي الآخرة عدّته وذخره، وإنما استعد للمعرفة بقلبه، لا بجارحـة من جوارحـه، فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله وهـو الساعي إلى الله. وإنمـا الجـوارح أتباع وخـدم، يستخـدمهـا القلب ويستعملهـا استعمـال المـالـك للعبـد، واستخدام الراعي للرعية.

فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقـاً بغير الله. وهـو المطيـع بالحقيقـة لله تعالى، وإنمـا الذي ينتشـر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعـالى، وإنما السـاري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه.

وهو الذي إذا عـرفه الإنسـان فقد عـرف نفسه، وإذا جهله فقـد جهل نفسـه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل، إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، فمعرفـة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين.

* * *

وإذ فـرغنا من الشـطر الأول من هـذا الكتـاب، من النـظر فيمـا يجـري على الجوارح من العبادات والعادات ــ وهو العلم الظاهر ــ ووعدنا أن نشـرح في الشطر الثـاني مـا يجـري على القلب من الصفـات المهلكـات والمنجيـات ــ وهـو العلم البـاطن ــ فلا بـدَّ أن نقدم عليـه كتـابين: كتـابـاً في شـرح عجـائب صفـات القلب

وأخلاقه، وكتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمنجيات.

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام، فإن التصريح بعجائبه مما يكلُّ عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى: النفس، الروح، القلب، العقل:

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب، ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها، وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة، ونحن نشرح من معاني هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا.

اللفظ الأول: القلب. وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعنِ به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له.

الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب.

والمقصود: أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب، أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها، لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها، ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح. وهو أيضاً يطلق لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينتشر بواسطة العروق إلى سائر أجزاء البدن. وجريانه في البدن، وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منه على أعضائه، يضاهي فيضان النور من السراج الذي

يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلاَّ ويستنير به. والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه.

الثاني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معنيي القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

اللفظ الثالث: **النفس**. وهو مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة فيقولون: لا بدَّ من مجاهدة النفس وكسرها.

الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها، التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة، بحسب اختلاف أحوالها.

فإذا سكنت تحت الأمر، وزايلها الاضطراب ــ بسبب معارضة الشهوات ــ سميت: «النفس المطمئنة». قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2].

والنفس بالمعنى الأول لا يتصوَّر رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مبعدة عن الله. وهي من حزب الشيطان.

وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية، ومعترضة عليها

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) سورة الفجر: الآيتان (٢٧ ــ ٢٨).

سميت: «النفس اللوامة»، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال تعالى:

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1].

وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان، سميت: «النفس الأمّارة بالسوء». قال تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[2].

وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمّارة بالسوء: هي النفس بالمعنى الأول.

فإذاً: النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة، لأنها نفس الإنسان، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى.

اللفظ الرابع: العقل. وهو أيضاً مشترك لمعان، والمتعلق بغرضنا معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

الثاني: أنه قد يطلق ويراد به المدرِك للعلوم، وهو القلب، أعني تلك اللطيفة.

* * *

فإذا انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة، وهي: القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلوم[3]، فهذه أربعة معانٍ يطلق عليها الألفاظ الأربعة.

---

(١) سورة القيامة: الآية (٢).

(٢) سورة يوسف: الآية (٥٣).

(٣) أي العقل المدرك للعلوم.

ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسـان، والألفاظ الأربعـة بجملتها تتوارد عليها.

فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة. وكل لفظ أطلق لمعنيين.

وأكثـر العلمـاء قـد التبس عليهم اختـلاف هـذه الألفـاظ وتـواردهـا، فتـراهم يتكلمون في الخواطـر، ويقولـون: هذا خـاطر العقـل، وهذا خـاطر الـروح، وهذا خـاطـر القلب، وهـذا خـاطـر النفس. وليس يـدري النـاظـر اختـلاف معـاني هـذه الأسماء، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي.

وحيث ورد في القرآن والسنَّة لفظ «القلب»، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنّى عنه بالقلب الذي في الصدر.

بيان جنود القلب:

للقلب جندان: جند يرى بالأبصار، وجند لا يرى إلاَّ بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان، فهذا معنى الجند.

فأما جنده المشاهد بالعين، فهو: اليد والرجل والعين والأذن واللسان، وسائـر الأعضـاء الظاهـرة والباطنـة، فإنهـا جميعاً خـادمة للقلب ومسخـرة له. وقـد خلقت مجبولة على طاعته، لا تستطيع لـه خلافـاً، فإذا أمـر العين بالانفتـاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت.

وجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف:

الأول: صنف باعث ومستحث، إما إلى جلب النافع كالشهوة، وإمـا إلى دفع الضار المنافي كالغضب. وقد يعبر عن هذا الباعث بـ «الإرادة».

الثاني: هو المحـرك للأعضـاء إلى تحصيل هـذه المقاصـد، ويعبر عن هـذا الثـاني بـ «القدرة» وهي جنـود مبثوثـة في سائـر الأعضـاء لا سيمـا العضـلات منهـا والأوتار.

الثالث: هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس، وهي قوة البصر والسمـع

والشم والـذوق واللمس، وهي مبثوثـة في أعضاء معينـة، ويعبـر عن هـذا بـ «العلم والإدراك».

وهـذا الصنف الثالث هـو المدرك من هـذه الجملة، فإن الإنسـان بعـد رؤيـة الشيء يغمض عينه، فيدرك صورة «ذلك الشيء» في نفسه وهو: الخيـال. ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفـظه، وهو الجنـد الحافظ. ثم يتفكـر فيما حفـظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر مـا قد نسيـه ويعود إليـه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات.

ففي الباطن: حسّ مشترك، وتخيُّل، وتفكُّر، وتذكّر، وحفظ.

ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل، لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه. فتلك القوى أيضاً جنود باطنة، وأماكنها أيضاً باطنة.

فهذه هي أقسام جنود القلب، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضـرب الأمثلة يطول. ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلمـاء. ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم.

أمثلة القلب مع جنوده الباطنة:

اعلم أن جنديْ الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيـاداً تامـاً، فيعينه ذلـك على طـريقه الـذي يسلكه، وتحسن مـرافقتهما في السفـر الذي هـو بصـدده، وقـد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد، حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد.

وللقلب جنـد آخر، وهـو: العلم والحكمة والتفكـر، وحقـه أن يستعين بهـذا الجند ـــ فإنه حزب الله تعالى ـــ على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلتحقـان بحزب الشيطان، فإن تـرك الاستعانـة وسلط على نفسه جنـد الغضب والشهوة هلك يقينـاً، وخسر خسراناً مبيناً، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضـاء الشهوة، وكـان ينبغي أن تكون الشهـوة مسخَّرة لعقـولهم فيما يفتقر العقل إليه. ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بمثالين:

المثال الأول: اعلم أن البدن كالمدينة، والعقل ـ أعني المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمّارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط. فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره. وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى.

المثال الثاني: مثل العقل مثل فارس متصيد، وشهوته كفرسه، وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً، وفرسه مروضاً، وكلبه معلماً، كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق، وكان الفرس جموحاً، والكلب عقوراً، فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً، ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً، فهو خليق بأن يعطب، فضلاً عن أن ينال ما طلب.

وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان، وقلة حكمته، وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة، خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه.

بيان خاصية قلب الإنسان:

اعلم أن جملة ما ذكرناه، قد أنعم الله به على سائر الحيوانات، إذ للحيوان الشهوة والغضب، والحواس الظاهرة والباطنة أيضاً، حتى إن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه، فذلك هو الإدراك الباطن.

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه، واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى: علم وإرادة.

أما العلم، فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية، والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المحسوسات، ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل، إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة. وهذا حكم منه على كل شخص، ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلّا بعض الأشخاص، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه

الحس، وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري، فهو في سائر النظريات أظهر.

وأما الإرادة، فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبه الأمر، وطريق الصلاح فيه، انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة، وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة، وإرادة الحيوانات، بل يكون على ضد الشهوة، فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها، ويبذل المال فيها، والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض، والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها، وليس ذلك زاجر الشهوة، ولو خلق الله العقل المعرّف بعواقب الأمور، ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل، لكان حكم العقل ضائعاً على التحقيق.

فقلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان، بل ينفك عنها الصبي في أول الفطرة، وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ. وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي.

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته:

اعلم أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب. فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي: الصفات السبعية، والبهيمية، والشيطانية، والربانية.

فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء، والتهجم على الناس بالضرب والشتم.

ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره، والحرص والسبق وغيره.

ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال تعالى:

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

فإنه يدعى لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء، والتخصص والاستبداد بالأمور كلها، والتفرد بالرياسة، ويدعّي لنفسه العلم والمعرفة، والإحاطة بحقائق الأمور. والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق، من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك.

ومن حيث إنه يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية، فصار شريراً، يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع في القلب.

والقلب في حكم مرآة، فالآثار المحمودة تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقاً ونوراً وضياءً، حتى تتلألأ فيه جلية الحق، وتنكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين. وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر. قال الله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

وأما الآثار المذمومة، فإنها مثل دخان مظلم، يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى، إلى أن يسودّ ويظلم، ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى. وهو «الطبع» وهو «الرين» قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وقال عزّ وجلّ:

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٢) سورة المطففين: الآية (١٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٠).

فربط عدم السماع و «الطبع» بالذنوب.

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق، وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة، ويعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن، ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك، أولئك:

﴿يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[1].

وهذا هو معنى اسوداد القلب، كما نطق به القرآن والسنَّة.

حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم:

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية. والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة، والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية.

أما العقلية: فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل. ولا توجد بالتقليد والسماع، وهي تنقسم إلى:

- ضرورية، لا يدري من أين حصلت، وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون: حادثاً قديماً، موجوداً معدوماً معاً. فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها، ولا يدري متى حصل له هذا العلم، ولا من أين حصل له؟ أعني أنه لا يدري له سبباً قريباً، وإلَّا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه.

- وإلى علوم مكتسبة، وهي المستفادة بالتعليم والاستدلال.

وكلا القسمين قد يسمى عقلاً.

وأما العلوم الدينية: فهي المأخوذة بطريق التقليد، من الأنبياء، عليهم الصلاة

---

(١) سورة الممتحنة: الآية (١٣).

والسلام، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ، وفهم معانيهما بعد السماع. وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض.

فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب، وإن كان محتاجاً إليها، كما أن العقل غير كافٍ في استدامة أسباب صحة البدن، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء، إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل.

فلا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنّة مغرور. فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين. وظن من يظن: أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه.

والعلوم العقلية: تنقسم إلى دنيوية وأخروية:

- فالدنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة وسائر الحرف والصناعات.
- والأخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال، والعلم بالله وصفاته.

وهما علمان متنافيان: أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر. ولذلك ضرب علي رضي الله عنه للدنيا والآخرة مثلاً فقال: (هما ككفتي ميزان، وقال: هما كالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى).

الفرق بين الإلهام والتعلم:

اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية ـ وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال ـ تختلف الحال في حصولها:

فتارة تهجم على القلب، كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري.

وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم.

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل، يسمى: إلهاماً.

والذي يحصل بالاستدلال يسمى: اعتباراً واستبصاراً.

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد، ينقسم إلى:

- ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له، ومن أين حصل؟

- وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقي في القلب.

والأول: يسمى: إلهاماً ونفثاً في الروع، ويختص به الأولياء.

والثاني: يسمى: وحياً، وتختص به الأنبياء.

والذي قبلهما ـ وهو المكتسب بطريق الاستدلال ـ يختص به العلماء.

الفرق بين طريق الصوفية وطريق النظار:

إذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون، والبحث عن الأقاويل والأدلة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى.

وأما النظار وذوو الاعتبار، فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه، وإفضاءه إلى هذا المقصد على الندور، ولكن استوعروا هذا الطريق، واستبطؤوا ثمرته، واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر، وإن حصل في حال، فثباته أبعد منه، إذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب، قال ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»[1]. وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج، ويختلط العقل، ويمرض البدن.

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤) بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء».

وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم، نشبت بـالقلب خيالات فاسدة، تـطمئن النفس إليها مـدة طويلة، إلى أن يـزول وينقضي العمر قبـل النجاح فيهـا. فكم من صوفي سلك هـذا الطريق، ثم بقي في خيـال واحد عشـرين سنة، ولو كان قـد أتقن العلم من قبل، لانفتـح له وجـه التباس ذلـك الخيال في الحـال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض.

وقـالوا: إن ذلـك يضاهي مـا لو تـرك إنسـان تعلم الفقـه وزعم أن النبـي ﷺ لم يتعلم ذلك، وصار فقيهاً بالوحي والإلهام، من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بـي الرياضة والمواظبة إليه. ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمـره، بل هـو كمن يترك طـريق الكسب رجاء العثـور على كنز من الكنـوز، فـإن ذلـك ممكن ولكنه بعيد جداً. فكذلك هذا.

وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء، وفهم مـا قالـوه، ثم لا بأس بعـد ذلـك بـالانتـظار لمـا لم ينكشف لسـائـر العلمـاء، فعسـاه ينكشف بعـد ذلـك بالمجاهدة[1].

تسلط الشيطان على القلب بالوساوس:

اعلم أن القلب كمثـال قبة مضـروبة لهـا أبواب تنصب إليـه الأحوال من كـل باب، ومثالـه أيضاً: مثـال هدف تنصب إليـه السهام من الجـوانب، أو مثال حـوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه.

وأما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال:

- فهي من الظاهر: الحواس الخمس.

- وهي من البـاطن: الخيال والشهـوة والغضب والأخلاق المـركبة في مـزاج الإنسان.

(١) اختار المصنف طريق النظار كما صرح بذلك في (كتاب ذم الغرور) من هذا الكتـاب. انظر فقرة غرور المتصوفة.

فإنه إذا أدرك بـالحواس شيئـاً حصل منـه أثر في القلب، وكـذلك إذا هـاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل، حصل منها في القلب أثر.

والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً، من هذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر.

وأعني بـ «الخواطر» ما يحصل فيه من الأفكار والأذكـار، وأعني به: إدراكـاته علوماً، إما على سبيـل التجدد، وإمـا على سبيل التـذكر، فـإنها تسمى خـواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها.

والخواطر هي المحركات للإرادات، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعـد خطور المنوي بالبال لا محال.

فمبدأ الأفعال الخـواطر، ثم الخـاطر يحـرك الرغبـة، والرغبـة تحرك العـزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعصاء.

والخواطر المحركة للرغبـة تنقسم إلى ما يـدعو إلى الشـر، أعني إلى ما يضـر في العاقبة، وإلى مـا يدعـو إلى الخير، أعني إلى مـا ينفع في الـدار الآخرة، فهمـا خاطران مختلفان، فافتقرا إلى اسمين مختلفين:

ـ فالخاطر المحمود يسمى: إلهاماً.

ـ والخاطر المذموم ـ أعني الداعي إلى الشر ـ يسمى: وسواساً.

ولأنـوار القلب وظلمته سببـان مختلفان: فسبب الخـاطـر الـداعي إلى الخيـر يسمى: «ملكاً»، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى: «شيطاناً».

واللطف الذي يتهيأ بـه القلب لقبول إلهـام الخير يسمى: «تـوفيقاً» والـذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى: «إغواء وخذلاناً».

والملك: عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير، وإفـادة العلم، وكشف الحق، والوعد بالخير، والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك.

والشيـطان: عبارة عن خلق، شـأنه ضـد ذلك، وهـو الوعـد بـالشـر، والأمـر بالفحشاء، والتخويف عند الهمّ بالخير بالفقر.

فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الخذلان. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[1].

والقلب متجاذب بين الشيطان والملك. قال ﷺ: «إن للشيطان لَمة بابن آدم وللملك لَمة[2]، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان، ثم قرأ:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[3] »[4].

فإذا اتبع الإنسان مقتضى الشهوة ظهر تسلط الشيطان، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه صار قلبه مستقر الملائكة. ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع.. لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله شيطان». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير»[5].

وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي، وإلى الحد الذي ينبغي، فشهوته لا تدعو إلى الشر، فالشيطان المتدرع بها لا يأمر إلا بالخير.

ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٤٩).

(٢) اللَّمة: بالفتح: القرب والإصابة، فَعلة من الإلمام.

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦٨).

(٤) قال ابن كثير في تفسيره: رواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي حسن غريب ورواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً. وقد ذكره المصنف بمعناه وأثبتُّ نصه من تفسير ابن كثير.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٨١٤، ٢٨١٥).

فوسوس، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك.

قال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد[1] ما أجد في صدري من الوسوسة، فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص. فإن كان فيه شيء عالجوه، وإلا مضوا وتركوه. يعني: أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2].

فكل من اتبع الهوى، فهو عبد الهوى، لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3].

أي: إن الهوى إلهه ومعبوده، فهو عبد الهوى، لا عبد الله.

ولا يعالج الشيء إلا بضده. وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة، وهو معنى قولك: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى.

وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات، على سبيل الخلسة، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم

---

(١) العلاء بن زياد العدوي البصري، أحد العباد، كنيته أبو نصر، ثقة، روى له البخاري معلقاً، والنسائي وابن ماجه مات سنة (١٩٤)هـ.

(٢) سورة الحجر: الآية (٤٢).

(٣) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

﴿مُّبۡصِرُونَ﴾[1].

وقال تعالى في حق أضدادهم:

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾[2].

وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه، فسلطنة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه، ومحيطة بالقلب من جوانبه. ولذلك قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[3].

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار، معنى: الوسوسة والإلهام، والملَك والشيطان، والتوفيق والخذلان.

فحق على العبد أن يقف عند كل همّ يخطر له، ليعلم أنه من لَمة الملَك، أو لَمة الشيطان، وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة، لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة، وغزارة العلم، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾.

أي: ارجعوا إلى نور العلم.

﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[4].

أي ينكشف لهم الإشكال.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

(٢) سورة المجادلة: الآية (١٩).

(٣) متفق عليه (خ ٢٠٣٥، م ٢١٧٤).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب:

اعلم أن مثال القلب، مثال حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه، ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه. ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة.

ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة، الجارية مجرى الدروب، التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان:

● فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، ومهما غضب الإنسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة.

● ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص، فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه.

● ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام، وإن كان حلالاً، فإن الشبع يقوي الشهوات، والشهوات أسلحة الشيطان.

● ومن أبوابه: حب التزين من الأثاث والثياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان، باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها. . ويستسخره فيها طول عمره، فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى.

● ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب، لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه، بأنواع الرياء والتلبيس، حتى [يصبح] المطموع فيه كأنه معبوده. فلا يزال يتفكر في حيلة التودد إليه، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك.

● ومن أبوابه العظيمة: العجلة، وترك التثبت في الأمور. قال ﷺ: «العجلة

من الشيطان. والتأني من الله»[1]. وقال تعالى:

﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾[2].

وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمّل وتمهل، والعجلة تمنع ذلك، وعندها يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري.

● ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال.. وطلب الاستزادة منها.

● ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر، فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق، ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز.

● ومن أبوابه العظيمة: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد على الخصوم، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العبّاد والفساق جميعاً، فإن الطعن في الناس، والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع.

● ومن أبوابه: حمل العوام ـ الذين لم يمارسوا العلم ـ على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم، حتى يشككهم في أصل الدين.

● ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فمن يحكم بشرٍّ على غيره بالظن، بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة، فيهلك، أو يقصر في القيام بحقوقه، أو يتوانى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار، ويرى نفسه خيراً منه، وكل ذلك من المهلكات.

فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب. ولو أردت الاستقصاء لم أقدر عليه، وفي هذا القدر ما ينبه على غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ (الأناة) وقال: حسن (ع).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٧).

ما يؤاخذ به العبد من الخواطر:

اعلم أن هـذا أمر غـامض، وقد وردت فيـه آيات وأخبـار متعـارضـة، يلتبس طريق الجمع بينها إلا على العلماء بالشرع.

فقـد روي عن النبـي ﷺ أنـه قـال: «عفي عن أمتي مـا حـدّثت بـه نفـوسهـا مـا لم تتكلم به أو تعمـل به»[1]. وقـال أبو هـريرة: قـال ﷺ: «إن الله تعـالى يقـول للحفـظة: إذا همَّ عبدي بسيئـة فلا تكتبـوها، فـإن عملها فـاكتبوهـا سيئـة، وإذا همَّ بحسنـة فلم يعملها فـاكتبوهـا حسنة، فـإن عملها فـاكتبوهـا عشراً»[2] وقـد خـرجـه البخـاري ومسلم في الصحيحين، وهـو دليـل على العفـو عن عمـل القلب وهمّـه بالسيئة.

وكل ذلك يدل على العفو، فأما ما يدل على المؤاخذة، فقوله سبحانه:

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[4].

فدلَّ على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه.

والحق عنـدنا في هـذه المسألـة، لا يوقف عليـه ما لم تقـع الإحاطـة بتفصيـل أعمال القلوب، من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٢٦٩، م ١٢٧).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩١، م ١٢٨) واللفظ لمسلم.

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٨٤).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٣٦).

فنقول: أول ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في الطريق، لو التفت إليها لرآها. ونسميه «حديث النفس».

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر، وهو حركة الشهوة في الطبع، وهذا يتولد من الخاطر الأول، ونسميه: «ميل الطبع».

والثالث: حكم القلب، بأن هذا ينبغي أن يفعل، أي: ينبغي أن ينظر إليها. فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات. ويسمى هذا «اعتقاداً» وهو يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات، وجزم النية فيه. وهذا نسميه «همّاً بالفعل» و «نية» و «قصداً».

وهذا «الهمّ» قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول، حتى طالت مجاذبته للنفس، تأكد هذا الهمّ، وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة، فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فهاهنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر ــ وهو حديث النفس ــ، ثم الميل، ثم الاعتقاد، ثم الهمّ.

فنقول: أما الخاطر فلا يؤاخذ به، لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة، لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الاختيار. وهما المرادان بقوله ﷺ: «عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها» فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس، ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهمّ والعزم فلا يسمى حديث النفس.

وأما الثالث: وهو الاعتقاد، وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل، فهذا تردد بين أن يكون اضطراراً أو اختياراً. والأحوال تختلف فيه، فالاختياري منه يؤاخذ به والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهمّ بالفعل، فإنه مؤاخذ به. إلا أنه إن لم يفعل نظر، فإن

كان قد تركه خوفاً من الله تعالى، وندماً على همّه، كتبت لـه حسنة، لأن همّـه سيئة وامتناعه ومجاهدة نفسه حسنة، وإن تعوّق الفعل بعائق، أو تركه بعذر، لا خوفاً من الله تعالى، كتبت عليه سيئة، فإن همَّه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل: ما روي في الصحيح مفصلاً في لفظ الحديث: قال ﷺ: «قالت الملائكة: ربّ، ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة ـ وهو أبصر به ـ فقال: ارقبوه، فإن هو عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرائي[1]»[2]. أما إذا عزم عليها فتعذرت، فكيف تكتب له حسنة؟

وقال ﷺ: «إنما يحشر الناس على نياتهم»[3] ونحن نعلم أن من عزم ليلاً على أن يصبح ليقتل مسلماً، فمات تلك الليلة، مات مصراً ويحشر على نيته.

والدليل القاطع فيه، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» فقيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «لأنه أراد قتل صاحبه»[4]. وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار، مع أنه قتل مظلوماً، فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهمّ؟

بل كل همّ دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به، إلا أن يكفره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسّنه، فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة، وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة، فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار.

فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس، وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس، ولم يفرق بين هذه الأقسام الثلاثة فلا بدّ وأن يغلط، وكيف لا يؤاخذ بأعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد،

---

(١) أي من أجلي.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٢٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه دون قوله (إنما) ولمسلم من حديث عائشة: «يبعثهم الله على نياتهم». وله من حديث أم سلمة: «يبعثون على نياتهم» (ع).

(٤) متفق عليه (خ ٣١، م ٢٨٨٨).

وجملة الخبائث من أعمال القلب؟! بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، أي ما يدخل تحت الاختيار.

بيان سرعة تقلب القلب:

اعلم أن القلب ــ كما ذكرناه ــ تكتنفه الصفات التي ذكرناها، وتنصب إليه الآثار والأحوال، من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب.

فتارة يكون متنازعاً بين ملكين[1]، وتارة يكون بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان. ولا يكون مهملاً قط، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾[2].

ولاطِّلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه، كان يحلف به فيقول: «لا، ومقلب القلوب»[3]، وكان كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»[4].

والقلوب في الثبات على الخير والشر، والتردد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عمر بالتقوى، وزكا بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق، تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[5].

وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات، يصير على القرب معموراً بالمنجيات

(١) المقصود من ذلك: إن جذبه ملك إلى خير، جذبه ملك آخر إلى خير آخر. وكذلك في الذي يكون بين شيطانين.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١١٠).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧٣٩١).

(٤) رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، والحاكم من حديث جابر وقال صحيح على شرط مسلم. ولمسلم «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» برقم (٢٦٥٤).

(٥) سورة الليل: الآيات (٥ ــ ٧).

من الشكر والصبر والخوف. . . وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة.

ومبدأ الشر فيه: أن ينقدح فيه خاطر من الهوى، ويهجس فيه. . ويكون العقل قد ألف خدمة الهوى. . فيقوى سلطان الشيطان، فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً، فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور اليقين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى، فتدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير، فتنبعث النفس بشهواتها إلى نصرة خاطر الشر، فتقوى الشهوة، وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث العقل إلى خاطر الخير، ويدفع في وجه الشهوة، ويقبح فعلها، وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب، فتميل النفس إلى نصح العقل. .

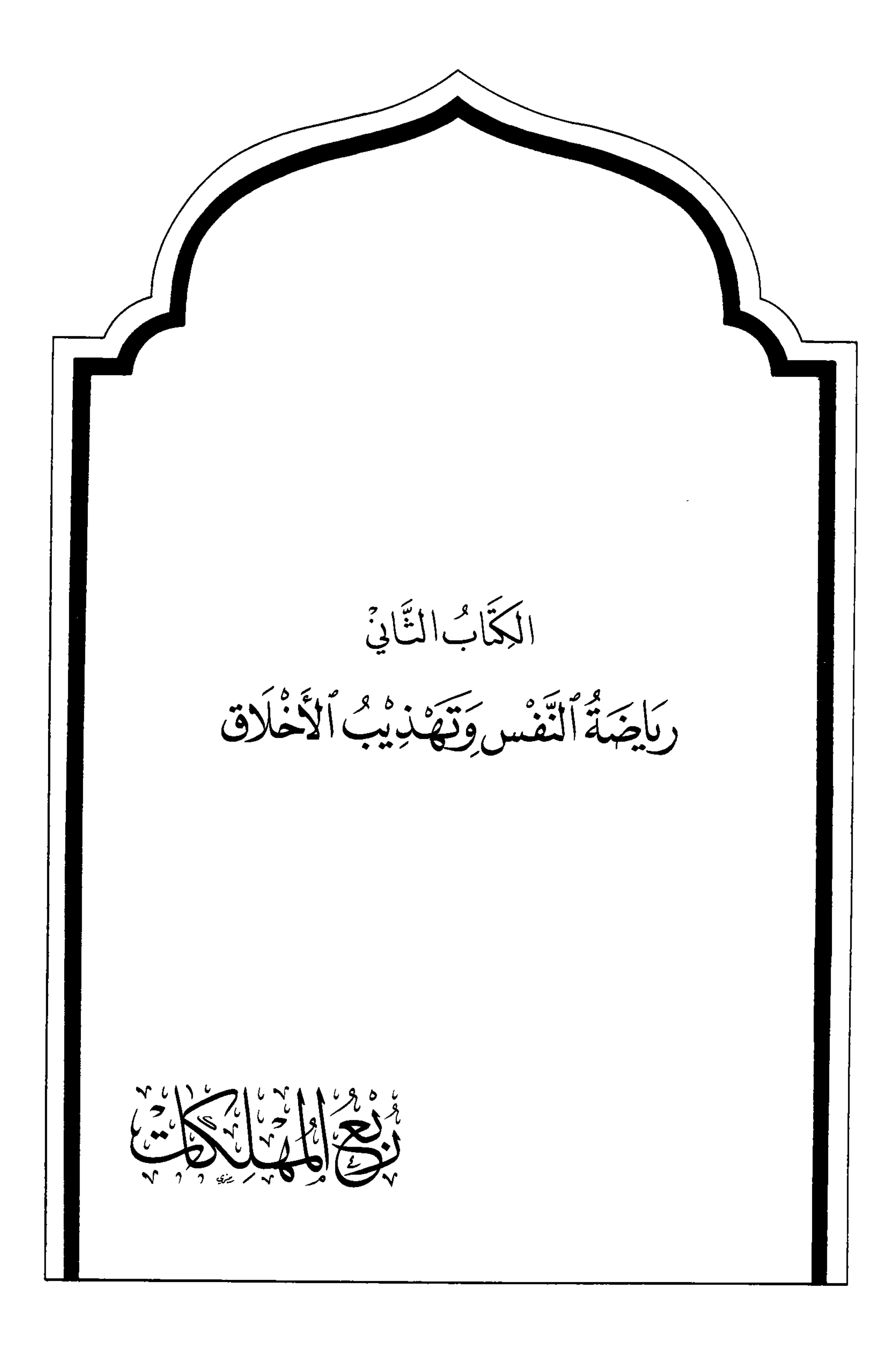
فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به. فإن كانت الصفات التي في القلب، الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها غلب الشيطان، ومال القلب إلى جنسه، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية، لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان وتحريضه، بل مال إلى حزب الله تعالى، وظهرت الطاعة على جوارحه.

فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ـ أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب ـ أعني التقليب والانتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة، أو مع حزب الشيطان، فنادر من الجانبين.

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفرقان: الآيتان (٤٣ ـ ٤٤).



الكِتَابُ الثَّانِي

رِيَاضَةُ ٱلنَّفْسِ وَتَهْذِيْبُ ٱلأَخْلَاقِ

رُبعُ المُهلكات



[تمهيد: عن موضوع هذا الكتاب]

الخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين.

والأخلاق السيئة، هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والخبائث المبعدة عن جوار ربِّ العالمين. والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس، إلَّا أنه مرض يفوِّت حياة الأبد.

ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب، والقول في كيفية معالجتها على الجملة، من غير تفصيل، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع. وغرضنا الآن: النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها.

فضيلة حسن الخلق:

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنياً عليه، ومظهراً نعمته لديه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن)[٢].

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣].

وقال ﷺ: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق»[٤].

---

(١) سورة القلم: الآية (٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٤٦).

(٣) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي (ع). (٤) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه (ع).

وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلَّا أنت»[2].

حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق:

اعلم أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق، فتعرضوا لثمرته ولم يتعرضوا لحقيقته، ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه، ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حدِّه وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل.

فنقول: الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخلق والخلق، أي: حسن الباطن والظاهر.

فيراد بالخَلْق: الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق: الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرَك بالبصر، ومن روح ونفس مدرَك بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة، إما قبيحة وإما جميلة.

فالنفس المدرَكة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى:

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3].

فنبَّه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى ربِّ العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧١).

(٣) سورة صٓ: الآيتان (٧١ و ٧٢).

فالخُلُق: عبارة عن هيئة في النفس راسخة، تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية.

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة، لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية، لأن من تكلف بذل المال، أو السكوت عند الغضب بجهد وروية، لا يقال: خلقه السخاء والحلم.

فهاهنا أربعة أمور:

أحدها: فعل الجميل والقبيح.

الثاني: القدرة عليهما.

الثالث: المعرفة بهما.

الرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن، وإما القبيح.

وليس الخلق واحداً من الثلاثة الأولى. لأن البذل قد يصدر عن بخيل لباعث الرياء.. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل.

فالخلق هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها، حتى يتم حسن الخلق.

فإذا استوت الأركان الأربعة، واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق، وهي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم، فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا حصلت هذه القوة حصل منها ثمرة: الحكمة.

وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوة العدل: فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فأمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل. والباقي فروعها.

قبول الأخلاق للتغيير بالرياضة:

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة، استثقل المجاهدة والرياضة، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق. فزعم أن الأخلاق لا يتصوَّر تغييرها، فإن الطباع لا تتغير. واستدل على ذلك بأمرين:

أحدهما: أن الخلق هو صورة الباطن، كما أن الخلق هو صورة الظاهر، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

الثاني: قالوا: حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب، وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة، وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع، وهو لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير، لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات. وكيف ينكر هذا في حق الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكن؟ إذ ينقل الكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية. والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى:

ـ ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله، كالسماء والأرض بل وأعضاء البدن داخلاً وخارجاً.

ـ وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً، وجعل فيه قوة لقبول الكمال، بعد أن يوجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد.

فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلاَّ أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف إليها التربية، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية. فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار، حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر، لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك، وصار ذلك سبب نجاتنا، ووصولنا إلى الله تعالى. نعم، الجبلات مختلفة، بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول. وسبب ذلك: إما قوة في أصل الجبلة، أو تأكد الخلق بكثرة العمل بمقتضاه واعتقاد كونه حسناً ومرضياً.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به، وهو قولهم: إن الآدمي ما دام حياً لا تنقطع عنه الشهوة والغضب..

فهذا غلط وقع لطائفة، ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها، وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة، وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه. فليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. فالمطلوب في صفة الغضب بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً، وبالجملة: أن يكون في نفسه قوياً، ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

وصفهم بالشدة، وهي إنما تصدر عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد.

وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لم ينفكوا عن ذلك، إذ قال ﷺ: «إنما أنا بشر، أغضب كما يغضب البشر»[1]، وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه، ولكن لا يقول: إلاَّ حقاً، فكان ﷺ لا يخرجه غضبه عن الحق[2].

وقال تعالى:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[3].

ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما، وهو المراد بتغيير الخلق. وذلك ممكن تدل عليه التجربة والمشاهدة.

السبب الموصل إلى حسن الخلق:

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل، وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة، وكونها مطيعة للعقل وللشرع. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلٓهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل، حسن الخلق، فيصير مؤدباً بغير تأديب، كعيسى بن مريم، وكذا سائر الأنبياء.

الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٣).

(٢) متفق عليه (خ ٢٣٦٠، م ٢٣٥٧).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٣٤).

فمن أراد ــ مثلاً ــ أن يحصل لنفسه خلق الجود، فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد، وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه، ويواظب عليه تكلفاً، مجاهداً نفسه، حتى يصير ذلك طبعاً له، ويتيسر عليه، فيصير به جواداً.

وكذلك من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع، وقد غلب عليه الكبر، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، وهو فيها مجاهد نفسه، ومتكلف أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً، فيتيسر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة تحصل بهذه الطريق.

فالأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداءً، لتصير طبعاً انتهاءً. وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح. ويعرف ذلك بمثال: فمن أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية ــ حتى يصير كاتباً بالطبع ــ فلا طريق له إلاَّ أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة، يحاكي الخط الحسن. فيتشبَّه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة:

تارة تكون بالطبع والفطرة.

وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة.

وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم، وهم قرناء الخير، وإخوان الصلاح، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً.

فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً، فهو في غاية الفضيلة. ومن كان رَذْلاً بالطبع، واتفق له قرناء سوء، فتعلم منهم، وتيسرت له أسباب الشر، حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عزَّ وجلّ. وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكلٍ درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١).

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

بيان الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه، فلنتخذ البدن مثالاً: فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل عنها وجلب الفضائل إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له، وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة عوارض الأغذية والأهوية والأحوال فتضرها، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتياد والتعليم.

وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس، تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالتعليم.

وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن، الموجبة للمرض، لا تعالج إلاَّ بضدها، فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت برودة فبالحرارة. فكذلك الرذيلة، التي هي مرض القلب، علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع. وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧ و ٨).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٣).

من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب، بل هو أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب ـ والعياذ بالله ـ مرض يدوم بعد الموت أبد الأبد.

وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة، فكذلك الشيخ الذي يطبب نفوس المريدين، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم.

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم.

فهذه أمثلة تعرفك طريقة معالجة القلوب. وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ـ فإن ذلك سيأتي ـ وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه: سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه.

وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

والأصل المهم في المجاهدة: الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها، ويكون ذلك ابتلاءً من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عوّد نفسه تَرْكَ العزم ألفت ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقض عزم فينبغي أن يلزم نفسه عقوبة عليه.

علامات أمراض القلب:

اعلم أن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خُلق له، حتى لا يصدر منه أصلاً، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار.

---

(١) سورة النازعات: الآيتان (٤٠ ـ ٤١).

وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو: العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى.. فمن عنده شيء أحب إليه من الله تعالى فقلبه مريض.

فهذه علامات المرض، وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة إلَّا ما شاء الله. إلَّا أن من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح.

فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض. فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً. واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب، وأنكر مرضها.

وعلامات العودة إلى الصحة بعد المعالجة، أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل، فإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذراً، فيكون التبذير أيضاً داءً. فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء. بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة، وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير، حتى يكون على الوسط. وفي غاية البعد عن الطرفين.

ولما كان الوسط الحقيقي في غاية الغموض، وهو الصراط المستقيم في الدنيا.. وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(١).

إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية (٦).

الطريق الذي تعرف به عيوب النفس:

اعلم أن الله عزَّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى[1] في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الطريق الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات. ويحكمه في نفسه، ويتبع إشاراته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عزَّ في هذا الزمان وجوده.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً، بصيراً متديناً، فينصبه رقيباً على نفسه، ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره منها ينبهه عليه. فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي.

وكان يسأل حذيفة بن اليمان ويقول له: أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى علي شيئاً من آثار النفاق؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه.

وكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلَّا أن هذا أيضاً قد عزَّ، فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس، فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟

---

(١) القذى: جمع قذاة، وهي ما يقع في عين الإنسان، أو في الماء والشراب من نحو تراب وتبن ووسخ.

فقد كانوا يحبون أن ينبهوا لعيوبهم، وقد آل الآمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساويا. ولعل انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس، فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق، فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى. فليتفقد نفسه، ويطهرها من كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً، لو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

علامات حسن الخلق:

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي، ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه، وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق، فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق.

وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ

يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[4].

إلى آخر السورة.

فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات. فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات (١ ــ ١١).

(٢) سورة التوبة: الآية (١١٢).

(٣) سورة الأنفال: الآيات (٢ ــ ٤).

(٤) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق. فقال: «المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[3].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[4].

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[5].

وأولى ما يمتحن به حسن الخلق، الصبر على الأذى، واحتمال الجفاء. ومن شكا من سوء خلق غيره، دل ذلك على سوء خلقه، فإن حسن الخلق احتمال الأذى.

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يوماً يمشي، ومعه أنس، فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً، وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية، قال أنس: حتى نظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه، فقال: يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ثم أمر بإعطائه[6].

وروي أن علياً رضي الله عنه، دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امضِ فأنت حر.

---

(١) متفق عليه (خ ١٣، م ٤٥)، بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب..».

(٢) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).

(٣) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧، و٤٨).

(٤) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).

(٥) أخرجه أحمد والطبراني والحاكم، وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى. ورواه الطبراني والحاكم، وصححه على شرطهما من حديث أبي أمامة.

(٦) متفق عليه (خ ٣١٤٩، م ١٠٥٧).

وشتم رجل الأحنف بن قيس[1]، وهو لا يجيبه، وكان يتبعه، فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان بقي في نفسك شيء فقله، كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي، فقال: يا هذه، وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة.

فهذه النفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها، فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى، وهو منتهى حسن الخلق.

فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات، فلا ينبغي أن يغتر بنفسه، فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق.



---

(١) الأحنف بن قيس، أبو بحر، سيد تميم، وأحد الفصحاء والعلماء الأجلاء، قيل اسمه الضحاك، والأحنف لقب له، وبه جزم الحافظ ابن حجر، ولد في عهد النبي ﷺ ولم يره، اعتزل الفتنة يوم الجمل، وشهد صفين مع علي رضي الله عنه، يضرب المثل بحلمه، توفي سنة (٧٢)هـ.

فَصْلٌ
في تَربِيَةِ ٱلصِّبْيَانِ[1]

مسؤولية الوالدين عن التربية:

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عوِّد الخير وعلمه نشأ عليه، وإن عوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾[2].

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا، فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده النعيم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد.

مراقبة الرضاع وأول النشوء:

وينبغي أن يراقبه من أول أمره، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلاَّ امرأة متديّنة تأكل الحلال. فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

---

(١) هذا الفصل هو فقرة من كتاب (رياضة النفس) ولأهميته ميَّزته ووضعت له هذه العناوين الفرعية.

(٢) سورة التحريم: الآية (٦).

ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي، ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلاَّ لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً مخالفاً للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه.

التأديب في شأن الطعام:

وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلاَّ بيمينه، وأن يقول عليه «بسم الله» عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه.

وأن يعوّد الخبز القفار[1] في بعض الأوقات، حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً، ويقبِّح عنده كثرة الأكل، بأن يشبِّه من يكثر الأكل بالبهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام، وقلة المبالاة به، والقناعة بالطعام الخشن، أي طعام كان.

التأديب في شأن اللباس:

وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم[2]، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين، وأن الرجال يستنكفون منه، ويكرر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه.

---

(١) أي: الخبز اليابس وحده.

(٢) أي: الحرير.

ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية، ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يُسمعه ما يرغبه فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق، وإنما يحفظ بحسن التأديب.

التأديب في شأن التعليم :

ثم يشغل في المكتب، فيتعلم القرآن، وأحاديث الأخبار، وحكايات الأبرار وأحوالهم، لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في نفوس الصبيان بذر الفساد.

مكافأة الإحسان، والتدرج في معالجة الخطأ :

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل، وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس.

فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة، فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يهتك ستره، ولا يكاشفه، ولا يظهر له أنه يتصوَّر أن يتجاسر على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة.

فإن عاد ثانياً، فينبغي أن يعاتب سراً، ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يطلع عليك في مثل هذا، فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهوِّن عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه.

وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلَّا أحياناً، والأم تخوفه بالأب، وتزجره عن القبائح.

وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية، فإنه لا يخفيه إلَّا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا ترك تعود فعل القبيح.

الرياضة والبعد عن الكسل:

وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع منه ليلاً، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة، حتى تتصلب أعضاؤه، ولا يسمن بدنه، فلا يصبر عن التنعم، بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعـود في بعض النهـار المشي والحـركـة والـريـاضـة، حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعود أن لا يكشف أطرافه، ولا يسرع المشي..

وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً، يستـريح إليـه من تعب المكتب، بحيث لا يتعب في اللعب، فـإن منـع الصبـي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائمـاً، يميت قلبه، ويبـطل ذكاءه، وينغص عليـه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً.

وينبغي إذا ضربه المعلم، أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفـع بأحـد، بـل يصبر، ويـذكر لـه أن ذلك دأب الشجعـان والـرجـال، وأن كثـرة الصـراخ دأب النسوان.

التواضـع والتعفـف:

ويمنـع من أن يفتخـر على أقـرانـه بشيء ممـا يملكـه والـــداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه، أو لوحه ودواته، بل يعـوَّد التواضـع، والإكرام لكـل من عاشـره، والتلطف معهم في الكلام، ويمنع أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له، حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يعلم الرفعة في الإعطاء، لا في الأخذ، وأن الأخذ خسَّة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء، فليعلم أن الطمع والأخذ ذلة ومهانة.

الآداب الاجتماعيـة:

وينبغي أن يعلم ويعــوَّد أن لا يبصق في مجلســه، ولا يتمخط، ولا يتثــاءب بحضـرة غيره، ولا يستـدبر غيـره، ولا يضع رجـلاً على رجل، ولا يضـع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل.

ويعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة، وأنه فعل اللئام.

ويمنع اليمين[1] رأساً ـ صادقاً كان أو كاذباً ـ حتى لا يعتاد ذلك في الصغر.

ويمنع أن يبتدىء بالكلام، ويعود أن لا يتكلم إلَّا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره، ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان.

ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه، ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الوقار، وأن يترك اللعب بين أيديهم.

سنّ التمييز:

ومهما بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

الخلاصة:

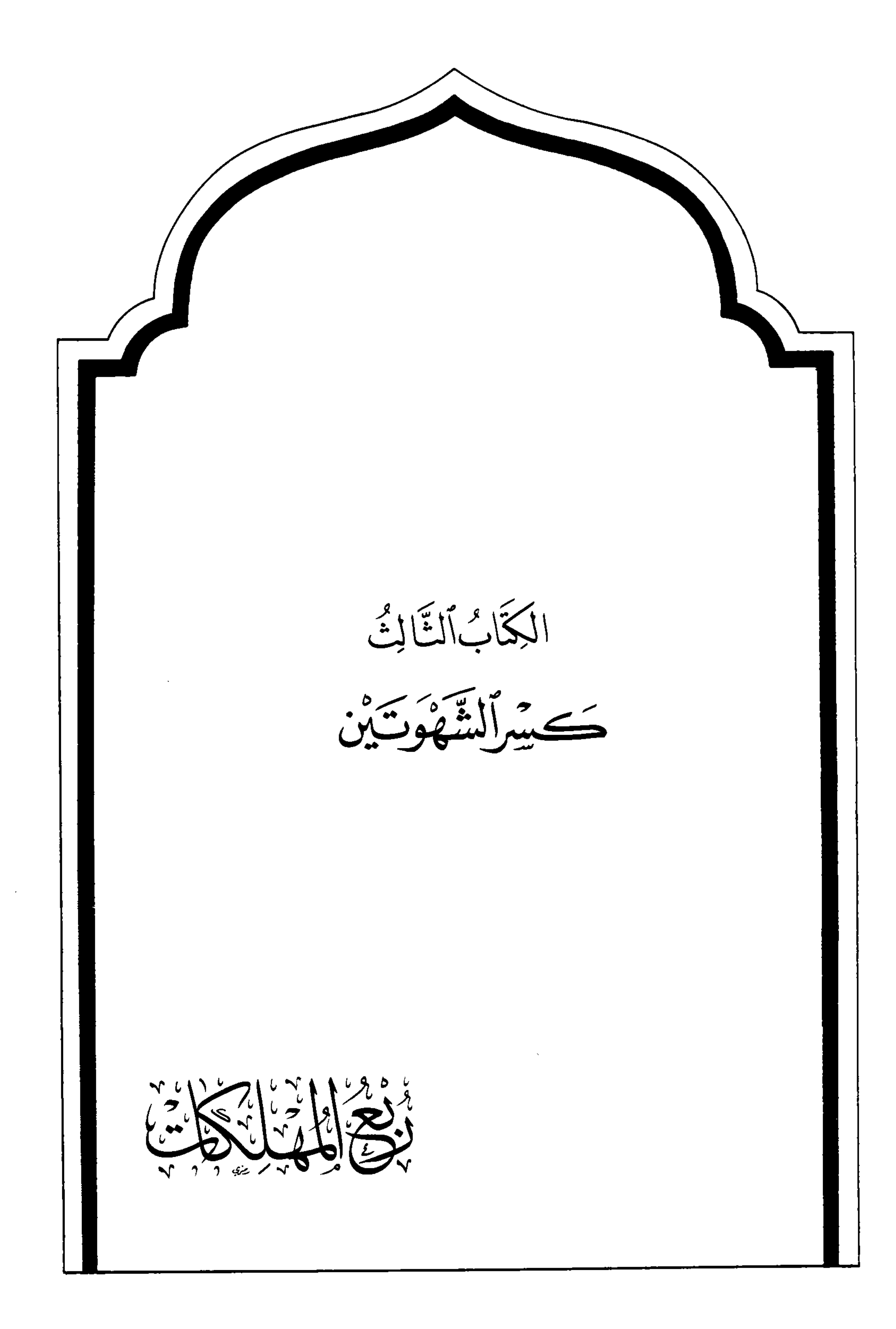
فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2].



---

(١) أي: حلف اليمين.

(٢) متفق عليه (خ ١٣٥٨، م ٢٦٥٨).



الكِتَابُ الثَّالِثُ

كَسْرِ الشَّهْوَتَيْنِ

رُبْعُ المُهْلِكَاتِ



[تمهيد]

إن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، بها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار، إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما.

والبطن ـ على التحقيق ـ ينبوع الشهوات، ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوة الفرج.

ونحن نوضح ذلك في فصول يجمعها: بيان فضيلة الجوع، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن.. ثم القول في شهوة الفرج.

فضيلة الجوع:

قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لا بدّ فاعلاً، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه»[١].

وقال ﷺ: «المؤمن يأكل في معى واحد، والمنافق يأكل في سبعة أمعاء»[٢]، أي: يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن، أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته، وذكر «المعى» كناية عن الشهوة، لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه، كما يأخذه المعى، وليس المعنى زيادة عدد أمعاء المنافق على أمعاء المؤمن.

وقال أبو هريرة: «ما أشبع رسول الله ﷺ أهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٥٣٩٤، م ٢٠٦٠).

(٣) متفق عليه (خ ٥٣٧٤، م ٢٩٧٦).

وقال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها ثقل في الحياة، نتن في الممات.

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك، أنت أهون على الله من ذلك، إنما يجوع محمد ﷺ وأصحابه.

وقال سهل بن عبد الله التستري: لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام، اقتداءً بالنبي ﷺ في أكله.

فوائد الجوع وآفات الشبع:

لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء، ومن جوع نفسه مصدقاً لما جاء من مدح الجوع. وفي الجوع فوائد:

الأولى: صفاء القلب، وإيقاد القريحة، وإنفاذ البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة، ويعمي القلب، ويكثر البخار في الدماغ، ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه، الذي به تهيأ لإدراك لذة التأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان، مع حضور القلب، لا يلتذ به. قال الجنيد[1]: يجعل أحدكم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة؟

الثالثة: الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له.

---

(١) الجنيد بن محمد، أبو القاسم. ولد ونشأ ببغداد، له باع طويل في العلوم المختلفة. سيد الطائفة وشيخ التصوف في زمانه. التزم في تصوفه بالكتاب والسنة ومن قوله: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي سنة (٢٩٧)هـ.

ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي ﷺ قال: «لا، بل أجوع يوماً، وأشبع يوماً، فإذا جعت صبرت وتضرعت، وإذا شبعت شكرت»(١).

الرابعة: أن لا ينسى أهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع. ولذلك قيل ليوسف عليه السلام: لم تجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والشفقة على خلق الله عزَّ وجلّ. والشبعان في غفلة عن ألم الجائع.

الخامسة: كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات. ومادتها لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة. وإنما السعادة كلها أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس.

السادسة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل، وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق.

السابعة: خفة المؤونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له، آخذاً بمخنقه كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم..

الثامنة: أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين. فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأبقى، أو أكل فأفنى، أو لبس فأبلى. فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه، وابن سعد والطبراني والبيهقي بلفظ: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أجوع..» (ش).

الرياضة في كسر شهوة البطن:

اعلم أن على المريد في بطنه ومأكوله وظائف:

منها: أن لا يأكل إلا حلالاً، فإن العبادة مع أكل الحرام، كالبناء على أمواج البحار، وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب «الحلال والحرام».

ومنها: تقليل الطعام، وسبيل الرياضة فيه التدريج، فمن اعتاد الأكل الكثير، وانتقل إلى القليل دفعة واحدة لم يحتمله مزاجه، وضعف وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً، وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد، فمن كان يأكل رغيفين مثلاً، وأراد أن يرد نفسه إلى رغيف واحد، فينقص كل يوم مقدار لقمة، فيرجع إلى رغيف في شهر، ولا يستضر به، ولا يظهر أثره.

وتقدير الطعام لا يمكن، لأنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

ومنها: في نوع الطعام الإدام، وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع عن الشهوات.

بلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيان يأكل أنواع الطعام، فقال عمر لمولى له: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني، فأعلمه، فدخل عليه، فقرِّب عشاؤه، فأتوه بثريد لحم، فأكل معه عمر، ثم قرب الشواء، وبسط يزيد يده، وكف عمر يده وقال: الله الله، يا يزيد بن أبي سفيان، أطعام بعد طعام؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم.

وعلى الجملة: لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات، واتباعها بكل حال، فالمطلوب في جميع الأمور الوسط، إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وما أوردناه في فضائل الجوع، ربما يومىء إلى أن الإفراط فيه مطلوب، وهيهات!!

فالعالم يدرك أن المقصود الوسط، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يحصل الاعتدال، فإن من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد، فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية، فإن أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته.

فقد بالغ الشرع في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم لما علم النبي ﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله، نهى عنه[1].

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة، ولا يحس بألم الجوع. فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة.

القول في شهوة الفرج:

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدة عظيمة، وهي بقاء النسل ودوام الوجود.

ولكن فيها من الآفات، ما يهلك الدين والدنيا إن لم تضبط، ولم تقهر، ولم ترد إلى حدّ الاعتدال.

وأعظم الشهوات شهوة النساء، وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفريط واعتدال.

فالإفراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء، حتى يجر إلى اقتحام الفواحش.

وتفريطها أيضاً مذموم.

وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح، قال ﷺ: «يا معشر الشباب. من استطاع منكم الباءة[2] فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3].



(١) متفق عليه (خ ٥٠٦٣، م ١٤٠١).

(٢) المقصود: مؤنة النكاح.

(٣) متفق عليه (خ ١٩٠٥، م ١٤٠٠).





الكِتَابُ الرَّابِعُ

آفَاتُ اللِّسَانِ

رُبعُ المهلكات



[تمهيد]

إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جِرمه، عظيم طاعته وجُرمه، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان.

وإن كل ما يتناوله العلم، يعرب عنه اللسان، إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء.

وهو أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان. ونحن ــ بتوفيق الله ــ نفصل مجامع آفات اللسان، ونذكرها واحدة واحدة، بحدودها وأسبابها وغوائلها، ونعرِّف طريق الاحتراز عنها.

خطر اللسان وفضيلة الصمت:

اعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.

قال عقبة بن عامر، قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»(١).

وقال ﷺ: «من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة»(٢).

وقال معاذ بن جبل: قلت: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «ثكلتك

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن (ع).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٤٧٤).

أمسك يا ابن جبل، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[2].

وقال ابن مسعود: يا لسان قل خيراً تغنم، وأمسك عن شر تسلم، من قبل أن تندم.

وقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ: أما بعد فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدَّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية، والأحنف بن قيس ساكت، فقال له: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت، وأخشاك إن صدقت.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان، من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة، والرياء والنفاق.. وهي لا تثقل على اللسان، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع، ومن الشيطان. ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته.

آفات اللسان:

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام:

قسم: هو ضرر محض.

وقسم: هو نفع محض.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٦٠١٨، م ٤٧).

وقسم: فيه ضرر ومنفعة..

وقسم: ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع. فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع.

وهذا الربع فيه خطر، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع، والغيبة وتزكية النفس، وفضول الكلام، امتزاجاً يخفى دركه، فيكون الإنسان به مخاطراً.

ونحن الآن نعدّ آفات اللسان، ونبتدىء بأخفها، ونترقى إلى الأغلظ قليلاً، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول. وهي عشرون آفة.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني

اعلم أن أحسن أحوالك، أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات. وتتكلم فيما هو مباح، لا ضرر عليك فيه، ولا على مسلم أصلاً.

إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه، ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة؟

ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز، فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها، كان خاسراً خسراناً مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى، واشتغل بمباح لا يعنيه. فإنه ــ وإن لم يأثم ــ فقد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى.

ولهذا قال النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي وقال غريب، وابن ماجه (ع) وكذا أحمد والبيهقي ومالك والنسائي (ش).

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك: أن تتكلم بكلام لو سكتَّ عنه لم تأثم، ولم يستضر به في حال ولا مآل، مثاله: أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار. ومن جملتها: أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع.

وأما سببه الباعث عليه: فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية[1] الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله: أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله. هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل: فالعزلة، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه.

الآفة الثانية: فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة على قدر الحاجة فيما يعني، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره، وإذا تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فضول ــ أي فضل عن الحاجة ــ وهو أيضاً مذموم لما سبق، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

قال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم، حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته.

وقال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم، كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. أتنكرون أن عليكم حافظين:

﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾[2].

---

(١) في القاموس: زجاه: ساقه ودفعه، والمقصود: تمضية الأوقات.

(٢) سورة الانفطار: الآية (١١).

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

أما يستحيي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره، كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، والمهم محصور في كتاب الله تعالى، قال عزَّ وجلّ:

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2].

وعلاجه: ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه.

وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس، أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها، لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا.

وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله،

(١) سورة قٓ: الآيتان (١٧ ــ ١٨).
(٢) سورة النساء: الآية (١١٤).

ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»[1].

قال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم: توضؤوا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث.

فهذا هو الخوض في الباطل، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[2].

وقوله:

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[3].

الآفة الرابعة: المراء والجدال

وذلك منهي عنه، قال ﷺ: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه»[4]. وقال ﷺ: «من ترك المراء وهو محق، بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة»[5].

وحدّ المراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذباً، ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه.

وأما المجادلة: فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه، وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح. وللشيخين والترمذي: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار» (ع).

(٢) سورة المدثر: الآية (٤٥).

(٣) سورة النساء: الآية (١٤٠).

(٤) أخرجه الترمذي (ع).

(٥) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن (ع).

والباعث على هذا، هو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه.

وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. وهما من باب تزكية النفس، وهي من مقتضى العلو والكبرياء.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله. فإن علاج كل علة إماطة سببها.

روي أن أبا حنيفة قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال، فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم. قال: ففعلت ذلك، فما رأيت مجاهدة أشد علي منها.

الآفة الخامسة: الخصومة

وهي أيضاً مذمومة، وهي وراء الجدل والمراء.

فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به سوى تحقير الغير، وإظهار مزية الكياسة. والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.

والخصومة: لجاج في الكلام، ليستوفى به مال، أو حق مقصود.

وفي الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»[1]. فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه، أو في حفظه، إذا ظلمه ظالم، فكيف تذم خصومته؟!

فاعلم: أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل، والذي يخاصم بغير علم، والذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١٨٨) ومسلم برقم (٢٦٦٨).

وكسره. . ومن الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسره، وإني إذا أخذت منه المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي. . وهذا مقصوده الخصومة واللجاج، وهو مذموم جداً.

فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف، وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه، وبقي الحقد بين المتخاصمين.

فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، ومن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم.

نعم، أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال، طيب الكلام، وما ورد فيه من الثواب، وقد قال تعالى:

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1].

وفي الحديث: «الكلمة الطيبة صدقة»[2].

قال ابن عباس: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام، وإن كان مجوسياً، إن الله تعالى يقول:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[3].

وقال عمر رضي الله عنه: البر شيء هين: وجه طلق وكلام لين.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٠٠٩).

(٣) سورة النساء: الآية (٨٦).

الآفة السادسة: التقعر في الكلام

التقعر في الكلام، بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدمات، وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة. وكل ذلك من التصنع المذموم، ومن التكلف الممقوت.

قال ﷺ: «إن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجلساً: الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام»[1].

ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة.

ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها، وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه، فهو لائق به.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه. ومصدره الخبث واللؤم. قال ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء»[2]. وقال ﷺ: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً»[3].

فهذه مذمة الفحش، وأما حدّه وحقيقته: فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وأكثر ذلك يقع في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه. وأهل الصلاح يتحاشون عنها، ويكنون عنها، ويدلون عليها بالرموز، فيذكرون ما يقاربها وما يتعلق بها.

قال ابن عباس: إن الله حيي كريم، يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه (ع).

(٢) أخرجه الترمذي بإسناد صحيح (ع).

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح (ع).

واللمس والدخول والصحبة والمسيس، كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير.

والباعث على الفحش، إما قصد الإيذاء، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم، ومن عاداتهم السب.

قال ﷺ: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر»[١].

وقال ﷺ: «من أكبر الكبائر أن يسبَّ الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله، كيف يسب والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه»[٢].

الآفة الثامنة: اللَّعن

اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، مذموم، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بلعان»[٣]، وقال ﷺ: «لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم»[٤].

وقال عمران بن حصين: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها، فضجرت منها فلعنتها، فقال ﷺ: «خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة» قال: فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد[٥].

وقال ﷺ: «إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[٦].

واللعن: عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٤٤، م ٦٤).
(٢) متفق عليه (خ ٥٩٧٣، م ٩٠).
(٣) أخرجه أحمد والترمذي بإسناد صحيح (ع).
(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).
(٥) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٥).
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٨).

وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزَّ وجلّ، وهو الكفر والظلم، بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين.

والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق.

قال ﷺ: «من لعن مؤمناً فهو كقتله»[1].

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر.

الآفة التاسعة: الغناء والشعر

قد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده.

وأما الشعر فكلام، حسنه حسن، وقبيحه قبيح، إلا أن التجرد له مذموم، قال ﷺ: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه[2] خير له من أن يمتلىء شعراً»[3].

وإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام، إذا لم يكن فيه كلام مستكره، قال ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»[4] وقد أمر ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء قريش[5].

والتوسع في المدح ــ وإن كان كذباً ــ فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كذباً.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٤٧، م ١١٠).

(٢) يريه: من الوري، وهو داء يفسد الجوف.

(٣) متفق عليه (خ ٦١٥٤، م ٢٢٥٧).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٦١٤٥).

(٥) متفق عليه من حديث البراء: «اهجهم وجبريل معك» (خ ٦١٥٣، م ٢٤٨٦).

الآفة العاشرة: المزاح

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه.

فإن قلت: المزاح مطايبة، وفيه انبساط وطيب قلب، فلِمَ ينهى عنه؟

فاعلم: أن المنهي عنه الإفراط فيه، أو المداومة عليه. أما المداومة، فلأنه اشتغال باللعب والهزل، واللعب مباح، ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه، فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار.

فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»[1] ولكن غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان.

والضحك يدل على الغفلة عن الآخرة، قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً»[2].

قال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟

والمذموم من الضحك أن يستغرق ضحكاً، والمحمود منه التبسم، الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ.

والخلاصة: إن قدرت أن تمزح ولا تقول إلا حقاً، ولا تؤذي قلباً، ولا تفرط فيه، وتقتصر عليه أحياناً على الندور، فلا حرج عليك فيه. ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي (ع).

(٢) متفق عليه (خ ١٠٤٤، م ٩٠١).

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء

وهذا محرم، مهما كان مؤذياً. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[1].

ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح.

وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه، أو على أفعاله، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها، وعليه نبه تعالى بقوله:

﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾[2].

أي: لا تستحقره استصغاراً، فلعله خير منك.

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء، قال النبي ﷺ: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة»[3]

وقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار.

---

(١) (٢) سورة الحجرات: الآية (١١).

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه (ع).

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

إن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾[1].

وقد أثنى الله على نبيه إسماعيل عليه السلام فقال:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾[2].

وإذا كان هناك جزم في الوعد، فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[3].

وقال ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[4].

وهذا ينزل على عزم الخلف، أو ترك الوفاء من غير عذر. فأما من عزم على الوفاء، فعنَّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، لكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً، كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة.

قيل لإبراهيم النخعي: الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء؟ قال: ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء.

---

(١) سورة المائدة: الآية (١).

(٢) سورة مريم: الآية (٥٤).

(٣) متفق عليه (خ ٣٤، م ٥٨).

(٤) متفق عليه (خ ٣٣، م ٥٩).

وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول: إن شاء الله. وهو الأولى.

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

[مذمة الكذب]:

الكذب من قبائح الذنوب وفواحش العيوب.

قال ﷺ: «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(١).

وقال ﷺ: «ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمسبل إزاره»(٢).

وقال ﷺ: «رأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي قم، فقمت معه، فإذا أنا برجلين، أحدهما قائم والآخر جالس، بيد القائم كلوب من حديد، يلقمه في شدق الجالس، فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر، فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة»(٣).

وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم قعد وقال: ألا وقول الزور»(٤).

وقال ﷺ: «من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق لقي الله عزَّ وجلّ وهو عليه غضبان»(٥).

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٩٤، م ٢٦٠٧/١٠٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٨٦).

(٤) متفق عليه (خ ٢٦٥٤، م ٨٧).

(٥) متفق عليه (خ ٤٥٥٠، م ١٣٨).

ما رخص فيه من الكذب:

اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطب، أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلاً، وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل، فيكون مأذوناً فيه، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله، فدخل داراً، فانتهى إليك فقال: أرأيت فلاناً؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به، وهذا الكذب واجب.

والذي يدل على الاستثناء، ما روي عن أم كلثوم قالت: (ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها)[1].

وقالت أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين، فقال خيراً، أو نمى خيراً»[2].

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره.

وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذوراً، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفتخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام[3]. قالت أسماء: (سمعت امرأة سألت

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٥).

(٣) هناك فرق بين ما ورد في حديث أم كلثوم السابق (والمرأة تحدث زوجها) وبين أن تحكي عن زوجها، ومثال الأول ما روي عن عمر أنه بلغه أن امرأة ابن أبي عذرة الدؤلي قالت =

رسول الله ﷺ قالت: إن لي ضرة، وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك، فهل عليّ شيء فيه؟ فقال ﷺ: «المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور»)[1].

[الكذب على رسول الله ﷺ]:

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال، وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح. وهو خطأ محض، إذ قال ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[2]. وهذا لا يرتكب إلَّا لضرورة، ولا ضرورة إذ في الصدق مندوحة عن الكذب، ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها.

وقول القائل: إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه، وما هو جديد فوقعه أعظم، فهذا هوس، إذ يؤدي فتح هذا الباب إلى أمور تشوش الشريعة. والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء.

الحذر من الكذب بالمعاريض:

قد نقل عن السلف: إن في المعاريض مندوحة عن الكذب.

قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب؟

وروي ذلك عن ابن عباس وغيره.

وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب. فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً. ولكن التعريض أهون.

= لزوجها: إنها تبغضه جواباً على سؤال زوجها. فعاتبها عمر فقالت: أفأكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فاكذبي. فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب [إحياء علوم الدين: ٣/١٣٨].

(١) متفق عليه (خ ٥٢١٩، م ٢١٣٠).

(٢) متفق عليه (خ ١١٠، م ٣).

ومثـال التعريض: مـا فعله معاذ بن جبـل رضي الله عنه، إذ كـان عامـلاً لعمر رضي الله عنـه، فلما رجـع قالت لـه امرأتـه: ما جئت بـه مما يـأتي به العمـال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عندي ضـاغط، قالت: كنت أمينـاً عند رسـول الله ﷺ وعند أبـي بكـر رضي الله عنه، فبعث عمـر معك ضـاغـطاً؟ وقـامت بـذلك بين نسـائها واشتكت عمـر، فلما بلغـه ذلك دعـا معـاذاً وقـال: بعثت معـك ضاغطاً؟ قـال: لم أجد مـا أعتذر بـه إليها إلاَّ ذلـك، فضحك عمـر رضي الله عنه، وأعطاه شيئاً فقال: أرضها به.

ومعنى قوله: «ضاغطاً» يعني رقيباً، وأراد به الله تعالى.

وكان إبراهيم النخعي إذا طلبـه من يكره أن يخـرج إليه وهـو في الدار، قـال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد، ولا تقولي ليس هنا، كيلا يكون كذباً.

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العـادة في المبالغـة، كقولـه: طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك مائة مرة، فإنه لا يريد بـه تفهيم المرات بعـددها، بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلاَّ مرة واحدة كان كاذباً.

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

[مذمـة الغيبـة]:

نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبَّه صاحبها بـآكل لحم الميتـة، فقال تعالى:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١].

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٢].

والغيبة تتناول العرض، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم.

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤).

قال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»[1].

وقال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول.

وقال الحسن البصري: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الآكلة في الجسد.

وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس.

وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك، فاذكر عيوبك.

معنى الغيبة وحدودها:

الغيبة: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع، والقصر والطول، والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

وأما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، أو إسكاف، أو زبال، أو شيء يكرهه كيفما كان.

وأما الخلق: فبأن تقول، هو سيء الخلق، بخيل، متكبر، مراء، شديد الغضب، عاجز، ضعيف القلب، متهور، وما يجري مجراه.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد جيد (ع) ورواه الترمذي وقال: حسن غريب (ش).

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: هو سارق، أو كذاب، أو شارب خمر، أو خائن أو ظالم، أو متهاون بالصلاة أو الزكاة، أو لا يحسن الركوع أو السجود، أو ليس باراً بوالديه..

وأما في فعله المتعلق بالدنيا، فكقولك: إنه قليل الأدب، متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً، أو إنه كثير الكلام، أو كثير الأكل.

وأما في ثوبه: فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وكل هذا إن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب، عاصٍ لربه آكل لحم أخيه. بدليل ما روي أن النبي ﷺ قال: «هل تدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكرهه»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[1].

قال الحسن البصري: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عزَّ وجلَّ، فالغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه، والإفك: أن تقول ما بلغك.

الغيبة لا تقتصر على اللسان:

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه.

فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة، وهو حرام.

ومن ذلك المحاكاة بمشي، فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. وكذلك الغيبة بالكتابة، فإن القلم أحد اللسانين.

وأخبث أنواع الغيبة، غيبة المرائين، فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٩).

الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود. ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين: الغيبة والرياء. وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، نسأل الله أن يعصمنا منها. وإنما قصده أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء. والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا.

ومن ذلك: الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب، فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها، وكأنه يستخرج الغيبة بهذا الطريق، فيقول: عجب!! ما علمت أنه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلاَّ بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب. والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب.

وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار.

الأسباب الباعثة على الغيبة:

البواعث على الغيبة كثيرة:

منها: أن يشفي الغيظ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه، فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع. وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوي. فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

ومنها: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه، ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحبة.

ومنها: أن ينسب إلى شيء، فيريد أن يتبرأ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرىء نفسه، ولا يذكر الذي فعل.

ومنهـا: إرادة التصنع والمبـاهاة، وهـو أن يرفـع نفسه بتنقيص غيـره، فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك، وغرضـه في ذلك أن يثبت في ضمن ذلـك فضل نفسـه، ويريهم أنه أعلم منه.

ومنها: الحسد، وهو أنه ربما يحسد من يثني النـاس عليه، فيـريد زوال تلك النعمة عنه. فلا يجد سبيلاً إليه إلاَّ بالقدح فيه.

ومنها: اللعب والهزل والمطايبة بـالضحك، فيـذكر عيـوب غيره بمـا يضحك الناس على سبيل المحاكاة.

ومنها: السخرية والاستهزاء استحقاراً له، ومنشؤه التكبر.

العلاج الذي يمنع عن الغيبة:

اعلم أن مسـاوىء الأخلاق كلهـا إنما تعـالج بمعجـون العلم والعمل، وإنمـا علاج كل علة بمضادة سببها. وعلاج كفـ اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهمـا على الجملة، والآخر على التفصيل.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه، بـدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات، نقل إليه من سيئات خصمه. وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عزَّ وجلّ، ومشبه بآكل الميتة.

قـال رجل للحسن: بلغني أنـك تغتابني، فقـال: ما بلغ من قـدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

فإذا آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة، لم يطلق لسانه بهـا، خوفـاً من ذلك وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه، فإن وجد فيها عيباً، اشتغل بعيب نفسه.

وينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلـك العيب كعجزه، وهـذا إن كان ذلـك عيباً يتعلق بفعله واختيـاره، وإن كان أمـراً خلقياً، فـالذم لـه ذم للخالق، فإن من ذم صنعة، فقد ذم صانعها.

وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى، ولو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء، من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب.

وأما التفصيل: فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها، وقد قدمنا الأسباب.

تحريم الغيبة بالقلب (سوء الظن):

اعلم أن سوء الظن حرام، مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك، وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلاَّ عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء.

فأما الخواطر، وحديث النفس، فهو معفو عنه، بل الشك أيضاً معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن.

والظن: عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب، فقد قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(1).

وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلاَّ علَّام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً، إلاَّ إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلاَّ أن تعتقد ما علمته وشاهدته. وما لم تشاهده بعينك، ولم تسمعه بأُذنك، ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك. فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق. وقد قال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾(2).

فلا يجوز تصديق إبليس.

ولا يستباح ظن السوء إلاَّ بما يستباح به المال، وهو: نفس مشاهدة، أو بينة

---

(1) سورة الحجرات: الآية (١٢).
(2) سورة الحجرات: الآية (٦).

عادلة، فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

وإذا خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء، ومهما عرفت هفوة مسلم فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته، فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم، وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه، وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك.

وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة، فإذا أنت فعلت ذلك، كنت قد جمعت بين أجر الوعظ، وأجر الغم بمصيبته، وأجر الإعانة له على دينه.

ومن ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه، ومعنى التجسس: أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

الأعذار المرخصة في الغيبة:

اعلم أن المرخص في ذكر مساوىء الغير هو غرض صحيح في الشرع، لا يمكن التوصل إليه إلاَّ به، فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهي ستة أمور:

الأول: التظلم، فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان، وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلاَّ به، قال ﷺ: «إن لصاحب الحق مقالاً»[1]،

---

(٢) متفق عليه (خ ٢٤٠١، م ١٦٠١).

وقال ﷺ: «لَيُّ الواجد يحل عقوبته وعرضه»[1].

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى منهج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي، والأفضل أن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه، ولكن التعيين مباح.

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه، فلك أن تكشف له عن ذلك.

وكذلك المزكي: إذا سئل عن الشاهد، فله الطعن فيه إن علم مطعناً، وكذلك المستشار في التزويج، فإن علم أنه يترك التزويج بقوله: لا يصلح لك، فهو الواجب وفيه كفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلاَّ بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول ذلك، فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق، كالمخنث، وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمر، فلا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك.

قال الحسن: «ثلاثة لا غيبة لهم: «صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر». فهولاء يجمعهم أنهم يتظاهرون به، وربما يتفاخرون به.

كفارة الغيبة:

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب، ويتأسف على ما فعله، ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحل المغتاب ليحله، فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله.

وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح (ع).

أو مال فليستحللها منه، من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، وإنما يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته»[1].

روي عن الحسن أن رجلاً قال له: إن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه رطباً على طبق وقال: بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشرة: النميمة

قال الله تعالى:

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[3].

قيل: الهمزة، النمام.

وقال تعالى:

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[4].

قيل: إنها كانت نمامة.

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[5].

واسم «النميمة» إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه،

---

(١) متفق عليه (خ ٦٥٣٤).
(٢) سورة القلم: الآية (١١).
(٣) سورة الهمزة: الآية (١).
(٤) سورة المسد: الآية (٤).
(٥) متفق عليه (خ ٦٠٥٦، م ١٠٥).

كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا. وليست النميمة مختصة به، بل حدها: كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال.

وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه.

وكل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغي أن يسكت عنه، إلاَّ ما في حكايته فائدة لمسلم، أو دفع لمعصية، فإن كان ما ينم به نقصاً أو عيباً في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة.

فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرُّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة، وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا فعليه أمور:

الأول: أن لا يصدقه، لأن النمام فاسق، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾[1].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك السوء، لقوله تعالى:

﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[2].

الخامس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمام، ولا تحكي نميمته فتقول: قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً.

---

(١) سورة الحجرات: الآية (٦).

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٢).

روي أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾، وإن كنت صادقاً، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هماز مشاء بنميم﴾، وإن شئت عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً.

قال الحسن البصري: من نم لك نم عليك.

وروي عن علي رضي الله عنه: أن رجلاً سعى إليه برجل، فقال له: يا هذا، نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين.

وسعى رجل بزياد الأعجم[1] إلى سليمان بن عبد الملك، فجمع بينهما للموافقة، فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً ... فخنت وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي الوجهين

كلام ذي اللسانين، الذي يتردد بين المتعاديَين، ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين. وذلك عين النفاق.

قال ﷺ: «تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[2].

وقال ابن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة، قالوا: وما الإمعة؟ قال: الذي يجري مع كل ريح.

---

(١) زياد الأعجم، هو زياد بن سليم العبدي، أبو أمامة المعروف بالأعجم، روى عن أبي موسى وعبد الله بن عمر، شاعر مقبول، روى له أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) متفق عليه (خ ٦٠٥٨، م ٢٥٢٦ وكتاب البر والصلة رقم ٩٨)، وقد أثبتّ لفظ البخاري.

فإن قلت: بماذا يصير الرجل ذا لسانين، وما حدّ ذلك؟

فأقول: إذا دخل على متعاديين، وجامل كل واحد منهما، وكان صادقاً فيه، لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين، ولكن صداقة ضعيفة، لا تنتهي إلى حد الأخوة.

نعم، لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين، وهو شر من النميمة، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام.

وإذا لم ينقل كلاماً، ولكن حسَّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه، فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما أن ينصره..

وينبغي أن يسكت، أو يثني على المحق من المتعاديين، ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنّا ندخل على أمرائنا، فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره. فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ.

أما من ابتلي بذي شر فراعاه اتقاء شره فجائز.

قالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو»، ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت، ثم ألنت له القول، فقال: «يا عائشة، إن شر الناس يكرم اتقاء شره»[1].

لكن هذا ورد في الإقبال والتبسم، فأما الثناء فهو كذب صراح، ولا يجوز إلاَّ لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله، بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل. بل ينبغي أن ينكر، فإذا لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٥٤، م ٢٥٩١).

الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهـو منهي عنه في بعض المـواضع. والمـدح يدخله ست آفـات: أربـع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي إلى الكذب.

الثانية: أنه قد يدخله الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحب.

الثالثة: أنه قد يقـول ما لا يتحققـه، ولا سبيل إلى الاطـلاع عليه. فقـد مدح رجـل رجـلاً عنـد النبـي ﷺ فقـال: «ويحـك قـطعت عنق صـاحبـك، لـو سمعهـا ما أفلح»، ثم قال: «إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل: أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك»[1].

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح، وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز.

وأما الممدوح، فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان.

الثاني: أنه إذا أثني عليه بالخير، فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسـه قلَّ تشمـره، وإنما يتشمـر للعمل من يـرى نفسه مقصـراً. فأمـا إذا انـطلقت الألسن بـالثناء عليـه ظنَّ أنه قـد أدرك، ولهـذا قـال ﷺ: «قـطعت عنق صـاحبـك، لو سمعها ما أفلح».

ومدح الرجل نفسه قبيح، لما فيه من الكبر والتفاخر، ولذا قال ﷺ: «أنـا سيد ولـد آدم ولا فخر»[2]، أي لست أقـول هذا تفـاخراً كمـا يقصد النـاس بالثنـاء على أنفسهم.

---

(١) متفق عليه (خ ٢٦٦٢، م ٣٠٠٠) بغير «لو سمعها مـا أفلح» وبهذا اللفظ أورده المصنف عن ابن أبـي الدنيا. كما قال العراقي.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم، وقال صحيح الإسناد، وعند مسلم: «أنا سيـد ولد آدم يوم القيامة» (ع).

وعلى الممدوح: أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب، وآفة الفتور، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره، وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه، وعليه أن يظهر كراهة المدح، قال ﷺ: «احثوا التراب في وجوه المادحين»[1].

قال علي رضي الله عنه لما أثني عليه: (اللَّهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون).

الآفة التاسعة عشرة: الغفلة عن دقائق لفظية

من آفات اللسان: الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين.

فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلَّا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله.

مثاله: ما قال حذيفة، قال النبي: «لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت»[2].

وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال: «قل: ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى»[3] فكره ﷺ قوله: ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع.

وكره بعضهم أن يقال: اللَّهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود؛ وكانوا يستجيرون من النار، ويتعوذون من النار.

وعن ابن عباس: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لسرقنا الليلة.

وقال ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدي ولا أمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٠٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح (ع).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٧٠).

إماء الله، وليقل: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، ولا يقولن المملوك: ربي ولا ربتي، وليقل سيدي وسيدتي، فكلكم عبيد الله، والرب الله سبحانه وتعالى»[1].

الآفة العشرون: خوض العوام في دقائق العلم

سؤال العوام عن صفات الله تعالى، وعن كلامه، وعن الحروف أنها قديمة أو محدثة، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن، إلَّا أن ذلك ثقيل على النفوس، والفضول خفيف على القلب والعامي يفرح بالخوض في العلم.

وكل كبيرة يرتكبها العامي، فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات، والإيمان بما ورد في القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث.

وكل من سأل عن علم غامض، ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم، فإنه بالإضافة إليه عامي، قال ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم»[2].

وفي الحديث: «نهى ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال»[3].

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات، وهو من مثيرات الفتن.

* * *

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، فإن سكت سلم من الكل. وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلَّا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير، وورع حافظ، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك.

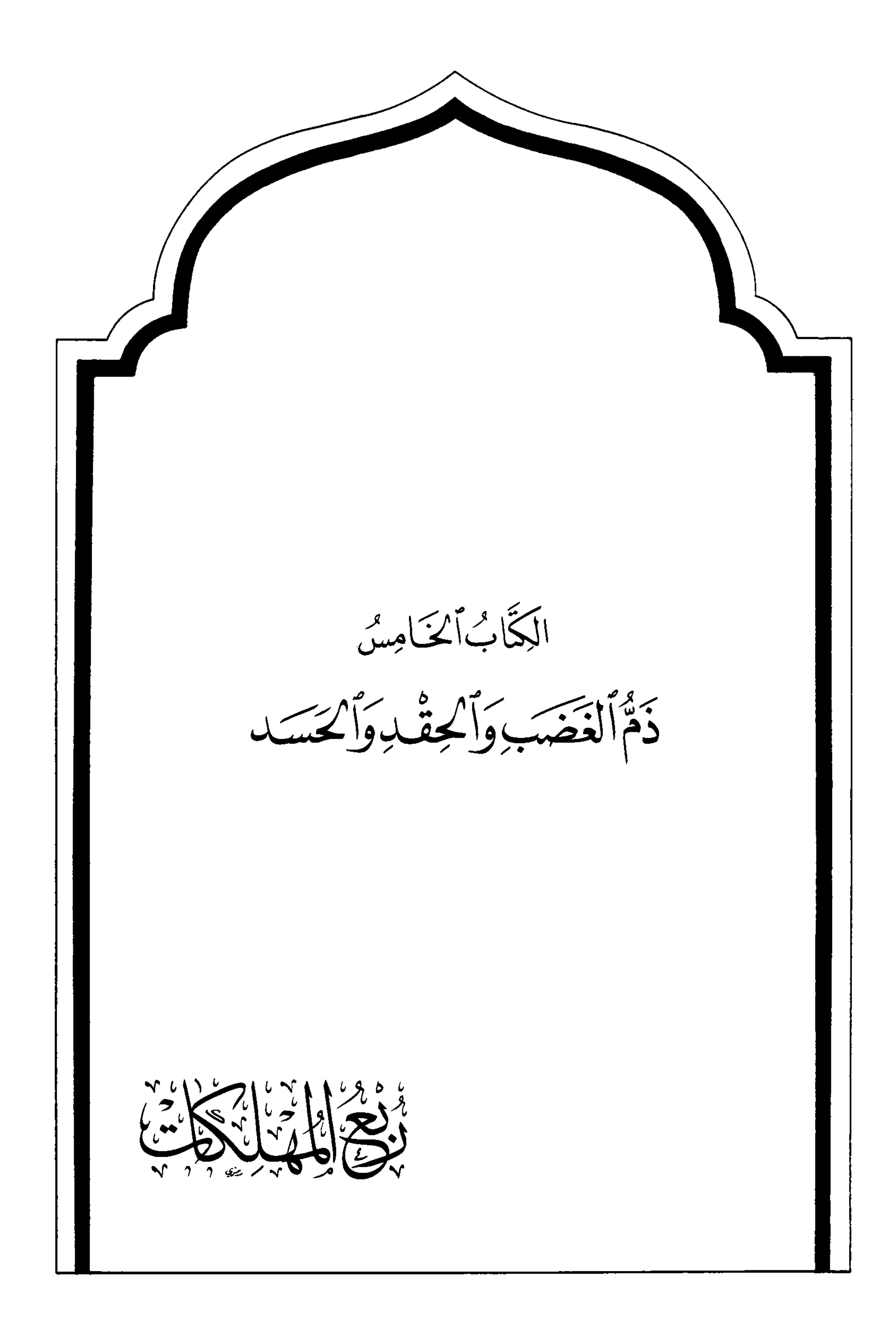
فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين.



(١) متفق عليه (خ ٢٥٥٢، م ٢٢٤٩).

(٢) متفق عليه (خ ٧٢٨٨، م ١٣٣٧).

(٣) متفق عليه (خ ٦٤٧٣، م ١٧١٥).



الكتاب الخامس

ذم الغضب والحقد والحسد

ربع المهلكات

الفصل الأول

في الغضب

ذم الغضب:

قال الله تعالى:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة.

وروى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل وأقلل، قال: «لا تغضب» ثم أعاد عليه، قال: «لا تغضب»[2].

وعن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «ليس ذلك، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[3].

وقال ابن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه.

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦١١٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠٨)، ولهما: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، (خ ٦١١٤، م ٢٦٠٩).

حقيقـة الغضـب:

خلق الله طبيعة الغضب من النار، وغرزها في الإنسان، وعجنها بطينته، فـإذا صدَّ عن غرض من أغراضه، ومقصـود من مقاصـده، اشتعلت نار الغضب، وثـارت ثوراناً يغلي بـه دم القلب، وينتشر في العـروق، ويرتفـع إلى أعالي البـدن، فلذلك ينصب إلى الوجه، فيحمرّ الوجه والعين. والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءهـا من حمرة الدم.

وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القـدرة عليه، فـإن صدر الغضب على من فوقه، وكان معه يأس من الانتقام، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، وصار حزناً، ولذلك يصفـرُّ اللون. وإن كان الغضب على نظير، تردد الدم بين انقباض وانبساط، فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطرب.

وبـالجملة، فقـوة الغضب محلهـا القلب، ومعنـاهـا غليـان دم القلب بـطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانهـا إلى دفع المؤذيـات قبل وقـوعها، وإلى التشفي والانتقـام بعد وقـوعها. والانتقـام قوت هـذه القوة وشهـوتهـا وفيـه لـذتهـا، ولا تسكن إلاَّ به.

[درجات الناس في قوة الغضب]:

إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث ــ في أول الفطرة ــ من: التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فيكون بفقد هذه القوة أو ضعفها، وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له.

ولذلك قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار.

فمن فقد قـوة الغضب والحميـة أصـلاً، فهـو نـاقص جـداً. وقـد وصف الله سبحانه الصحابة بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الفتح: الآية (٢٩).

وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر.

وإذا اشتدت نار الغضب، وقوي اضطرامها، أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع، بل زاده ذلك غضباً.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمر الأحداق. . ، ولو رأى الغضبان ـ في حالة الغضب ـ قبح صورته، لسكن غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن.

وأما أثره في اللسان: فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحيي منه ذو العقل، ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب.

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه، فالحقد والحسد، وإضمار السوء والشماتة بالمساءات، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السر. . فهذه ثمرة الغضب المفرط.

وأما ثمرة الحمية الضعيفة، فقلة الأنفة مما يؤنف منه، من التعرض للحرم والزوجة، واحتمال الذل. . وهو مذموم، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحُرَم، وهو خنوثة. قال ﷺ: «إن سعداً لغيور، وأنا أغير من سعد، وإن الله أغير مني»[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية (٧٣).

(٢) متفق عليه (خ ٧٤١٦، م ١٤٩٩).

ومن ضعف الغضب، الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، ففقد الغضب مذموم.

وإنما المحمود، غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفىء حيث يحسن الحلم. وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده.

تعديل الغضب بالرياضة:

ليست الرياضة لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب، ولا يستعمله إلاَّ على حد يستحبه الشرع، ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع، وهو غير ممكن.

نعم، يمكن كسر سورته، وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن. وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً.

ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله ﷺ، فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه[1]، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا، فقال: «اكتب، فوالذي بعثني بالحق نبياً ما يخرج منه إلاَّ حق»، وأشار إلى لسانه[2].

فلم يقل: إني لا أغضب، ولكن قال: إن الغضب لا يخرجني عن الحق. أي لا أعمل بموجب الغضب.

فمن مال غضبه إلى الفتور، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط، حتى جره إلى التهور

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢/١٧٢٢).
(٢) أخرجه أبو داود (ع).

واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه، لينقص من سورة الغضب، ويقف على الوسط الحق.

الأسباب المهيجة للغضب:

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها، وإزالة أسبابها، فلا بد من معرفة أسباب الغضب.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب، والمزاح والهزل، والهزء والتعيير، والمماراة والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها.

فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر بأنك من جنس الناس. وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية، وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة، وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك.. وأما شدة الحرص فتُزال بالقناعة.

وكل خلق من هذه الأخلاق، وصفة من هذه الصفات، يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها، لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها. ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة، حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس.. فإذا انمحت عن النفس، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها.

ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية، وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة، غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل.

علاج الغضب عند هيجانه:

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب، وقطع لأسبابه حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هيجه، فعندها يعالج بمعجون العلم والعمل.

أما العلم، فهو خمسة أمور:

الأول: أن يتفكر في الأخبار ـ التي سنوردها ـ في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه.. وينطفىء عنه غيظه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله تعالى. وهو أن يقول: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه عليَّ يوم القيامة، أحوج ما أكون إلى العفو.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام.. وهو لا يخلو عن المصائب.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد أن يكون من قول الشيطان.

وأما العمل: فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن لم يزل بذلك، فاجلس إن كنت قائماً، واضطجع إن كنت جالساً.

فضيلة كظم الغيظ:

قال الله تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٣ ـ ١٣٤).

فذكر ﴿الكاظمين الغيظ﴾ في معرض المدح.

قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقال رجل لعمر رضي الله عنه: والله ما تقضي بالعدل، ولا تعطي الجزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١).

فهذا من الجاهلين، فقال عمر: صدقت. فكأنما كانت ناراً فأطفئت.

فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلّا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، لكن إذا تعود ذلك مدة، صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداءه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً.

وعن الحسن البصري في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾(٢).

قال: حلماء، إن جهل عليهم لم يجهلوا.

وقال مجاهد:

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).
(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٣).
(٣) سورة الفرقان: الآية (٧٢).

أي: إذا أوذوا صفحوا.

وقال ﷺ: «ليلني منكم ذوو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وإياكم وهيشات الأسواق[1]»[2].

وقال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»[3].

وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم.

وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[4].

هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي.

وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلاَّ عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلاَّ عند الغضب، ولا الشجاع إلاَّ عند الحرب، ولا الأخ إلاَّ عند الحاجة.

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب، فقيل له في ذلك، فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به.

---

(١) أي اختلاطها، والمنازعة، وارتفاع الأصوات.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٣٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٧).

(٤) سورة فصلت: الآية (٣٤).

ما يجوز به الانتصار من الكلام:

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله. فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي، وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به.

قال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه.

والذي يرخص فيه، أن تقول: من أنت؟ وهل أنت إلاّ من بني فلان؟ ومثل قوله: يا أحمق، فكل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلاّ أن بعض الناس أقل حماقة من بعض.

قال ابن عمر: حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى.

وكذلك قوله: يا جاهل، إذ ما من أحد إلاّ وفيه جهل. فقد آذاه بما ليس بكذب.

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق. فقد روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالداً عند سعد، فقال سعد: مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا. يعني: أن يأثم بعضنا في بعض، فلم يسمع السوء، فكيف يجوز له أن يقوله؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام، كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب قوله ﷺ: «المستبان ما قالا[1] فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم»[2]، فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي. فهذا القدر هو المباح، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق.

ولكن الأفضل تركه، فإنه يجره إلى ما وراءه، ولا يمكنه الاقتصار على قدر

(١) أي: إن إثم السباب مختص بالبادىء منهما، إلاّ أن يتجاوز الثاني قدر الانتصار، فيقول له أكثر مما قاله له.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٧).

الحق فيـه. والسكـوت عن أصـل الجـواب لعله أيسـر من الشـروع في الجــواب. والوقوف على حدّ الشرع فيه.

[غـضـب الحـاكـم]:

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعـاقب أحداً في حال غضبـه، لأنه ربمـا يتعدى الـواجب، ولأنه ربمـا يكون متغيـظاً عليه، فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحَبَـه حظ نفسه، فينبغي أن يكون انتقامه لله تعالى لا لنفسه.

قال عمر بن عبـد العزيـز ـ رحمه الله ـ لـرجل أغضبـه: لولا أنـك أغضبتني لعاقبتك.



الفصل الثاني

في الحقد والعفو

معنى الحقد وآثاره:

اعلم أن الغضب إذا لـزم كـظمـه لعجـز عن التشفي في الحـال رجـع إلى الباطن، واحتقن فيه فصار حقداً. ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى.

والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسرّ بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المنافقين.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتنقطع عنه، وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: وهو دونه: أن تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل، من كذب وغيبة وإفشاء سرٍّ وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أورد مظلمة.

وكل ذلك حرام.

وأقل درجات الحقد: أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به. ولكن تستثقله في الباطن، ولا تنهى قلبك عن بغضه. فهذا مما يحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعرضك لعقاب الله تعالى.

لما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ــ وكان قريبه ــ لكونه تكلم في واقعة الإفك. نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه[2].

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان، مجاهدة للنفس، وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين. فللمحقود[3] ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حقه من غير زيادة أو نقصان. وهو العدل ومنتهى درجات الصالحين.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل. وهو اختيار الصديقين.

الثالث: أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم أن معنى العفو: أن يستحق حقاً، فيسقطه عنه من غرامة أو قصاص، وهو غير الحلم وكظم الغيظ، فلذلك أفردناه.

قال تعالى:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[4].

---

(١) سورة النور: الآية (٢٢).

(٢) متفق عليه (خ ٢٦٦١، م ٢٧٧٠).

(٣) المحقود: الذي أصابه الحقد.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

وقال تعالى:

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده، لو كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزّاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تنتهك محارم الله..»[3].

وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً فابتاع، ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته، فوجدها قد حلت، فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخذها، ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا، فقال عبد الله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه.

فضيلة الرفق:

اعلم أن الرفق محمود، ويضاده العنف والحدة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة، وقد يكون سبب الحدة الغضب، وقد يكون سببها شدة الحرص، فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (ش).

أقول: وروى مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٥٨٨) قوله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) أخرجه الترمذي، وهو عند مسلم بلفظ آخر.

ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حد الاعتدال. قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[1] وقال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير صعب، فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، عليك بالرفق، فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[3].

ولما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسناً، كما أن الرفق في محله حسن.

عن أبي عون الأنصاري[4] قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها.

وقال أبو حمزة الكوفي[5]: لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه، فإن مع كل إنسان شيطاناً، واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه.



(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٢).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٤).
(٤) أبو عون الأنصاري: اسمه عبد الله بن أبي عبد الله، الشامي، روى له النسائي (ش).
(٥) أبو حمزة الكوفي: اسمه سيار، روى له البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه (ش).

الفصل الثالث

الحسد ومعالجته

ذم الحسد:

إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى، وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[1].

وفي قصة عبد الله بن عمرو بن العاص مع الرجل الذي قال في حقه ﷺ: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» وأنه بات عنده ليعرف عمله.. فكاد يحتقر عمله ثم سأله عن عمله فقال الرجل: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: فقلت له: هي التي بلغت بك[2].

قال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه.

وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده.

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه:

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، وللحسد حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسداً، فالحسد حدّه: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٠٦٦، م ٢٥٦٣).

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين (ع).

الثانية: أن لا تحب زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى غبطة، وقد تختص باسم المنافسة.

فأما الأول: فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته.

ويدلك على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة. وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضره؟

قال تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾(1).

فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد.

وقال تعالى في معرض الإنكار:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(2).

[حسد الغبطة]:

وأما المنافسة: فليست بحرام، بل هي إما واجبة، وإما مندوبة، وإما مباحة. والمنافسة في اللغة من: النفاسة.

والذي يدل على إباحتها قوله تعالى:

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾(3).

---

(1) سورة البقرة: الآية (١٠٩).

(2) سورة النساء: الآية (٥٤).

(3) سورة المطففين: الآية (٢٦).

وقال تعالى:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1].

وإنما المسابقة عند خوف الفوت.

وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك فقال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله تعالى علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس»[2].

ثم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة، كالإيمان والصلاة.. فهذه المنافسة واجبة، وهو أن يحب أن يكون مثله، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام.

وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في الفضائل والمكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها.

وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح، فالمنافسة فيها مباحة.

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات. نعم، ذلك ينقص من الفضائل، ويناقض الزهد والتوكل والرضا، ويحجب عن المقامات الرفيعة، ولكنه لا يوجب العصيان.

أسباب الحسد:

الحسد المذموم مداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أسباب:

الأول: العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، أبغضه قلبه وحقد عليه، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه، أحب أن يتشفى منه الزمان، فمهما أصابت

---

(١) سورة الحديد: الآية (٢١).

(٢) متفق عليه (خ ٧٥٢٩، م ٨١٦).

عدوه بلية فرح بها، وظنها مكافأة له من جهة الله تعالى على بغضه، وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، لأنه ضد مراده. فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما.

الثاني: التعزز، وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، وليس من غرضه أن يتكبر، بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

الثالث: الكبر، وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره، ويترفع عن متابعته، أو ربما يتشوف إلى مساواته، أو إلى أن يترفع عليه.

ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ فقالوا:

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

أي: كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيماً.

الرابع: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السابقة إذ قالوا:

﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾[2].

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾[3].

فتعجبوا أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم.

الخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين في مقصود واحد، فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده.

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٣١).

(٢) سورة يس: الآية (١٥).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (٤٧).

ومن هذا الجنس: تحاسد الضرات، وتحاسد الأخوة على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل إلى الكرامة والمال، وتحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم..

السادس: حب الرياسة، وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون.. فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب زوال النعمة عنه.

وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس.

السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر، ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى، فيما أنعم الله به عليه، يشق ذلك عليه. وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنغص عيشهم، فرح به، فهو دائماً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه.

فهذا يبخل بنعمة الله على عباده، الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع.

ومعالجته شديدة، لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب، أسبابه عارضة، يتصور زوالها فيطمع في إزالتها. وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض، فتعسر إزالته، إذ يستحيل في العادة إزالته.

سبب الحسد بين الأقران والأقارب:

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها. وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر، وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه، وأبغضه وثبت الحقد في قلبه.

وحيث لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين، فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك في محلتين.

وإذا تجاوروا في مسكن أو سوق أو مدرسة تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد.

لذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته... لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف، فلا يتزاحمون على المقاصد.

فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك كثر الحسد بينهما.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين.

وإنما مثال الآخرة نعمة العلم، فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذة واحدة بسبب غيره. بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس، وثمرة الاستفادة والإفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى.

فعليك إن كنت بصيراً، وعلى نفسك مشفقاً، أن تطلب نعمة لا زحمة فيها، ولذة لا كدر لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا، إلا في معرفة الله عزَّ وجلّ ومعرفة صفاته وأفعاله، ولا ينال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً.

الدواء الذي ينفي مرض الحسد:

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

والعلم النافع لمرض الحسد، هو أن تعرف تحقيقاً، أن الحسد ضرر عليك

في الدنيا والدين. وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين، بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك، وصديق عدوك، فارقت الحسد لا محالة.

أما كونه ضرراً عليك في الدين، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته، وهذه جناية على حدقة التوحيد، وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين.

وقد انضاف إلى ذلك أنك شاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا، وزوال النعم، وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات، وتمحوها كما يمحو الليل النهار.

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا، أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مغموماً محروماً، متشعب القلب، ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك، وتشتهيه لأعدائك، فقد كنت تريد المحنة لعدوك، فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقداً. ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك.

ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب، لكان مقتضى الفطنة ـ إن كنت عاقلاً ـ أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع. فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فما أعجب من العاقل، كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله، بل مع ضرر يهلك دينه ودنياه من غير فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة، فلا حيلة في دفعه، فكل شيء عنده بمقدار.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح:

أما منفعته في الدين، فهو أنه مظلوم من جهتك، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل، بالغيبة والقدح فيه، وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه، أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم، وشقاوتهم وكونهم معذبين، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد. وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة، وأن تكون في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم.

فهذه هي الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها بذهن صاف، وقلب حاضر، انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك نفسه، ومفرح عدوه، ومسخط ربه.

وأما العمل النافع فيه: فهو أن يحكم نفسه، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه.

فإن حمله الحسد على القدح في محسوده، كلف لسانه المدح له والثناء عليه.

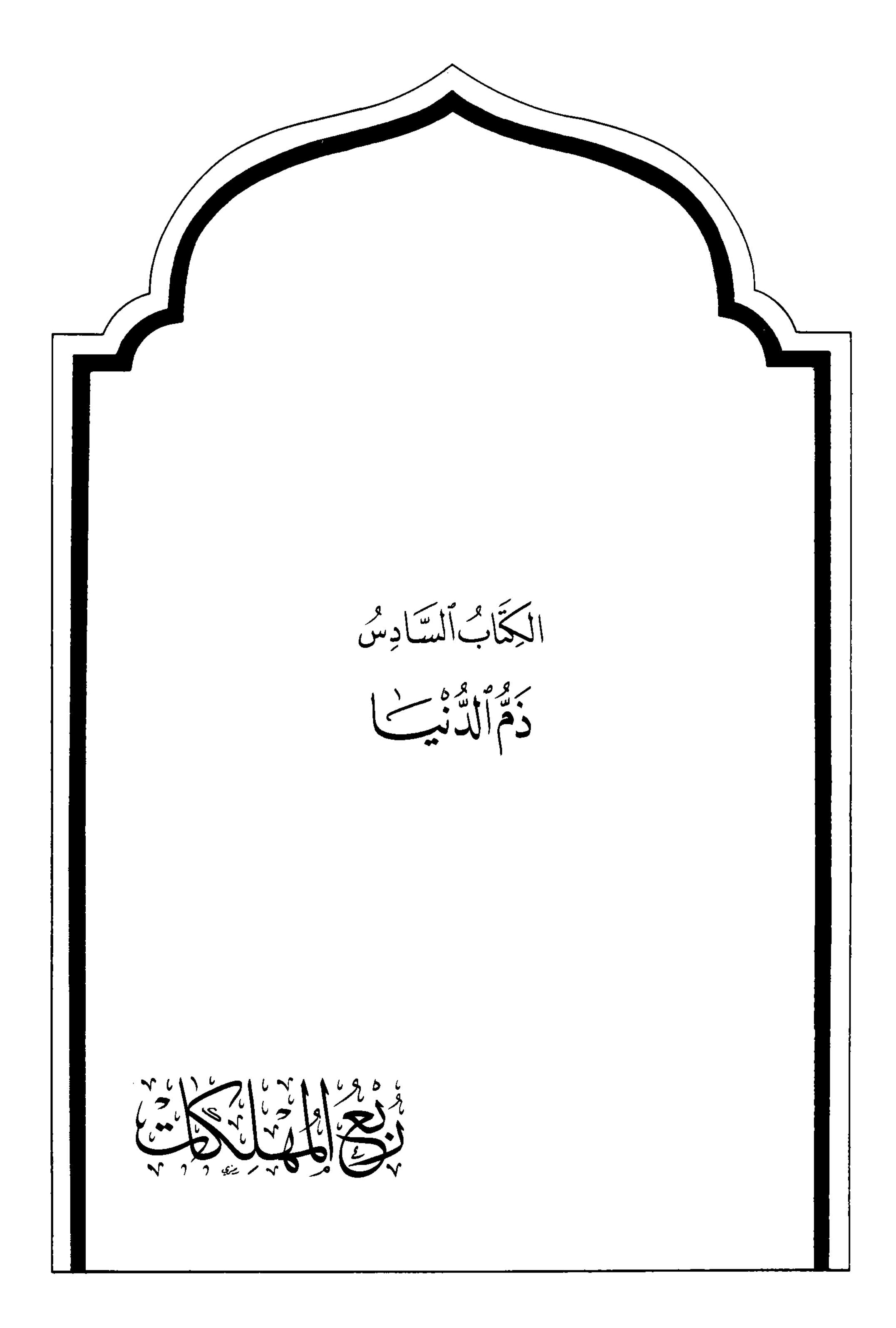
وإن حمله على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه.

وإن بعثه على كف الإنعام عليه، ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه...

فهذه أدوية الحسد، وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب، ولكن النفع في الدواء المر، فمن لم يصبر على مرارة الدواء، لم ينل حلاوة الشفاء.

وأما الدواء المفصل، فهو تتبع أسباب الحسد، من الكبر وغيره.. وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها، إن شاء الله تعالى.

***



الكِتَابُ السَّادِسُ

ذَمُّ الدُّنْيَا

رُبْعُ المُهْلِكَاتِ



ذم الدنيا:

الآيات الواردة في ذم الدنيا كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها[1].

وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها:

فقد روي أن رسول الله ﷺ مرَّ على شاة ميتة، فقال: «أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟» قالوا: من هوانها ألقوها، قال: «والذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[2].

وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[3].

وقال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلاَّ ما كان لله منها»[4].

---

(١) من هذه الآيات: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ [سورة آل عمران: الآية (١٤)].
ومنها ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [سورة آل عمران: الآية (١٨٥)].
ومنها ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب وزينة﴾ [سورة الحديد: الآية (٢٠)].

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده، وآخره عند الترمذي، وقال: حسن صحيح، ولمسلم نحوه من حديث جابر، وقد أخرجه برقم (٢٩٥٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦).

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه (ع) قلت: سياق المصنف أخرجه أبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة من حديث جابر. وإسناده حسن (ش).

وقال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»[١].

وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثر»، قال: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت»[٢].

وقال ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»[٣].

وبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، فجاء بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟» فقالوا: أجل، يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[٤].

وقال ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا»[٥].

وقال أنس: كانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «إنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاَّ وضعه»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٨) بلفظ: «أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: يقول ابن آدم..».

(٣) رواه الإمام أحمد (ع) قلت: ورجاله رجال الصحيح غير ذويد وهو ثقة (ش).

(٤) متفق عليه (خ ٣١٥٨، م ٢٩٦١).

(٥) متفق عليه (خ ٦٤٢٧، م ١٠٥٢).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠١).

وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»[1].

● ● ●

قال الفضيل رحمه الله: طالت فكرتي في هذه الآية:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[2].

وقال أيضاً: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى؟!

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أصبح أحد من الناس إلاَّ وهو ضيف، وماله عاريَّة، فالضيف مرتحل والعارية مردودة.

وزار قوم رابعة، فذكروا الدنيا، فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدُّوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزوَّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع.

وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا، قال: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب.

---

(١) متفق عليه (خ ١٠٤٤، م ٩٠١).

(٢) سورة الكهف: الآيتان (٧ ـ ٨).

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه.

* * *

وخطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: يا أيها الناس، إنكم خلقتم لأمر، إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها، إلاَّ بفراق أخرى تكرهون فراقها، فاعملوا لما أنتم صائرون إليه، وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

* * *

وقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكبٍ سار في يومٍ صائف، فرفعت له شجرة[1] فقال[2] تحت ظلها ساعة، ثم راح وتركها»[3].

ورأى ﷺ بعض الصحابة يبني بيتاً من جص فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا»[4].

قال عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً حتى يقتله.

بيان الدنيا المذمومة:

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فنقول:

---

(١) أي ظهرت له.

(٢) من القيلولة، وهي النوم وسط النهار.

(٣) أخرجه الترمذي والحاكم من حديث ابن مسعود، وأحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (ع) قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة (ش).

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمّى دنيا، وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمّى آخرة، وهو ما بعد الموت.

فكل ما لك فيه حظ ونصيب، وغرض وشهوة ولذة، عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلاَّ أن جميع ما تميل إليه، وفيه نصيب وحظ، فليس بمذموم، بل هو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة، وتبقى معك ثمرته بعد الموت، وهو شيئان: العلم والعمل فقط.

وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله، وملائكته وكتبه ورسله، والعلم بشريعة نبيه ﷺ.

وأعني بالعمل: العبادة الخالصة لوجه الله تعالى.

وقد يأنس العالم بالعلم، والعابد بالعبادة، ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً، بل قلنا إنه من الآخرة. وقد قال ﷺ: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب، وقرة عيني في الصلاة»[1] فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا. إلا أنا في هذا الكتاب لسنا نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول: هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: وهو المقابل له، على الطرف الأقصى، كل ما فيه حظ عاجل، ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً، كالتلذذ بالمعاصي كلها، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات، الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة.. فحظ العبد من هذا كله، هي الدنيا المذمومة.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين، فكل حظ في العاجل، معين على أعمال الآخرة، كقدر القوت من الطعام، والقميص الواحد الخشن، وكل ما لا بد

---

(١) أخرجه النسائي والحاكم دون قوله: «ثلاث» (ع).

منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل، فهذا ليس من الدنيا، كالقسم الأول، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه. فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل، لم يكن به متناولاً للدنيا، ولم يصر به من أبناء الدنيا.

وإن كان باعثه الحظ العاجل، دون الاستعانة على التقوى، التحق بالقسم الثاني، وصار من جملة الدنيا.

إن القدر الذي لا بد منه من القوت والملبس والمسكن، إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة، لم يكن من أبناء الدنيا، وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة. وإن أخذ ذلك لحظ النفس، وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم:

- إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة، ويسمى ذلك: حراماً.
- وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا، ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك: حلالاً.

فقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا.

فإن قلت: فما الذي لله؟

فأقول: الأشياء ثلاثة أقسام:

منها: ما لا يتصور أن يكون لله، وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات، وأنواع التنعمات في المباحات[1]، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورة ومعنى.

ومنها: ما صورته لله، ويمكن أن يجعل لغير الله، وهو: الفكر، والذكر،

(١) إذ المباحات لا يتقرب بها إلى الله تعالى، بل هي تبعد عن ساحات رحمته، فليس لها تعلق بالآخرة أصلاً (ش).

والكف عن الشهوات، فإن هذه الثلاثة، إذا جرت سراً، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر، فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وإظهار المعرفة، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو صحة البدن، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى.

ومنها: ما صورته لحفظ النفس، ويمكن أن يكون معناه لله، وذلك كالأكل والنكاح، فإن كان القصد حفظ النفس فهو من الدنيا، وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى، فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا.

فإذن: الدنيا حظ نفسك العاجل، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

ومجامع الهوى خمسة أمور، وهي ما جمعه الله تعالى في قوله:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2].

فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا، وقدر ضرورة القوت، وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله إن قصد به وجه الله. والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله.

حقيقة الدنيا في نفسها:

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور، قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها، وليس كذلك.

---

(١) سورة النازعات: الآيتان (٤٠ ـ ٤١).

(٢) سورة الحديد: الآية (٢٠).

أما الأعيان الموجودة ــ التي الدنيا عبارة عنها ــ فهي: الأرض وما عليها. قال الله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١).

فالأرض فراش للآدميين، ومهاد ومسكن ومستقر، وما عليها: ملبس لهم، ومطعم ومشرب ومنكح.

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن والنبات والحيوان.

أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي.

وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني: كالنحاس والرصاص، وللنقد: كالذهب والفضة، ولغير ذلك من المقاصد.

وأما الحيوان: فينقسم إلى الإنسان وإلى البهائم:

ــ أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمركب والزينة.

ــ وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم.. ويطلب قلوب الناس ليملكها، بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام، وهو الذي يعبر عنه بالجاه، إذ معنى الجاه: ملك قلوب الآدميين.

فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا. وقد جمعها الله تعالى في قوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾، فهذا من الإنس.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾، وهذا من الجواهر والمعادن، وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليواقيت وغيرها.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهي البهائم والحيوانات.

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾(٣)، وهو النبات والزرع.

فهذه هي أعيان الدنيا.

---

(١) سورة الكهف: الآية (٢).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤).

[علاقة الإنسان بالدنيا]:

للإنسان في الدنيا حظ، وله في إصلاحها شغل، فهما علاقتان:

الأولى: علاقة مع القلب، وهو حبه لها، وحظه منها، وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا: كالكبر والغل والحسد، والرياء والسمعة، وحب الثناء، وحب التكاثر والتفاخر. وهذه هي الدنيا الباطنة، وأما الظاهرة: فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية: مع البدن، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان، لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره. وهي جملة الصناعات والحرف التي شغل بها الخلق.

والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين: علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشغل.

ولو عرف الإنسان نفسه، وعرف ربه، وعرف حكمة الدنيا وسرها، علم أن هذه الأعيان ـ التي سميناها الدنيا ـ لم تخلق إلا لبقاء البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن.

ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا، وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها.

كيف استغرقت أشغال الدنيا همم الخلق؟

ونحن سنذكر تفاصيل أشغال الدنيا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيف غلط الناس في مقاصدها.

سبب كثرة الأشغال هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث: القوت، والملبس، والمسكن. فالقوت: للغذاء والبقاء، والملبس، لدفع الحر والبرد، والمسكن: لدفع الحر والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال.

ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس، مصْلَحاً، بحيث يستغنى عن صنعة

الإنسان فيه، فحدثت الحاجة إلى خمس صناعات، هي أصول الصناعات، وأوائل الأشغال الدنيوية وهي: الفلاحة، والرعاية، والاقتناص، والحياكة، والبناء.

ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات، كالحياكة والبناء والاقتناص، والآلات إنما تؤخذ: إما من النبات، وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحديد والرصاص، أو من جلود الحيوانات.. فحدث الحاجة إلى ثلاث صناعات أخرى هي: النجارة، والحدادة، والخز، وهؤلاء هم عمال الآلات. فهذه أمهات الصناعات.

* * *

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده، بل هو يضطر إلى الاجتماع مع غيره، من أبناء جنسه، وذلك لسببين:

أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما.

والثاني: التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس، ولتربية الولد.

ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك، ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة.. فافتقروا إلى التناصر والتعاون، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا، تولدت بينهم خصومات.. فالمرأة تخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين، هذا في المنزل.. وأهل البلد يتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها.. فحدثت بالضرورة صناعات أخرى: منها صناعة المساحة، التي تعرف بها مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل، ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم، ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة، ومنها الحاجة إلى الفقه، وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف عند حدوده.

فهذه أمور سياسية لا بد منها، ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة، من العلم والتمييز والهداية، وإذا اشتغلوا بها، لم يتفرغوا لصناعة

أخرى، ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم، فمست الحاجة إلى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم. . فتحدث الحاجة إلى الخراج.

ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج، الحاجة إلى صناعات أخر، إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال، وإلى من يستوفي منهم بالرفق: وهم الجباة، وإلى من يجمع عنده. . وهم الخزان. .

وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام، فحدثت الحاجة إلى ملك يدبرهم، وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصاً. .

وهكذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف:

ـ الفلاحون والرعاة والمحترفون.

ـ الجندية الحماة بالسيوف.

ـ المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء، وهم: العمال والجباة وأمثالهم.

* * *

فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن، وإلى ماذا انتهى.

وهكذا أمور الدنيا، لا يفتح منها باب، إلا وينفتح بسببه أبواب أخر، وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور، كأنها هاوية لا نهاية لعمقها، من وقع في مهواة منها، سقط منها إلى أخرى، وهكذا على التوالي.

* * *

فهذه هي الحرف والصناعات، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات. فالفلاح يحتاج أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه، وذلك بطريق المعاوضة، ولكن الفلاح إذا طلب من النجار الآلة بالطعام، ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه، فتتعوق الأغراض، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات. . فظهرت الأسواق والمخازن. .

وحدث التجار المتكفلون بالنقل، وباعثهم عليه حرص جمع المال.. فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم.. ونصيبهم منها جمع المال، الذي يأكله لا محالة غيرهم: إما قاطع طريق، وإما سلطان ظالم.

ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد. بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة، ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا في الدنيا، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضاً.

ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين.. ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش.. وهكذا تتداعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه.

* * *

[اللصوصية والشحاذة]:

فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم..

وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء. وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به، أو يمنعه عنه مانع، فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الحرف، فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره. فيحدث منه حرفتان خسيستان: اللصوصية والكِدَاية[1]. إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما.

ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدّين ويحفظون عنهم أموالهم، فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير.

أما اللصوص: فمنهم من يطلب أعواناً، ويكون في يده شوكة وقوة، ويتكاثرون ويقطعون الطريق، أما الضعفاء منهم فيفزعون إلى الحيل، إما بالنقب وإما بالتسلق عند انتهاز فرصة الغفلة..

---

(١) قال في القاموس: الكدية بالضم: شدة الدهر، وبالكسر: الكداء ــ ككساء ــ المنع والقطع. وفسرها الشارح: بالشحاذة.

وأما المكدي: فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره، وقيل له: اتعب واعمل كما عمل غيرك، فما لك والبطالة؟ فلا يعطى شيئاً، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال، فاحتالوا للتعلل بالعجز، إما بالتعامي أو التفالج، أو التجانن أو التمارض، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل.

وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجب الناس منها، فيعطون القليل من المال حال التعجب. . وقد يكون ذلك بالمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة.

ومن ذلك أهل المجانة كصنعة الطبالين في الأسواق، وكبيع التعويذات، وكأصحاب الفأل من المنجمين. .

ويدخل في هذا الجنس: الوعاظ على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية. وأنواعها تزيد على الألف.

وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة.

[فِرَقٌ ضلَّت المقصد]:

فهذه أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة ـ بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا ـ خيالات فاسدة، فاختلفت آراؤهم:

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب. . فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا. فهذا مذهب من ليس له تنعم في الدنيا، ولا قدم في الدين.

وطائفة زعموا: أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل، بل السعادة أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج. . فهم يأكلون كما تأكل الأنعام.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع. فهم يتعبون في الأسفار.. ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً.. إلى أن يدركهم الموت، فيكون للجامع تعبه ووباله، وللآكل لذته.

وطائفة ظنوا أن السعادة حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون ويضيقون على أنفسهم في المطعم، ويصرفون ذلك إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور.. فهمتهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة الجاه والكرامة.. فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التفكير في آخرتهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، كلهم قد ضلوا.

وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها.

فمن عرف أن غاية مقصوده تعهد بدنه حتى لا يهلك، سلك سبيل التقليل، فاندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة.

[الفرقة الناجية]:

وتنبهت طائفة إلى شأن المنهمكين في الدنيا، فأعرضوا عنها، فحسدهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضاً.

فظنت طائفة أن السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة، وشددوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة. وبعضهم فسد عقله وجن، وبعضهم مرض وانسدَّ عليه الطريق في العبادة.

وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال. . فوقع في الإلحاد.

وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله، وأن الله مستغن عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاص، ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات، وسلكوا مسلك الإباحة، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

وظن طائفة: أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق.

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها. .

وإنما الناجي منها فرقة واحدة: وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو: أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل. ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل.

ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حدّ مقصوده:

فيأخذ من القوت، ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك.

حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن، أقبل على الله بكنه همته، واشتغل بالفكر والذكر طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات، ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى.

ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة، فإنه ﷺ لما قال: «الناجي منها واحدة» قالوا: يا رسول الله، ومن هم؟ قال: «أهل السنة

والجماعة» فقيل: ومن أهل السنة والجماعة؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[1].

وقد كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً.



---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه، من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة». قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».
ورواه أبو داود من حديث معاوية بلفظ: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة». وإسناده جيد. وكذلك رواه ابن جرير في التفسير، ورجاله رجال الصحيح (ش).



الكِتَابُ السَّابِعُ

ذَمُّ البُخْلِ وَحُبِّ المَالِ

رُبعُ المهلكات



[تمهيد وإيضاح]:

إن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، ولكن الأموال أعظمها فتنة، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر، الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً، وبالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات وتمييز خيرها عن شرها لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين، من العلماء الراسخين.

وشرح ذلك مهم على الانفراد، فإن ما ذكرناه في كتاب «ذم الدنيا» لم يكن نظراً في المال خاصة، بل في الدنيا عامة، إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، والجاه بعضها. . ولها أبعاض كثيرة.

ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده، إذ فيه آفات وغوائل. وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

ذم المال وكراهة حبه:

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة المنافقون: الآية (٩).

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر خسراناً عظيماً.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾[4].

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال ﷺ: «هم الأخسرون ورب الكعبة، هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا»[5].

وقال ﷺ: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[6].

وقال ﷺ: «أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذي يتبعه إلى

---

(١) سورة التغابن: الآية (١٥).
(٢) سورة هود: الآية (١٥).
(٣) سورة العلق: الآيتان (٦ ــ ٧).
(٤) سورة التكاثر: الآية (١).
(٥) متفق عليه (خ ٦٦٣٨، م ٩٩٠) أثبتُّ الصحيح وما ذكره المصنف أخرجه الطبراني بلفظ: «هلك الأكثرون..».
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٨).

قبره فهو أهله، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله»[1].

وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله.

مدح المال (والجمع بينه وبين الذم):

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال «خيراً» في مواضع من كتابه العزيز. فقال تعالى:

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[3].

وقال تعالى ممتناً على عباده:

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[5]. وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به.

ولا تقف على وجه الجمع ـ بعد الذم والمدح ـ إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده، عندها ينكشف لك أنه خير من وجه، وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير، ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخير محض ولا شر محض، بل هو سبب للأمرين جميعاً، وما هذا وصفه فيمدح تارة ويذم أخرى.

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد، وللشيخين: «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد..»(ع).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٨٠).

(٣) سورة الكهف: الآية (٨٢).

(٤) سورة نوح: الآية (١٢).

(٥) أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح (ع).

والبصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم، وبيانه ما ذكرناه في كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم.

تفصيل فوائد المال وآفاته:

اعلم أن للمال فوائد وغوائل، فمن عرف ذلك، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي دنيوية ودينية، أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها، فهي مشهورة، وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة، كالاستعانة به على الحج والجهاد، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وإما في الاستعانة على عبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وضرورات المعيشة. وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام:

ـ الصدقة: ولا يخفى ثوابها، وهي تطفىء غضب الربّ تعالى.

ـ المروءة: ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف، في ضيافة وهدية وإعانة، فإن هذه لا تسمى صدقة، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه من غير اشتراط الفقر.

ـ وقاية العرض: ونعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء، وقطع ألسنة السفهاء، ودفع شرهم، وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته في العاجلة ـ من الحظوظ الدينية، وكيف لا، وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة.

ـ الاستخدام: فالأعمال التي يحتاج إليها الإنسان كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك طريق الآخرة.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد، والقناطر والرباطات، ودور المرضى، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارّة بعد الموت.

فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر.

* * *

أما الآفات: فدينية ودنيوية، أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن تجرّ إلى المعاصي، فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية، ومن العصمة أن لا يجد، والقدرة تحرك داعية المعاصي، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أول الدرجات، ويجره البعض منه إلى البعض، فإذا اشتد أنسه به، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال، فيقتحم الشبهات، ويخوض في المداهنة والكذب والأخلاق الرديئة.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أن يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى. وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران.

وأما الدنيوية: فكثيرة، كالخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه..

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة:

ينبغي أن يكون الفقير قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة.

وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة. قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٣٦، م ١٠٤٨).

وقال ﷺ: «يهرم ابن آدم، ويشب معه اثنتان: الأمل وحب المال»[1].

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة، وغريزة مهلكة، أثنى ﷺ على القناعة فقال: «طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به»[2].

وقال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»[3].

وقال عمر رضي الله عنه: إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإنه من ييأس عما في أيدي الناس، استغنى عنهم.

وعلاج ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يرد نفسه إلى ما لا بدَّ له منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة، والاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[4].

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بدَّ وأن يأتيه، وإن لم يشتد حرصه، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[5].

---

(١) متفق عليه (خ ٦٤٢١، م ١٠٤٧) ولفظ البخاري: «حب المال وطول العمر» ومسلم: «الحرص على المال والحرص على العمر».

(٢) أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، ولمسلم: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» رقم (١٠٥٤).

(٣) متفق عليه (خ ٦٤٤٦، م ١٠٥١).

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٧٧٦) وأثبت نصه، وقد ذكره المصنف بتقديم وتأخير. قال العراقي: وأخرجه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس، قال الشارح: قال الصدر المناوي: رجاله موثوقون، أي حديث الترمذي.

(٥) سورة هود: الآية (٦).

ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده ذلك، انبعثت رغبته إلى القناعة، وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول، وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله، وفيه ثواب الآخرة.

ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم الكفار وأراذل الناس ومن لا دين له، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء، وسمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين، ويخير عقله.. عندها يهون عليه الصبر على الضنك والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، مما ذكرناه، ويتم ذلك بأن ينظر إلى من دونه في الدنيا، لا إلى من فوقه، قال أبو ذر: «أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوقي»[1] أي في الدنيا. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه»[2].

فضيلة السخاء:

اعلم أن المال إن كان مفقوداً، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص. وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصل من أصول النجاة.

---

(١) أخرجه أحمد وابن حبان (ع).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩٠، م ٢٩٦٣).

عن أنس قال: «إن رسول الله ﷺ لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة»[1].

وقال ﷺ: «كل معروف صدقة»[2].

وقال ابن السماك[3]: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وعن محمد بن المنكدر، عن أم درة ـ كانت تخدم عائشة رضي الله عنها ـ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين، ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية، هلم فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت.

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز[4] من المسجد يريد منزله، وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف، فمشى إلى جانبه، فقال له عبد الله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك، رأيتك تمشي وحدك، فقلت أقيك بنفسي، وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام، وقال: استنفق هذه، فنعم ما أدبك أهلك.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣١٢).

(٢) متفق عليه (خ ٦٠٢١، م ١٠٠٥).

(٣) ابن السماك: محمد بن صبيح، مولى بني عجل، أبو العباس، زاهد حسن الكلام، مات سنة ثلاث وثمانين ومائة.

(٤) عبد الله بن عامر. . من بني عبد مناف، أبوه من مسلمة الفتح، وقد ولد في عهد النبي ﷺ وهو ابن خالة عثمان بن عفان، مات ﷺ وعمره دون السنتين، وكان جواداً شجاعاً، ولاه عثمان البصرة بعد أبي موسى، افتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان كلها، وأحرم من خراسان شكراً لله، مات بالمدينة سنة (٥٧)هـ وأخباره في الجود كثيرة.

وخرج الحسن والحسين[1]، وعبد الله بن جعفر[2] حجاجاً، ففاتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا، فمرّوا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها، وليس لها إلا شويهة[3]، فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها، ففعلوا ذلك، ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون.. ففعلوا.. فلما ارتحلوا قالوا: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا، فإنا صانعون بك خيراً.. فلما أقبل زوجها أنكر فعلها، ثم ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز، وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا بها وقال لها: أتعرفينني؟ أنا ضيفك يوم كذا وكذا، قالت العجوز: بأبي أنت وأمي، أنت هو؟ قال: نعم، ثم أمر فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين.. ففعل مثل أخيه، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر. فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها بمثل ذلك، وقال: لو بدأت بي لأتعبتهما. فرجعت العجوز بأربعة آلاف شاة، وأربعة آلاف دينار.

واشترى عبد الله بن عامر بن كريز من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم، فقال: يا غلام، ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي، فكان خيثمة بن عبد الرحمن[4] يعودها

---

(١) هما ابنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما.

(٣) تصغير شاة.

(٤) خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي بسرة الجعفي الكوفي، لأبيه وجده صحبة، قال العجلي: وكان خيثمة رجلاً صالحاً وكان سخياً.

ويسألني: هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه، فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

ومرض قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى: من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده.

وروي أن الشافعي رحمه الله، لما مرض مرض موته قال: مروا فلاناً[1] يغسلني، فلما توفي بلغه خبر وفاته، فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فيها، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال: هذا غسلي إياه. أي أراد به هذا[2].

بيان ذم البخل:

قال تعالى:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ

(١) عنى به: محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ش).
(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (ع).
(٣) سورة الحشر: الآية (٩).
(٤) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

﴿...ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾[1].

وقال ﷺ: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[2].

وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أردَّ إلى أرذل العمر»[3].

وقال ﷺ: «شر ما في الرجل شح هالع[4]، وجبن خالع[5]»[6].

وقال جبير بن مطعم: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين، إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فوالذي نفسي بيده، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً»[7].

وقال عبد الله بن عمرو: الشح أشد من البخل، لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره، حتى يأخذه، ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل: هو الذي يبخل بما في يده.

وقال علي رضي الله عنه: والله ما استقصى كريم قط حقه.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات، فأرفع درجة السخاء الإيثار، وهو: أن يجود بالمال مع الحاجة، وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشد.

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٨) بلفظ: «واتقوا الشح..».
(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣٧٤).
(٤) الهلع: الجزع، أي شح يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه.
(٥) خالع: أي شديد، كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه من الخلق.
(٦) أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد (ع).
(٧) أخرجه البخاري برقم (٢٨٢١).

وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن، ولو وجدها مجاناً لأكلها.

فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة، وذلك يؤثر على نفسه غيره، مع أنه محتاج إليه، فانظر إلى ما بين الرجلين؟! فإن الأخلاق عطايا، يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء.

وقد أثنى الله تعالى على الصحابة رضي الله عنهم به فقال:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

ونزل برسول الله ﷺ ضيف، فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله. ثم وضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم»[2] ونزل قوله تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى، والإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك من دأب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4].

قيل: خرج عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى ضيعة له، فنزل على نخيل

---

(١) سورة الحشر (٩).

(٢) متفق عليه (خ ٤٨٨٩، م ٢٠٥٤) وقد أجمله المصنف، وجاءت الرواية مفصلة في مسلم، حيث ذكر تعليل الأولاد حتى ناموا بغير عشاء، وبين التصنع في إطفاء السراج. .

(٣) سورة الحشر: الآية (٩).

(٤) سورة القلم: الآية (٤).

قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذ أتي الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء!! إن هذا العبد لأسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام، ووهبه منه.

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما:

لعلك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات، ولكن ما حد البخل؟ وبماذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما حدّ السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها؟

فنقول: قال قائلون: حد البخل منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل. وقال قائلون: البخيل: هو الذي يستصعب العطية..

وكذلك تكلموا في الجود، فقيل: الجود عطاء بلا منّ وإسعاف من غير روية، وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل.

بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود، وهو إصلاحه لحاجات الخلق. ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو: أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل.

فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط، وهو المحمود، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه.

إذ لم يؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء وقد قيل له:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2].

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر على بذله وإمساكه بقدر الواجب. ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه، ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه فإن بذل في محل وجوب البذل، ونفسه تنازعه، وهو يصابرها فهو مُتَسَخٍّ وليس بسخي.

ثم إن الواجب قسمان:

- واجب بالشرع.
- وواجب بالمروءة والعادة.

والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع، ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة، ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بالتكلف.

وأما واجب المروءة، فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، واستقباحه يختلف بالأحوال والأشخاص. فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة.

فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢٩).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٧).

فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة بـه فقد تبـرأ من البخل، نعم لا يتصف بصفـة الجود والسخـاء ما لم يبـذل زيادة على ذلـك لطلب الفضيلة ونيـل الـدرجات. فـإذا اتسعت نفسه لبـذل المال حيث لا يـوجبه الشـرع ولا تتـوجـه إليـه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير.

فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجـود، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس، ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة، أو مكافأة، أو شكر، أو ثناء، فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجـواد، فإنـه يشتري المـدح بمالـه، والجود بذل بغير عوض.

بيان علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال، مع طول الأمل.

فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم، ربما أنـه كان لا يبخـل بمالـه، ولكنه لو كان قصير الأمل وكـان له أولاد، أقـام الولـد مقام طـول الأمل. فـإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر، قوي البخل لا محالة.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقيـة عمره، وهـو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة. ولا تسمح نفسه بإخراج الـزكاة، ولا بمـداواة نفسه عند المرض، بل صار محبـاً للدنانيـر عاشقـاً لها، يلتـذ بوجـودها في يـده وبقدرتـه عليها.

وهذا مرض للقلب عظيم، عسير العلاج، لا سيما في كبر السن، وهو مـرض مزمن لا يرجى عـلاجه. ومثـال صاحبـه: مثال رجـل عشق شخصاً، فـأحب رسولـه لنفسه، ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله. وهو غاية الضلال.

فهذه أسباب حب المال.

وإنما علاج كل علة بمضادة سببها:

فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر.

ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في جمع المال، وضياعه بعدهم.

ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً، وحاله أحسن ممن ورث.

ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء، ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم..

ويعالج قلبه أيضاً: بأن يتفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق؟

فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم.

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً، ومن لطائف الحيل أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في صفة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل، واكتسب خبث الرياء، ثم ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه.

والصفات الخبيثة تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة، وهو منع القوت عنها، ومنع القوت عنها أن لا يعمل بمقتضاها، فإذا خولفت خمدت وماتت.

فالبخل يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد مرة، ماتت صفة البخل، وصار البذل طبعاً، وسقط التعب فيه.

وجملة القول: أن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف.

وظائف العبد في ماله:

اعلم أن المال ــ كما وصفناه ــ خير من وجه وشر من وجه، ولا يخلو أحد عن شر المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى: أن يعرف مقصود المال، ولماذا خلق، فلا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعي جهة دخل المال، فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة.

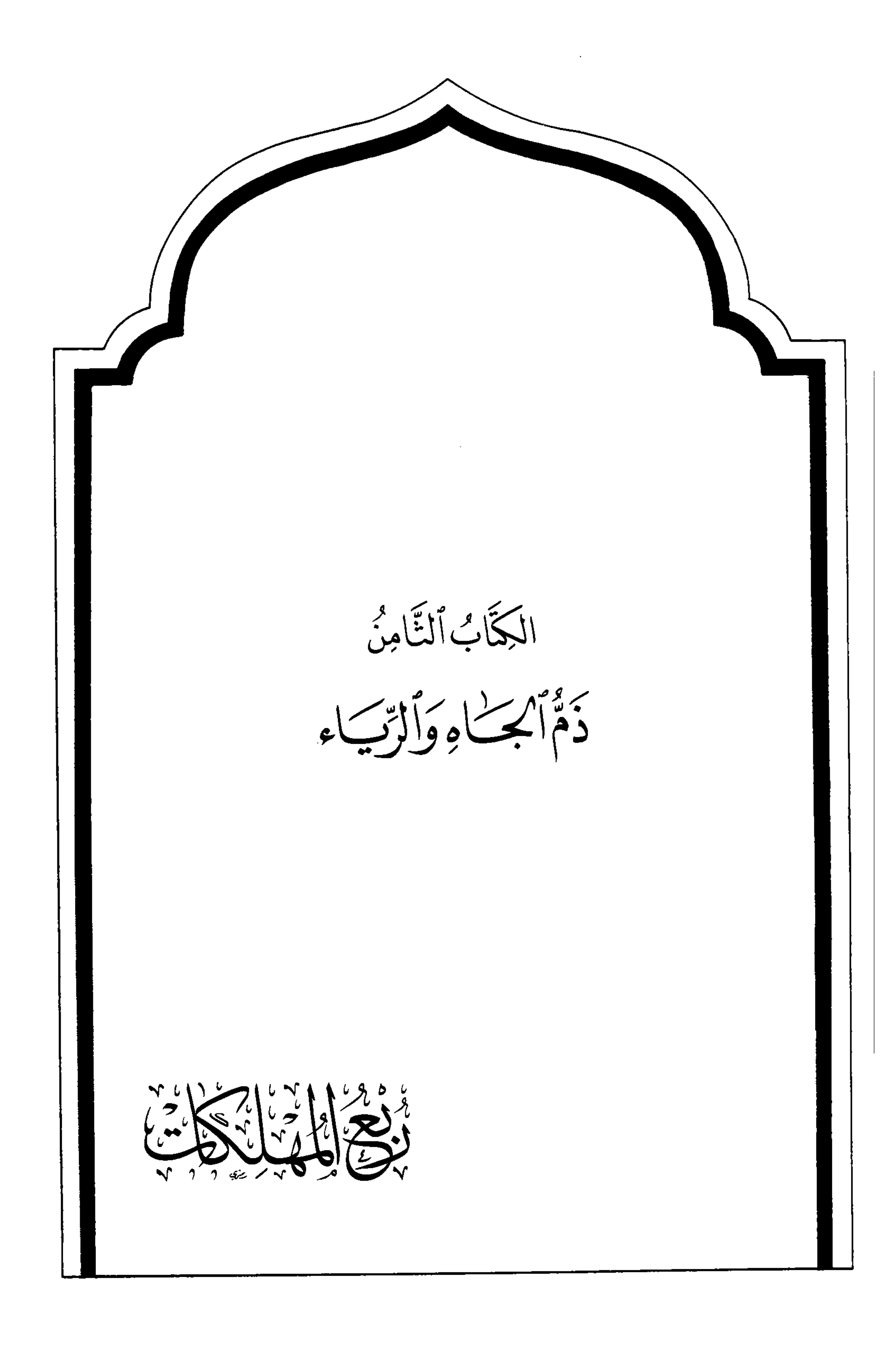
الثالثة: في المقدار الذي يكتسبه، فلا يستكثر منه، ولا يستقل عن قدر الحاجة.

الرابعة: أن يراعي جهة القصد في الإنفاق، غير مبذر ولا مقتر.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك.







الكِتَابُ الثَّامِنُ

ذَمُّ الجَاهِ وَالرِّيَاءِ

رُبعُ المُهلِكَات



الفصل الأول

في ذمِّ الجاهِ والشُّهرة

ذم الجاه وفضيلة الخمول:

اعلم ــ أصلحك الله ــ أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم، بل المحمود الخمول، إلَّا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

قال الله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[1].

جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبيَّن أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً.

وقال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها.

---

(١) سورة القصص: الآية (٨٣).

(٢) سورة هود: الآيتان (١٥ ــ ١٦).

وقال رسول الله ﷺ: «ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين[1]، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه»[2].

وقال ﷺ: «ألا أدلكم على أهل الجنة، كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار كل متكبر مستكبر جوَّاظ[3]»[4].

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت[5]، سرج الليل[6]، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض.

وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس، إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟

وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة.

وخرج أيوب السختياني[7] في سفر، فشيعه ناس كثيرون، فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عزَّ وجلَّ.

وقال رجل لبشر الحافي: أوصني، قال: أخمل ذكرك، وطيب مطعمك.

فهذه الأخبار والآثار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب

---

(١) الطِمْر: الثوب الخَلق البالي، وجمعه: أطمار.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٤) بلفظ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».
(٣) هو الجموع المنوع. وقيل: المختال في مشيته.
(٤) متفق عليه (خ ٤٩١٨، م ٢٨٥٣).
(٥) أي: لازمين بيوتكم لزوم الحِلس، وهو: الحصير الذي يفرش تحت الفرش.
(٦) أي تحيون ليلكم بالعبادة.
(٧) أيوب بن أبي تميمة السختياني، البصري، تابعي جليل، من النساك الزهاد، سيد فقهاء عصره، ومن حفاظ الحديث، توفي عام (١٣١)هـ.

بالشهرة انتشار الصيت، وهو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

واعلم أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم.

معنى الجاه وحقيقته:

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المال: ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه: ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها.

وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، فيتوصل بها إلى الأغراض والمقاصد وسائر حظوظ النفس. فكذلك ذو الجاه، هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها، ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه.

وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات، فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلاَّ بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له، بحسب قوة اعتقاد القلب، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده.

وكما أن صاحب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد، فطالب الجاه يطلب أن يسترقَّ الأحرار ويستعبدهم، ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم.

فإذن؛ معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس.

وله ثمرات: كالمدح والإطراء، والخدمة والإعانة، والإيثار والتعظيم والتوقير.

وسببه اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم، أو عبادة، أو حسن خلق، أو نسب، أو ولاية، أو جمال في صورة..

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع :

اعلم أن السبب الذي يقتضي كون المال محبوباً، هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً. وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه. فكذلك ملك القلوب من الأحرار يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض. فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة. ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال؛ أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب، لو قصد اكتساب المال تيسَّر له. والرجل الخسيس لو وجد لديه مال وأراد التوصل به إلى الجاه، لم يتيسر له.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق، ويطمع فيه الملوك والظلمة، أما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات.

الثالث: أن ملك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة. والمال لا يقدر على إنمائه إلَّا بتعب ومقاساة.

وفي الطباع أمر عجيب ـ وراء حب المال والجاه لقضاء الأغراض ـ وهو: حب جمع الأموال وكنز الكنوز واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً. وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد، التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها.

وهذا الحب لا تنفك عنه القلوب، وله سببان:

أحدهما: دفع ألم الخوف، فالإنسان مولع بسوء الظن، فإنه ـ وإن كان مكفياً في الحال ـ طويل الأمل، ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف في قلبه، ولا يدفع ألم الخوف إلَّا الأمن الحاصل بوجود مال آخر، يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة. فهو أبداً لشفقته على نفسه، وحبه للحياة، يقدر طول الحياة، ويقدر هجوم الحاجات، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب

ما يدفع خوفه وهو كثرة المال. . وهذا الخوف لا يتـوقف على مقدار مخصـوص من المال. . .

ومثل هذه العلة تطّرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأبـاعد عن وطنـه وبلده، فـإنه لا يخلو عن تقـديـر سبب يـزعجـه عن الـوطن، أو يـزعـج أولئـك عن أوطانهم إلى وطنه. .

الثاني: أن كل إنسان بطبعـه يرغب بـالكمال. ولمـا عجزت النفس عن ذلـك لم تسقط شهوتها إليه، فهي محبة للكمال، ومشتهية لـه، وملتذة بـه لذاتـه لا لمعنى آخر وراءه.

وبهـذا المعنى يحب الإنسان بـالطبـع أن يستولي على الأشيـاء بـالقـدرة على التصرف فيها، ومن ذلـك: الدراهم والـدنانيـر والأمتعة. . وكـذلك نفـوس الآدميين وقلوبهم، وهي أنفس ما على وجه الأرض. .

ما يُحمد من حب الجاه وما يُذمّ:

عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب. وهـو عرض من أعـراض الحياة الـدنيا، وينقـطع بالمـوت. والدنيـا مزرعـة الآخرة. وكمـا أنه لا بـدّ من أدنى مـال لضـرورة المطعم والمشرب، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشـة مع الخلق، فهـو بحاجـة إلى خادم ورفيق وأستاذ. . فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل مـا يدعـوه إلى الخدمة ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم. .

فالجاه وسيلة إلى الأعراض كالمال، فلا فرق بينهما، فحبهمـا لأجل التـوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما ــ فيما يجاوز ضرورة البدن ــ مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بـالفسق والعصيان، مـا لم يحمله ذلك الحب على مباشرة معصية.

وخـلاصة القـول: يطلب الجـاه على ثلاثـة أوجه، وجهـان مبـاحـان، ووجـه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه عالم أو ورع.. وهو لا يكون كذلك، فهذا حرام، لأنه كذب وتلبيس.

وأما الوجهان المباحان:

فأحدهما: أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها، كقول يوسف عليه السلام فيما أخبر عنه الله تعالى:

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1].

فإنه طلب المنزلة بكونه حفيظاً عليماً، وكان محتاجاً إليه، وكان صادقاً.

الثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه، ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا مباح أيضاً، لأن الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح، وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو حجب علم لا فائدة به، كالذي يخفي أنه يشرب الخمر، ولا يقول إنه ورع، فإن قوله: إني ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب.

ومن جملة المحظورات: تحسين الصلاة بين يدي إنسان ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبِّس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله، وهو مراء بفعله، فكيف يكون مخلصاً. فطلب الجاه بهذا الطريق حرام، وكذا بكل معصية. وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق. وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره، فلا يجوز أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

سبب حب المدح وبغض الذم:

إنما نذكر ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٥٥).

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أسباب:

الأول: وهو الأقوى، شعور النفس بالكمال، وقد بيّنا أن الكمال محبوب، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة إذا صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلاَّ عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه، فإنه في غاية اللذة.

وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً، ويعظم إذا صدر من بصير موثوق به.

الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، وتعظم اللذة إذا صدر الثناء ممن تتسع قدرته، وتضعف إذا كان المادح لا يؤبه له.

وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب.

الثالث: أن ثناء المثني، ومدح المادح، سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه.

فهذه الأسباب قد تجتمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ.

وتندفع اللذة الأولى ـ وهي استشعار الكمال ـ بأن يعلم الممدوح أنه ـ أي المادح ـ غير صادق في قوله، كما إذا مدح بأنه عالم، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك.

وتندفع الثانية ـ وهي استيلاؤه على قلب المادح ـ إذا علم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله. ويعلم خلوه عن هذه الصفة.. وهكذا تبطل اللذات كلها.

علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم، والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب.

وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة وهو خالٍ عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال. وعلاجه مركّب من علم وعمل:

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات. فلا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية.

ويعالج حب الجاه أيضاً، بالعلم بالآفات العاجلة للجاه، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود، ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشد تغيراً من القدر في غليانها، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب، وحفظ الجاه، ورفع كيد الحساد، ومنع أذى الأعداء، كل ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه. فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما العمل: أن يأنس بالخمول، ويقنع بالقبول من الخالق، وذلك بقطع الطمع عن الناس، فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بهم، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن. ولا يتم ترك الجاه إلّا بالقناعة وقطع الطمع، ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول.

علاج حب المدح:

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فيجب معالجته. وطريقة ذلك:

أن تقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها، أنت متصف بها أم لا؟

فإن كنت متصفاً بها، فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية.

فإن كانت من الأعراض الدنيوية، فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشد الغم عندي في سرور　　تيقَّن عنه صاحبه انتقالا

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع، فينبغي أن لا يفرح بها، لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باقٍ. وفي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا.

وإن كانت الصفة التي مدحت بها، أنت خال عنها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

فإذن: المادح إن كان صادقاً، فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك. وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

علاج كراهة الذمّ:

قد سبق أن العلة في كراهة الذم، هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه، والقول فيه: أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال:

- إما أن يكون قد صدق فيما قال، وقصد به النصح والشفقة.
- وإما أن يكون صادقاً، ولكن قصده الإيذاء والتعنت.
- وإما أن يكون كاذباً.

الأولى: فإن كان صادقاً، وقصده النصح، فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه، وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته، فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به، وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك

إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه، وكراهتك له، وذمك إياه، فإنه في غاية الجهل.

الثانية: وإن كان قصده التعنت، فأنت قد انتفعت بقوله، إذا أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وأذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته، إن كنت قد استحسنته، وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيح لك أسبابها، بسبب ما سمعته من المذمة.

فلو قصدت الدخول على ملك، وثوبك ملوث، وأنت لا تدري، وقال لك قائل: أيها الملوث طهر نفسك، فينبغي أن تفرح به.

الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت منه بريء، عند الله تعالى، فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

ـ أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت منه بريء.

ـ الثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساويك، فكأنه رماك بعيب أنت منه بريء، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته. فمالك تحزن لهدايا تقربك إلى الله تعالى؟

ـ الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللّهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللّهم تب عليه.

فقد دعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة، فقيل له في ذلك؟! فقال: علمت أني مأجور بسببه، وما نالني منه إلّا خير، فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي.

اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم، ويحقد على الذام، ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق، وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الثانية: أن يمتعض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته. وأن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور. وهذا من النقصان، إلَّا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الثالثة: وهي أول درجات الكمال، أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فلا تغمه المذمة، ولا تسره المدحة. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه، ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وهي أن يكون الذام والمادح عنده سواء من كل وجه، وما أبعد ذلك، وما أشده على القلوب.

الرابعة: وهي الصدق في العبادة، أن يكره المدح ويمقت المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، مضرة له في الدين، ويحب الذام، إذ يعلم أنه مهدٍ إليه عيبه، ومرشد له إلى ما يهمه، ومهدٍ إليه حسناته.

وغاية أمثالنا: الطمع في الحالة الثانية.



الفَصل الثاني

في الرِّيَاء

ذمّ الرياء:

الرياء: طلب الجاه والمنزلة بالعبادات.

وهو حرام. والمرائي عند الله ممقوت. وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار:

أما الآيات: فقوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[2].

قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[3].

فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله، والرياء ضده.

---

(١) سورة الماعون: الآيات (٤ ـ ٦).

(٢) سورة فاطر: (١٠).

(٣) سورة الإنسان: الآية (٩).

وقال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به»[2].

وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله عزَّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»[3].

وقال ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله، وأنا منه بريء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[4].

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله»، وذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[5].

وأما الآثار: فقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يطأطىء رقبته، فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

ورأى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت، لو كان هذا في بيتك.

وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون.

---

(١) سورة الكهف: (١١٠).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩٩، م ٢٩٨٦) أثبتُّ نص مسلم، وقد قدم المصنف وأخر.

(٣) أخرجه أحمد والبيهقي ورجاله ثقات. (ع).

(٤) أخرجه مالك واللفظ له دون قوله: «وأنا منه بريء»، ومسلم مع تقديم وتأخير [برقم ٢٩٨٥] دونها أيضاً. وهي عند ابن ماجه بسند صحيح. (ع).

(٥) متفق عليه (خ ٦٦٠، م ١٠٣١).

وقال عكرمة[1]: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله، لأن النية لا رياء فيها.

حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس، بإيرائهم خصال الخير، إلّا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات، وتطلب بالعبادات.

واسم «الرياء» مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها.

فحد الرياء: هو إرادة العباد بطاعة الله.

والمرائي: هو العابد.

والمراءى: هو الناس المطلوب رؤيتهم، بطلب المنزلة في قلوبهم.

والمراءى به: هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها.

والرياء: هو قصده إظهار ذلك.

والمراءى به كثير، وتجمعه خمسة أقسام، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس، وهي: البدن، والزي، والقول، والعمل. والأتباع والأشياء الخارجة.

وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة، إلّا أن طلب الجاه، وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات، أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن، وذلك بإظهار النحول والصفار، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدين، وغلبة خوف الآخرة. وليدل

(١) عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى ابن عباس (٢٥ ــ ١٠٥)هـ، تابعي من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان، روى عنه أكثر من سبعين تابعياً. توفي بالمدينة.

بالنحول على قلة الأكل، وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد، وعظم الحزن على الدين.

الثاني: الرياء بالهيئة والزي: أما الهيئة، فبتشعيث شعر الرأس، ليدل على استغراق الهم بالدين، وعدم التفرغ لتسريح الشعر، وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، وتشميرها إلى قريب من الساق وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب. كل ذلك ليدل أنه متبع للسنّة ومقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين.

والمراؤون بالزي على طبقات، كل منهم يرى منزلته في زي مخصوص، فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه وإلى ما فوقه وإن كان مباحاً، وذلك لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا.

الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير، والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار، إظهاراً لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس.. وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي.. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

الرابع: الرياء بالعمل: كمراءاة المصلي بطول القيام، ومد الظهر، وطول السجود والركوع، وإطراق الرأس، وإظهار الهدوء.. وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة، والإخبات في المشي عند اللقاء، والوقار في الكلام، ومنهم من يكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، وقد تضاعف بذلك رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ، ليري أنه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم. فيباهي بهم.

[حكـم الريـاء]:

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح، أو فيه تفصيل؟

فـأقـول:

ـ إن كان بغير العبادات، فهو كـطلب المال، فـلا يحرم من حيث إنـه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهـو ما يحتـاج إليه الإنسـان محمود، فكسب قليل من الجاه، وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود. وهـو الذي طلبـه يوسف عليه السلام حيث قال:

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة، وهو ليس بحرام، لأنه ليس ريـاءً بالعبـادة بل بـالدنيـا، وقس على هذا كـل تجمل للناس وتزين لهم. ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسـه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم، واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم، كـان قد قصـد أمراً مبـاحاً، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان.

فإذن: المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقـد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها، ولذلك نقول: إذا أنفق الرجـل ماله على جماعة من الأغنياء، لا في معرض العبادة والصدقـة، ولكن ليعتقد النـاس أنه سخي، فهذا مراءاة وليس بحرام، وكذلك أمثاله.

ـ أما إن كان الرياء بالعبادات كالصدقة والصلاة والصيام والحج، فللمـرائي فيه حالتان:

إحداهما: أن لا يكـون له قصـد إلاَّ الريـاء المحض دون الأجر، وهـذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات، وليس هذا بقصد العبادة، ولا يقتصر على إحباط عبادته

(١) سورة يوسف: الآية (٥٥)، والآية: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾.

حتى نقول: صار كما كان قبل العبادة، بل يعصي ويأثم، كما دلت عليه الأخبار والآيات. والمعنى فيه أمران:

(الأول): يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله، وأنه من أهل الدين، وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً.

(الثاني): يتعلق بالله، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله، فهو مستهزىء بالله.

ومثاله: أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار ـ كما جرت عادة الخدم ـ وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك، فإن هذا استهزاء بالملك، إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته، بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟ وهل ذلك إلّا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وهذا من كبائر المهلكات. ولهذا سماه الرسول ﷺ: الشرك الأصغر.

[الثانية[1]]: أنه إن لم يقصد التقرب إلى الله، فقد قصد غير الله، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً.

والرياء هو الكفر الخفي، لأن المرائي عظم في قلبه الناس، فكأن الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود، وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك.

وذلك غاية الجهل، ولا يقدم عليه إلّا من خدعه الشيطان، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله أكثر مما يملكه الله تعالى.

---

(١) ذكر المصنف الحالة الأولى وفصل الأمر فيها، ولكنه لم يذكر (لفظ الثانية) ومن دراسة النص يغلب على ظني أن ما ذكره في هذه الفقرة التي أثبتها بعد (الثانية) هو ما أراده من الحالة الثانية. ولم يشِر الشارح إلى شيء من ذلك.

درجـات الـريـاء:

اعلم أن بعض أبـواب الـريـاء أشـد وأغلظ من بعض، واختـلافـه بـاختـلاف أركانه، وتفاوت الدرجات فيه، وأركانه ثلاثة: المراءى به، والمـراءى لأجله، ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: قصد الرياء

نفس قصد الرياء وهو أربع درجات:

الأولى ــ وهي أغلظها ــ: أن لا يكون مـراده الثواب أصـلاً، كالـذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما صلّى من غير طهارة مع الناس.

فهذا جرَّد قصده إلى الرياء، وهو الممقوت عند الله تعالى، وهذه هي الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضـاً، ولكن قصداً ضعيفـاً، بحيث لو كـان في الخلوة لكـان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصـد على العمل، فهـذا قـريب ممـا قبله. ولا ينفي قصد الثواب عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون له قصد الثواب، وقصـد الريـاء، متساويين، بحيث لـو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل، فـإذا اجتمعا انبعثت الـرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل.

فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، فنرجـو أن يسلم رأساً بـرأس، لا له ولا عليـه، أو يكـون له من الثـواب مثل مـا عليه من العقـاب. وظواهـر الأخبـار تـدل على أنـه لا يسلم.

الرابعة: أن يكون اطلاع النـاس مرجحـاً ومقويـاً لنشاطـه، ولو لم يكن لكـان لا يترك العبادة، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه.

فالذي نظنه ــ والعلم عند الله ــ أنه لا يحبط أصل الثواب، ولكنـه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثـواب، وأما قـوله ﷺ:

«يقول الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[1] فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان، أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به

وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى:

- الرياء بأصول العبادات.
- والرياء بأوصافها.

القسم الأول: ــ وهو الأغلظ ــ الرياء بالأصول، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الرياء بأصل الإيمان، وهذا أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة، وباطنه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى، كقوله عزَّ وجلّ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾[3].

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[4].

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[5].

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).
(٢) سورة المنافقون: الآية (١).
(٣) سورة البقرة: الآيتان (٢٠٤ ــ ٢٠٥).
(٤) سورة آل عمران: الآية (١١٩).
(٥) سورة النساء: الآيتان (١٤٢ ــ ١٤٣).

وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام، ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لغرض. وذلك مما يقل في زماننا.

ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة، ميلاً إلى قول الملاحدة. أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار وليس وراء هذا الرياء رياء. وحال هؤلاء أشد حالاً من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات، مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضاً عظيم عند الله، ولكنه دون الأول بكثير. ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمِّه، والله يعلم منه أن لو كان في يده لما أخرجها.

فهذا مُراءٍ، معه أصل الإيمان بالله، يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشط عند اطلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق.

وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت، وإن كان غير منسلٍ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة، ثم يبعثه الرياء على فعلها. . ويعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه ما زاد على أداء الفرائض.

فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله. وكأنه على شطر من الذي قبله، وعقابه نصف عقابه.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضاً على ثلاث درجات:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس: أحسن الركوع والسجود وتمم القعود بين السجدتين.

فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات.

الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود وتحسين الاعتدال، والزيادة في القراءة.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً، كحضور الجماعة قبل القوم، وقصده للصف الأول، وتوجهه إلى يمين الإمام.

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يراءى به وبعضه أشد من بعض، والكل مذموم.

الركن الثالث: المراءى لأجله

إن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

الأولى ـ وهي أشدها وأعظمها ـ : أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل، والامتناع عن أكل الشبهات، وغرضه أن يعرف بالأمانة. فيُوَلَّى القضاء أو الأوقاف، أو الوصايا، أو مال الأيتام، أو يودع الودائع.. فيأخذها ويجحدها.

وقد يظهر بعضهم زي التصوف وهيئة الخشوع.. وإنما قصده التحبب إلى امرأة..

وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيته. واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، من مال أو نكاح، كالذي يظهر الحزن ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال، ويرغب في نكاحه النساء. فهذا رياء محظور، لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول.

الثالث: أن لا يقصد نيل حظ، وإدراك مال، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد. كالذي يمشي مستعجلاً، فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة، كيلا يقال إنه ليس من أهل الوقار. أو كالذي يرى جماعة يصلون التراويح، أو يتهجدون، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام.

فهذا من آفات الرياء، أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه.

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل.

* * *

الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل، ويحمل عليه، ولو قصد الثواب، وهو أجلاه.

وأخفى منه قليلاً، هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلَّا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخفَّ عليه، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان.

وأخفى من ذلك: ما لا يؤثر في العمل، ولا بالتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلَّا بالعلامات، وأجلى علاماته أن يسرَّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبدٍ يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه. ولكن إذا اطلع عليه الناس سرَّه ذلك وارتاح له، وهذا السرور يدل على رياء خفي، منه يرشح السرور. ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاعهم.

ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع، ولم يقابل ذلك بكراهية، فيصير ذلك

قوتاً وغذاء للعرق الخفي من الرياء، حتى يتحرك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض، وإن كان لا يدعو إلى التصريح.

وقد يخفى، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً، ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار، وخفض الصوت، وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك: أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسرُّ بظهور طاعته، ولكنه ـ مع ذلك ـ إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام ويقابلوه بالبشاشة والتوقير. فإن قصر مقصر ثقل على قلبه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه.

وإذا لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، أخفى من دبيب النمل.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، يحرصون على إخفائها، أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة. فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص. يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد: نفسي نفسي.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر..

[حكم السرور بذيوع خبر الطاعة]:

فإن قلت: فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله أو بعضه؟

فنقول: السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم، فالمحمود أربعة أقسام:

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما أطلع الله عليه الخلق، علم أن الله أطلعهم، وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على

حسن صنع الله به ونظره إليه، فإنه يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، فيكون فرحه بجميل نظر الله له، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم.

الثاني: أن يستدل بإظهار الله الجميل، وستره القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، إذ قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا، إلاَّ ستره عليه في الآخرة»[1] فيكون فرحه بذلك.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة، فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً، وأجر السر بما قصده أولاً. وتوقع ذلك جدير بالسرور.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع، وبميل قلوبهم إلى الطاعة. وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيرَه مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام.. فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط:

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو: إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل، أو قبل الفراغ.

فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور، من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل، إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالماً عن الرياء، فما يطرأ بعده فيرجو أن لا ينعطف عليه أثر، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره، والتحدث عنه. ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله تعالى، ولم يكن منه إلاَّ ما دخل من السرور والارتياح على قلبه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٠).

نعم، لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن ظهـرت له بعـده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره، فهذا مخوف.

وأمـا إذا ورد وارد الريـاء قبل الفـراغ من الصلاة مثـلاً، وكـان قـد عقـد على الإخلاص، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو:

- إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل.

- وإما أن يكون رياءً باعثاً على العمل، فـإن كان بـاعثاً على العمـل، وختم العبادة به حبط أجره.

- وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعـه من قصد الإتمـام لأجل الثـواب، فهذا القدر إذا لم يظهر أثـره في العمل، بـل بقي العمل صـادراً عن باعث الـدين، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع، فلا يفسد العمل، لأنه لم ينعدم به أصـل نيته، وبقيت تلك النية باعثة على العمل، وحاملة على الإتمام.

دواء الرياء وطريق معالجة القلب به:

قـد عرفت ممـا سبق، أن الـريـاء محبط لـلأعمـال، وسبب للمقت عنـد الله تعـالى، وأنه من المهلكـات، وما هـذا وصفه فجـدير بـالتشمير عن سـاق الجد في إزالته، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق، فلا شفاء إلاَّ في شرب الأدوية المرة، وهـذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم. فلا ينفك أحد عن الحاجة إليها، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً. وفي علاجه مقامان:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقـام الأول: في قلع عـروقـه واستئصـال أصـولـه، وأصله: حب المنـزلـة والجاه، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي:

- لذة المحمدة.
- والفرار من ألم الذم.
- والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد للرياء بهذه الأسباب، وأنها الباعثة للمرائي، ما روى أبو موسى: (أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية ــ ومعناه: أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ــ والرجل يقاتل ليرى مكانه ــ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ــ والرجل يقاتل للذكر ــ وهذا هو الحمد باللسان ــ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء. وعلاجه ما ذكرناه في الفصل الأول من الكتاب[2].

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء. وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، فإن علم أنه لذيذ في الحال، ولكنه ضار في المآل، سهل عليه قطع الرغبة عنه.

فإذا عرف العبد مضرة الرياء، وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم منه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنزلة عند الله، وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد، والخزي الظاهر..

فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما يترجح به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حوِّل إلى كفة السيئات، فلو لم يكن في الرياء إلَّا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره. وإن كانت حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله تعالى.

ثم أي غرض له في مدحهم، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم، فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب

---

(١) متفق عليه (خ ١٢٣، م ١٩٠٤).

(٢) ما سبق وذكره المصنف في أول هذا الكتاب من بحث الجاه.

بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلاَّ الله، ومن طمع في الخلق لم يخلُ من الذل والخيبة، فكيف يترك ما عند الله بوهم كاذب ورجاء فاسد؟

وأما ذمهم، فلم يحذر منه؟ ولا يزيده ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه..

فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته، وأقبل على الله بقلبه فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره، ويقل نفعه.

فهذا وما قدمنا في أول الكتاب[1] هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما نغلق الأبواب دون الفواحش، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء.

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه، بالقناعة، وقطع الطمع، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاته، وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية.

فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة، قد تخطر دفعة واحدة، وقد تترادف على الترتيب:

فالأول: العلم باطلاع الخلق، ورجاء اطلاعهم.

ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم، وحصول المنزلة عندهم.

ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه، وعقد الضمير على تحقيقه.

فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة، والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد.

---

(١) المقصود: كتاب ذم الجاه والرياء، الذي نحن بصدده.

وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول، وردِّه قبل أن يتلوه الثاني. فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم، دفع ذلك بأن قال: ما لكَ وللخلق علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأي فائدة من علم غيره؟

فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد، يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء، وتعرضه للمقت عند الله في القيامة.

ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة، فالشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذن: لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والإباء، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة.

فإن قلت: فمن صادف من نفسه الكراهة والإباء، ولكنه ــ مع ذلك ــ غير خالٍ عن ميل الطبع إليه، وحبه له ومنازعته إياه، إلاَّ أنه كاره لحبه وميله، فهل يكون في زمرة المرائين؟

فاعلم: أن الله لم يكلف العبد إلاَّ ما يطيق، وليس من طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته، ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به.

ويدل على ذلك من الأخبار: ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء، لأن نخرّ من السماء أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال ﷺ: «أو قد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذلك صريح الإيمان»[1].

ولم يجدوا إلاَّ الوسواس والكراهة له. ولا يمكن أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبقَ إلاَّ حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٢) ونصه: (جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»). وفي رواية: (سئل عن الوسوسة، قال: «تلك محض الإيمان»).

والرياء ـ وإن كان عظيماً ـ فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى.

[الحذر من الشيطان]:

فإن قلت: إن الشيطان لا تؤمن نزغاته،

فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه؟

أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له؟

أم يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟

قلنا: اختلف الناس في ذلك على ثلاثة أوجه:

فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان، لأنهم انقطعوا لله واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم.

وذهبت فرقة من أهل الشام: إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قلَّ يقينه، ونقص توكله، فمن أيقن أن لا شريك لله في تدبيره، فلا يحذر غيره فهو النافع والضار، والشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر. فالعارف يستحي أن يحذر غيره سبحانه وتعالى.

وقالت فرقة من أهل العلم: لا بد من الحذر من الشيطان، وما ذكره البصريون يكاد يكون من تغرير الشيطان، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته، فكيف يتخلص غيرهم؟

وليس كل وساوس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾(١).

---

(١) سورة الحج: الآية (٥٢).

وقال ﷺ: «إنه ليغان[1] على قلبي»[2] مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلاَّ بخير.

فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور. ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان، ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة، التي هي دار الأمن والسرور. وقال موسى فيما أخبر الله تعالى:

﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[3].

ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[4].

والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان، فكيف يُدعَى الأمن منه؟

وأخذ الحذر لا ينافي الاشتغال بحب الله. ومن الحب امتثال أمره تعالى بالحذر من الكفار ومن الشيطان، كما لا ينافي التوكل.

فأخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ، فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به؟

هذا ما اختاره الحارث المحاسبي ـ رحمه الله ـ وهو الصحيح، الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم.

---

(١) ليغان: الغين والغيم بمعنى واحد. والمراد هنا: ما يتغشى القلب، قال القاضي: قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان من شأنه الدوام عليه، فإذا غفل عد ذلك ذنباً واستغفر منه.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢) وتتمته: «وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

(٣) سورة القصص: الآية (١٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء. ولذلك أثنى الله تعالى على السرِّ والعلانية فقال:

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

والإظهار قسمان: أحدهما: في نفس العمل، والآخر: التحدث بما عمل.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ، ليرغب الناس فيها، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة، فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال ﷺ: «من سنَّ سنَّة حسنة فعمل بها، كان له أجرها وأجر من اتبعه»[2] وتجري سائر الأعمال هذا المجرى.

وعلى من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به، أو يظن ظناً، وربَّ رجل يقتدي به أهله دون جيرانه وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق..

وإنما يصح الإظهار بنية القدوة، ممن هو في محل القدوة، على من هو في محل الاقتداء به.

الثانية: أن يراقب قلبه، فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي، فيدعوه الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به. وهذا حال كل من يظهر أعماله إلاَّ الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١٧) حيث روى القصة كاملة ونصه: «من سنَّ في الإسلام سنَّة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء».

القسم الثاني: أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشد، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة مبالغة، وللنفس لذة في إظهار الدعاوى عظيمة، إلاَّ أنه لو تطرق إليه الرياء،لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها. فهو من هذا الوجه أهون.

والحكم فيه: أن من قوي قلبه، وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به، والرغبة في الخير بسببه، فهو جائز، بل هو مندوب إليه، إن صفت النية، وسلمت عن جميع الآفات.

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء:

قال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر، لأني لا أدري أيهما خير لي؟

وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها.

وقال أبو سفيان بن الحارث[1] لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا علي، فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت.

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائي بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به، فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء.

بل إظهار المرائي للعبادة ــ إذا لم يعلم الناس أنه رياء ــ فيه خير كثير للناس، ولكنه شر للمرائي، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟

وقد روي أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء، فتركوا ذلك، وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف.

(١) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، صحابي كريم.

فإظهار المرائي قد يكون فيه خير كثير لغيره ـ إذا لم يعرف رياؤه ـ «وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1] و«بأقوام لا خلاق لهم»[2].

كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها:

لا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه، وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها، وربما يظن أن إخفاءها رياء محظور، وليس كذلك. والمحظور أن يسترها ليرى الناس أنه ورع، فهذا ستر المرائي.

وللإنسان ستر المعاصي ويصح قصده لذلك، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه، وذلك لوجوه:

الأول: أن يفرح بستر الله عليه لحديث: «إن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً، ستره الله عليه في الآخرة»[3]، وهذا ينشأ من قوة الإيمان.

الثاني: أنه قد علم أن الله يكره ظهور المعاصي، ويحب سترها، فهو وإن عصى لم يخلُ قلبه عن محبة ما أحبه الله. وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً.

الثالث: الحياء خلق كريم ووصف محمود، قال ﷺ: «الحياء خير كله»[4] فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس، جمع إلى الفسق الوقاحة وفقد الحياء، وهو أشد حالاً ممن يستتر ويستحيي.

الرابع: أن يخاف من ظهور ذنبه، أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به.

خطأ ترك الطاعات خوفاً من الرياء:

من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان. فترك العمل خوفاً من قولهم: إنه مراء، هو عين الرياء، فلولا حبه

---

(١) متفق عليه (خ ٣٠٦٢، م ١١١).

(٢) أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح. (ع).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٠).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٣٧).

لمحمدتهم، وخوفه من ذمهم فما لـه ولقولهم؟! قالوا: إنه مراء أو قالـوا: إنـه مخلص؟

وأي فـرق بين أن يترك العمـل خوفـاً من أن يقال إنـه مـراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال إنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك.

فهذه كلها من مكايد الشيطان على العباد الجهال.

واعلم أن الرجل قد يبيت مع القـوم في موضـع، فيقومـون للتهجد، أو يقـوم بعضهم، وهو ممن يقوم في بيته، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يـزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً. فهذا ربما يظن أنه رياء، وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق.

لأن كـل مؤمن راغب في عبادة الله تعـالى، وفي قيـام الليـل وصيـام النهـار، ولكن قد تعوقه العوائق، ويمنعه الاشتغال، أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهـدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغـال في بعض المواضـع فينبعث له النشاط.

واجب المريد قبل العمل وبعده وفيه:

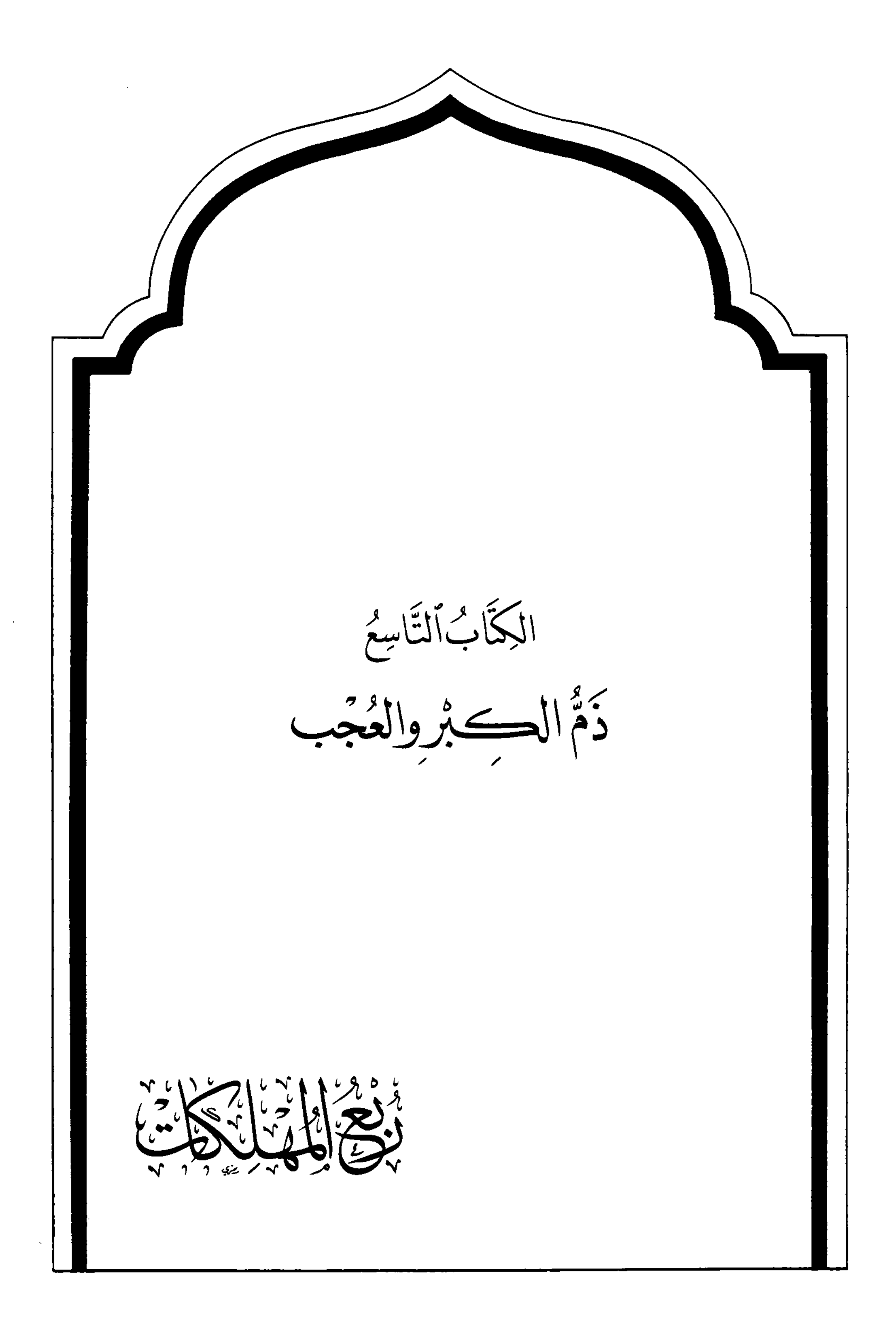
اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القنـاعة بعلم الله في جميـع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلاَّ من لا يخاف إلاَّ الله، ولا يرجو إلاَّ الله، فأما من خاف غيره وارتجاه، اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله.

فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقـل والإيمان، لمـا فيه من خطر التعرض للمقت.

وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقـة، التي لا يقدر عليهـا غيره، فـإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء. ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابل عظيم عمله عظيم ملك الآخـرة، ونعيم الجنة، ودوامـه أبد الآباد، وعظيم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده.

ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ، حتى لا يظهره ولا يتحدث به.

وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجـلاً من عمله خائفـاً أنه ربمـا داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه.



الكِتَابُ ٱلتَّاسِعُ

ذَمُّ الكِبْرِ والعُجْبِ

رُبعُ المهلكات



الفصل الأول

في الكبر

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر.

فقال تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

(٢) سورة غافر: الآية (٣٥).

(٣) سورة إبراهيم: الآية (١٥).

(٤) سورة النحل: الآية (٢٣).

(٥) سورة غافر: الآية (٦٠).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»[1].

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»[2].

وقال ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[3].

وقال ﷺ: «أهل النار، كل عتل جوَّاظ مستكبر، وأهل الجنة كل ضعيف متضعف»[4].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

ذم الاختيال وفضيلة التواضع:

قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً»[5].

وقال ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[6].

وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء»[7].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩١).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠).
(٣) متفق عليه (خ ٤٨٥٠، م ٢٨٤٦).
(٤) متفق عليه (خ ٤٩١٨، م ٢٨٥٣). والعتل: الشديد الخصومة، الجواظ: الجموع المنوع.
(٥) متفق عليه (خ ٥٧٨٨، م ٢٠٨٧).
(٦) متفق عليه (خ ٥٧٨٩، م ٢٠٨٨).
(٧) متفق عليه (خ ٥٧٨٣، م ٢٠٨٦).

وقال ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[1].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي.

وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ما هو؟ ـ: أن تخضع للحق، وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال الحسن البصري: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك، ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

ورأى محمد بن واسع ولده يختال، فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله.

وكان إبراهيم النخعي يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء.

ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة، فأين المعرفة؟

حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح.

واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق.

والكبر يستدعي متكبراً عليه، ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب، كما سيأتي. ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبراً.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨٨).

بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة، ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضاً: عزة وتعظماً. ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى:

﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[1].

قال: عظمة لم يبلغوها. ففسر الكبر بتلك العظمة.

ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات، ويسمى ذلك: تكبراً وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة.

فهذا هو الكبر، وآفته عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العبَّاد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق.

وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2]، وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة.

وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين، قال تعالى:

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4].

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[5].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[6].

---

(١) سورة غافر: الآية (٥٦).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩١).
(٣) سورة غافر: الآية (٧٦).
(٤) سورة غافر: الآية (٦٠).
(٥) سورة النحل: الآية (٢٢).
(٦) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

درجات التكبر باعتبار المتكبر عليه:

اعلم أن الإنسان خلق ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فالتكبر باعتبار المتكبَّر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله، وهو أفحش أنواع التكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان، مثل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى، إذ استنكف أن يكون عبداً لله، ولذلك قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

الثاني: التكبر على الرسل، من حيث تعزز النفس، وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، كما حكى الله قولهم:

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[2].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3].

وقال تعالى عن فرعون:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[4].

فتكبر على الله وعلى رسله.

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[5].

---

(١) سورة غافر: الآية (٦٠).
(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٧).
(٣) سورة إبراهيم: الآية (١٠).
(٤) سورة القصص: الآية (٣٩).
(٥) سورة الزخرف: الآية (٣١).

قال قتادة: طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا: غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟

وقال تعالى:

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾[1].

وهذا الكبر قريب من الأول، وإن كان دونه، وهو تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

الثالث: التكبر على العباد: وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم، ويأنف عن مساواتهم.

هذا ـ وإن كان دون الأول والثاني ـ فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز، الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله.

وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته»[2].

الوجه الثاني: أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله، وتشمر لجحده، وذلك يحمله على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ﴾[3].

---

(١) سورة النمل: الآية (١٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٠٦).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالرجل إثماً، إذا قيل له: اتق الله، قال: عليك نفسك.

وقال ﷺ لرجل: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «لا استطعت»، فما منعه إلا كبره، قال: فما رفعها بعد ذلك[1].

فالتكبر على الخلق عظيم، لأنه يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى.

وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاه الله من أحواله إلا ليعتبر به فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال:

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2].

فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود، الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرَّه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد.

ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين ــ إذ سأله ثابت بن قيس فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حبب إليَّ الجمال، ما ترى أفمن الكبر هو؟ ــ فقال ﷺ: «لا، ولكن الكبر بطر الحق وغمص الناس»[3] وقوله «غمص الناس» أي ازدراهم واحتقرهم، وهم عباد الله مثله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى، ورد الحق هو الآفة الثانية.

فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقره، ونظر إليه بعين الاستصغار، أو ردّ الحق وهو يعرفه، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٩١) بلفظ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس» وغمط بمعنى غمص.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني: وهو العلم والعمل، وكمال دينوي وهو: النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم، وما أسرع الكبر إلى العلماء، فلا يلبث العالم أن يتعزز بالعلم، ويستشعر في نفسه جماله، حتى يستعظم نفسه، ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقوموا له ويخدموه.. والغالب أنهم يزورونه ولا يزورهم، ويعودونه ولا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم.. كأنهم عبيده، أو أجراؤه، وكأن تعلمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم. هذا فيما يتعلق بالدنيا.

أما في أمر الآخرة: فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم.

وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، فالعلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه، وخطر الخاتمة.. وهذا العلم يزيده خوفاً وتواضعاً.

وسبب الكبر بالعلم أمران:

ـ الأمر الأول: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً، وليس علماً حقيقياً، فالعلم الحقيقي ما يعرف به ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله تعالى والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

وأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة.. فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ كبراً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً.

---

(١) سورة فاطر: الآية (٢٨).

ـ الأمر الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخيلة رديء النفس، سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه، فبقي خبيث الجوهر.

وقد ضرب وهب بن منبه[1] لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء، حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة.

فكذلك العلم، يزيد المتكبر كبراً، والمتواضع تواضعاً. فالعلم من أعظم ما يتكبر به، ولذلك قال تعالى لنبيه:

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

وقال:

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[3].

الثاني: العمل والعبادة: فليس يخلو الزهاد والعباد عن رذيلة العز والكبر، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم.. كأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقاً ـ مهما رأى ذلك ـ قال ﷺ: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»[4]. وإنما قال ذلك، لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله..

---

(١) وهب بن منبه (٣٤ ـ ١١٤)هـ عالم بالأخبار، قيل: إنه صحب ابن عباس، ويعد من التابعين.

(٢) سورة الشعراء: الآية (٢١٥).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٣).

ومن اعتقد جزماً، أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي، وأعظم شيء يبعد العبد عن الله. وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وأمن من مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس موال وعبيد، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته التفاخر عليهم فيقول: يا نبطي، يا هندي، ومن أنت؟ ومن أبوك؟ وما يجري مجراه.

وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب، وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب ترشح منه.

روي عن أبي ذر أنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء، فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر طفَّ الصاع، طفَّ الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل»[1]. فقال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدي.

فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل، وانظر كيف تاب، وقلع من نفسه شجرة الكبر، إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل.

الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة، وذكر عيوب الناس.

الخامس: الكبر بالمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم، وبين المتجملين في لباسهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر

---

(١) أخرجه ابن المبارك في البر والصلة، وأحمد (ع) والقصة في الصحيحين بلفظ: «إني سببت رجلاً فعيرته بأمه، فقال النبي: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» (خ ٣٠، م ١٦٦١).

عليه. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[1].

وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله:

﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[2].

ومن ذلك تكبر قارون.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار، وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري بين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة: فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً، وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين.. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض. نسأل الله العون بلطفه ورحمته.

أخلاق المتواضعين ومظاهره التكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه[3]، ونظره شزراً، وإطراقه رأسه، وجلوسه متربعاً أو متكئاً، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته، وتبختره، وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له، أو بين يديه. قال علي رضي الله

---

(١) سورة الكهف: الآية (٣٤).

(٢) سورة الكهف: الآية (٤٢).

(٣) صعر الوجه: أي ازوراره، والمقصود: الإعراض به تكبراً.

عنه: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى رجل قاعد، وبين يديه قوم قيام)[1].

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. وكان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة.

ومنها: أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين، وهو التواضع.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه، إلا أن يجلس بين يديه، والتواضع خلافه.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه، ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين. قال ثعلبة بن أبي مالك القرظي[2]: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك.

ومنها اللباس، إذ يظهر به التكبر والتواضع، على أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد، في كل حال، وهو الذي أشار به ﷺ في حديث ثابت بن قيس: إني امرؤ حبب إليَّ الجمال.. فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب، لا ليتكبر على غيره، كما مر، وقد يكون ذلك من الكبر.

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال، إذا سب وأوذي وأُخِذَ حقُّه، فذلك هو الأصل.

وبالجملة: فمجامع حسن الأخلاق والتواضع في سيرة النبي ﷺ، فينبغي أن يقتدي به، ومنه ينبغي أن يتعلم.

---

(١) معناه في المرفوع: «من أحب أن يتمثل له الرجال بين يديه قياماً، فليتبوأ مقعده من النار» رواه الطبراني وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه (ش).

(٢) في الأصل: ثابت بن أبي مالك، والتصحيح من الشرح.

معالجة الكبر واكتساب التواضع:

اعلم أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة، واستعمال الأدوية القامعة له، وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلَّا بمجموعهما.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه، ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلَّا التواضع والذلة والمهانة.

وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلَّا بالله، ومعرفته ربه وعظمته ومجده، فالقول فيه يطول.

وأما معرفته نفسه، فهو أيضاً يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، فقد قال تعالى:

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾(١).

فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان، وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية:

أما أول الإنسان، فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وكان في حيز العدم دهوراً،

---

(١) سورة عبس: الآيات (١٧ ــ ٢٢).

ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها، إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً.

فقد كان هذا بداية وجوده، حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلاَّ وهو على أخس الأوصاف والنعوت. إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر.. فهذا معنى قوله:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾.

ثم امتنَّ عليه فقال:

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾.

وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت.

وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام، والنطفة القذرة بعد العدم المحض ليعرِّفه خسَّة ذاته، فيعرف نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه، ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلاَّ به جلَّ وعلا.

فمن هذا بدؤه وهذه أحواله، فمن أين له الكبرياء والفخر، وهو على التحقيق أخس الأخسَّاء وأضعف الضعفاء؟!

وأما آخره ومورده فهو الموت، المشار إليه بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾.

ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته.. فيعود جماداً كما كان أول مرة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة، ثم رميماً.. وصار كأن لم يغن بالأمس. وليته بقي كذلك، فما أحسنه لو ترك تراباً، لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء.

فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾.

فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة، فضلاً عن البطر والأشر؟

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة.

السبب الأول: النسب، فمن كان يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين:

ـ أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف   لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفاته، فكيف يجبر خسته بكمال غيره؟

ـ الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجده البعيد تراب ذليل. . فمن كان كذلك فكيف يتكبر؟!

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى باطنه نظر البهائم. فإذا فعل ذلك رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه. ولو ترك نفسه في حياته يوماً واحداً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن من الدواب المهملة.

كما أنه لم يكن قبح القبيح إليه حتى ينفيه عن نفسه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟!

فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوة، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه، وأن نملة لو دخلت أنفه أو أذنه لقتلته. . ثم إن

قويَ الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟!

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار. وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم، وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً. وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته، فهو ظاهر الجهل.

كيف والمتكبر بالغنى، لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل، فأفٍ لشرف يسبقك به اليهودي، وأفٍ لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة، فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟!

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات، وأبعدها عن قبول العلاج، إلاَّ بشدة شديدة، وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله، عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما.

ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلاَّ بمعرفة أمرين:

ـ أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على العالم آكد، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، قال ﷺ: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[1]، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيطيف به أهل النار، فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه»[2]. وقد مثل الله سبحانه من يعلم ولا يعمل بالحمار، فقال عزَّ وجلّ:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[3].

أراد به علماء اليهود.

---

(١) الأقتاب: الأمعاء.

(٢) متفق عليه (خ ٣٢٦٧، م ٢٩٨٩).

(٣) سورة الجمعة: الآية (٥).

فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده. فهذا الخطر يمنع من التكبر.

ـ الثاني: أن يعرف العالم أن الكبر لا يليق إلاَّ بالله عزَّ وجلّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع، فلا بد وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد. وسبيله: أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد. وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي [له] أن يتكبر عليه كيفما كان. وقد قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وغير العالم لا ينبغي أن تتكبر عليه، إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء.. ربما جرى عليك في باطنك ما صرت به عند الله ممقوتاً.

[اختبارات على التواضع]:

تلك معارف، يزال بها داء الكبر عن القلب لا غير، إلاَّ أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع، وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات تستخرج ما في باطنه منها:

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له.. فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً، فليتقِ الله ويشتغل بعلاجه.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل، ويقدمهم على

---

(١) سورة الزمر: الآية (٩).

نفسه، ويمشي خلفهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه ذلك، فهو كبر. . فليشتغل بإزالته. .

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء.

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء، وفي الخلوة كبر.

فاعرف، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق، له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى مذلة، والوسط يسمى تواضعاً.

والمحمود: أن يتواضع في غير مذلة. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه.



الفصل الثاني

في العُجْب

ذم العجب وآفته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى، وسنّة رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[1].

ذكر ذلك في معرض الإنكار.

وقال تعالى:

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[2].

فردَّ على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم.

وقال تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[3].

وهذا يرجع إلى العجب بالعمل.

وقال ﷺ لأبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك»[4].

---

(١) سورة التوبة: الآية (٢٥).

(٢) سورة الحشر: الآية (٢).

(٣) سورة الكهف: الآية (١٠٤).

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه (ع).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلاَّ بالسعي والطلب، والقانط لا يسعى، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وظفر بمراده فلا يسعى.

وقال تعالى:
﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[1].

قال زيد بن أسلم: لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارَّة، وهو معنى العجب.

واعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه. فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع العباد، أما مع الله تعالى، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعضها لا يذكرها وينساها لعدم تفقده لها، ويتذكر بعضها فيستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تلافيه، ويظن أنه يغفر له.

وأما العبادات: فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمنّ على الله بفعلها، وينسى نعمته بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً. فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلَّما تنفع.

حقيقة العجب:

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه ـ في علم وعمل ومال وغيره ـ حالات:

الأولى: أن يكون خائفاً على زواله، ومشفقاً على تكدُّره، أو سلبه من أصله، فهذا ليس بمعجب.

الثانية: أن لا يكون خائفاً من زواله، لكن يكون فرحاً به، من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه، لا من حيث إضافته إلى نفسه. وهذا أيضاً ليس بمعجب.

(١) سورة النجم: الآية (٣٢).

الثالثة: هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحاً به، مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ونعمة وخير، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى. فيكون فرحه من حيث أنه صفته، ومنسوب إليه بأنه له. فإذا غلب على قلبه إنه نعمة من الله، إذا شاء سلبها عنه، زال العجب بذلك عن نفسه.

فالعجب: هو استعظام النعمة، والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم.

علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل.

فالورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب، إنما يعجب به من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته، وأعضائه، وسائر الأسباب التي بها يتم عمله، من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه، من غير حق سبق له، ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق، وآثره به على غيره.

فإذن: لا معنى لعجب العابد بعبادته، وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله، وعجب الغني بغناه، لأن كل ذلك من فضل الله.

أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

وهو ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته، وصحته وقوته، وحسن صورته.

وعلاجه: ما ذكرناه في الكبر بالجمال.

الثاني: البطش والقوة.. وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة سلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور في مصالح الدين

والدنيا. وثمرته: الاستبداد بالرأي، وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه.

فليعلم: أنه ما أوتي من العلم إلاَّ قليلاً، وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه. فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله، وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم، ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري، فإن القاصر العقل لا يعرف قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه.

الرابع: العجب بالنسب الشريف، كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موالٍ وعبيد.

وعلاجه: أن يعلم أنه إذا خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف، واستعظام الخلق، ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، فكانوا عند الله شراً من البهائم.

ولذلك قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

أي: لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب فقال:

﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

ولما نزل قوله تعالى:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

ناداهم بطناً بطناً، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية عمة رسول الله ﷺ، اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً»[2]. فمن عرف هذه الأمور علم أن شرفه بقدر تقواه.

الخامس: العجب بنسب السلاطين والظلمة دون نسب الدين والعلم، وهذا غاية الجهل.

وعلاجه: أن يتفكر في مخازيهم، وأنهم ممقوتون عند الله. فحق أولاد الظلمة ـ إن عصمهم الله من الظلم ـ أن يشكروا الله على سلامة دينهم.

السادس: العجب بكثرة الأولاد والخدم والأقارب والأنصار.

وعلاجه: أن يتفكر في ضعفه وضعفهم، وأنهم كلهم عبيد عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.

السابع: العجب بالمال، كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال:

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[3].

وذلك العجب بالغنى.

وعلاجه: أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه، وعظيم غوائله، وينظر إلى الفقراء، وسبقهم إلى الجنة يوم القيامة.

وفي حديث الذي تبختر بحلته وأعجبته نفسه، وأمر الله الأرض فأخذته: عظة لمن اتعظ، وقد سبق ذكره.

---

(1) سورة الشعراء: الآية (٢١٤).

(2) رواه الشيخان: (خ ٢٧٥٣، م ٢٠٥).

(3) سورة الكهف: الآية (٣٤).

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال تعالى:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى.

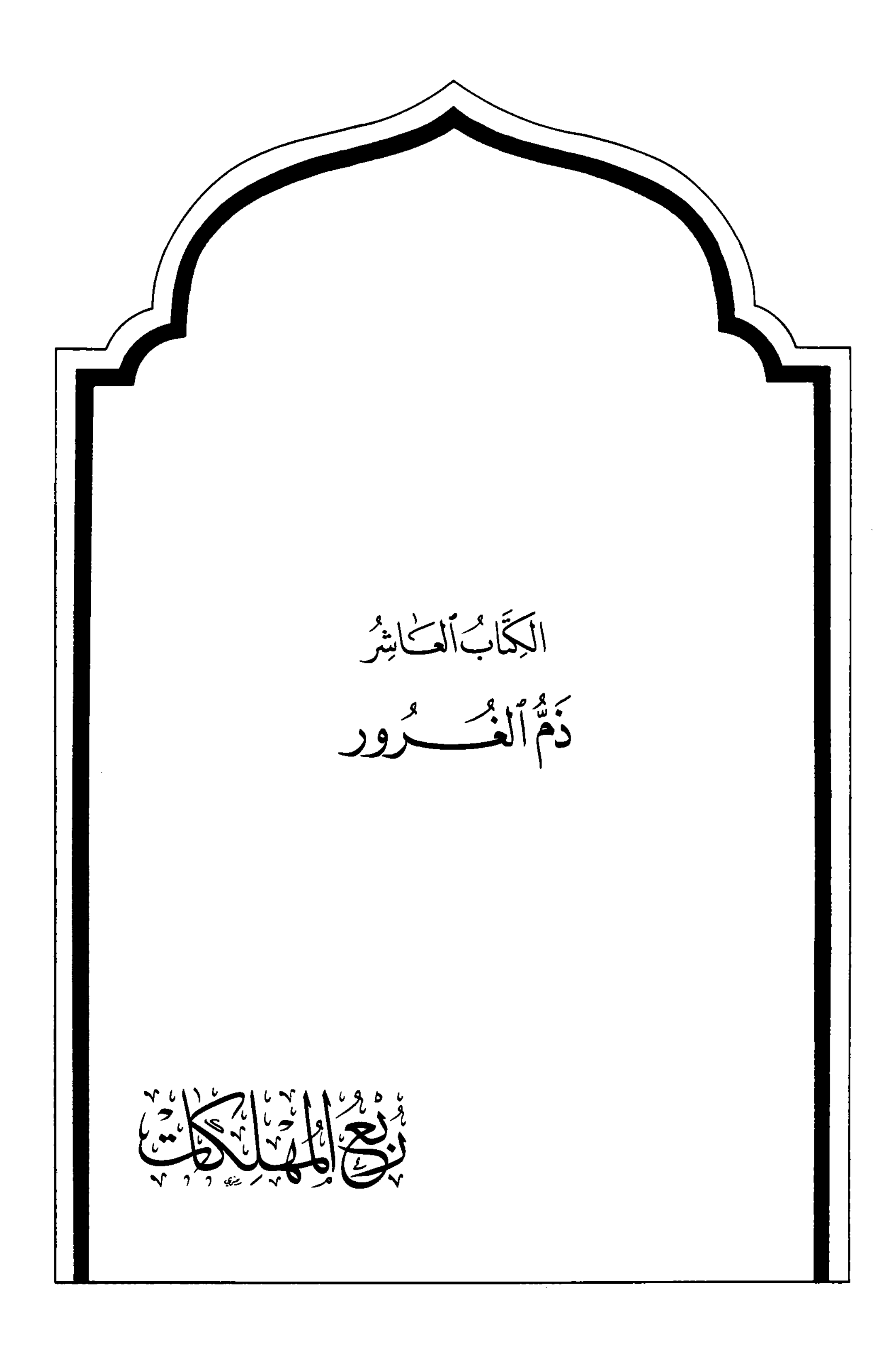
وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه. ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً.

***

---

(١) سورة فاطر: الآية (٨).

(٢) سورة الكهف: الآية (١٠٤).



الكتاب العاشر

ذمّ الغرور

ربع المهلكات



ذم الغرور وحقيقته:

اعلم أن قوله تعالى:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾(1).

وقوله تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾(2) الآية.

كافٍ في ذم الغرور.

وقال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»(3).

والغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع، عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في الآجل، عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير، وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذن مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم، وإن اختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض.

---

(1) سورة لقمان: الآية (٣٣).

(2) سورة الحديد: الآية (١٤).

(3) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن (ع).

[أشد أنواع الغرور]:

وأظهر درجات الغرور وأشدها غرور الكفار، وغرور العصاة والفساق.

أما غرور الكفار، فقد أشار إليه قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1].

وعلاج هذا الغرور: الإيمان، إما بالتصديق، وإما بالبرهان.

وأما غرور العصاة من المؤمنين، فهو بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه. واتكالهم على ذلك، وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاءً، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة، ورحمته شاملة، وكرمه عميم، وأين معاصي العباد من بحار رحمته، وإنا موحدون ومؤمنون؟! وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبهم.

وينسى المغرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة، فلم يردْ فكان من المغرقين:

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾.

فقال تعالى:

﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾[2].

واستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه فلم ينفعه.

فمن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروى بشرب أبيه، ويصير عالماً بتعلم أبيه. فالتقوى فرض عين، فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً، وكذا العكس.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٦).

(٢) سورة هود: الآية (٤٦).

[بين الغرور والرجاء]:

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة: إن الله كريم وإنا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال: «أنا عند ظن عبدي بي»[1]؟

فاعلم: أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر، مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب. ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»[2] وهذا هو التمني على الله تعالى غيَّر الشيطان اسمه فسماه: «رجاء» حتى خدع به الجهال.

وقد شرح الله الرجاء فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

يعني: أن الرجاء بهم أليق.

قيل للحسن البصري: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل؟

فقال: هيهات هيهات!! تلك أمانيهم يترجّون بها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو ــ بعد ــ لم يتزوج، فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يعمل ولم يترك المعاصي، فهو مغرور.

---

(١) متفق عليه (خ ٢٥٩٩، م ٢٦٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن (ع).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢١٨).

[موضع الرجاء]:

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟

فاعلم: أنه محمود في موضعين.

أحدهما: في حق العاصي المنهمك، إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: وأنى تقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى..

فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[1]. وأن الله كريم، يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب. قال الله تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[2].

أمرهم بالإنابة.

وقال تعالى:

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[3].

فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهومغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال، ويقتصر على الفرائض، فيرجي نفسه نعيم الله تعالى، وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[4] الآيات.

---

(١) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(٢) سورة الزمر: الآيتان (٥٣ ـ ٥٤).

(٣) سورة طٰه: الآية (٨٢).

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان (١ ـ ٢).

فالرجاء الأول: يقمع القنوط المانع من التوبة.

والرجاء الثاني: يقمع الفتور المانع من النشاط.

فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة.

بيان أصناف المغترين

فرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الأول: العلماء.

الثاني: العبَّاد.

الثالث: المتصوفة.

الرابع: أرباب الأموال.

الصنف الأول: أهل العلم:

[والمغترون منهم نوعان، وكل نوع فيه فرق؛ **والنوع الأول**]:

● فرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وتعمقوا فيها. وأهملوا تفقد الجوارح، وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات. واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم لكرامتهم على الله.

وهم مغرورون: فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة، المسمى بالعادة: علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة. وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل.

فمثال هذا: كمريض به علة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فسعى حتى عثر على طبيب حاذق، فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط. فتعلم ذلك وكتب منه

نسخة، ورجع إلى بيته يكررها، ويعلمها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أن ذلك يغني عن مرضه شيئاً؟

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق وما زكى نفسه بها، فهو مغرور، إذ قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1].

ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها، وكتبَ ذلك وعلمه الناس.

وأما الذي يدعي علم «المعرفة» كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده، فغروره أشد.

ومثاله: مثال من أراد خدمة ملك، فعرفه وعرف صفاته وأخلاقه. ولم يتعرف على ما يحبه وما يغضبه وما يرضيه، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لكل ما يغضبه، وعاطل عن جميع ما يحبه؛ فهذا مغرور جداً. . ولو ترك جميع ما عرف واكتفى بمعرفته ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيل المراد. بل تقصيره في التقوى دليل على أنه لم يعرف إلا الأسامي دون المعاني. إذ لو عرف الله لخشيه واتقاه. ولذلك قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

● وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم لمحو الصفات المذمومة منها كالكبر والرياء والحسد. . وطلب الشهرة. .

فهؤلاء: زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر

---

(١) سورة الشمس: الآية (٩).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

إلى صـوركم ولا إلى أمـوالكم، وإنمـا ينـظر إلى قلوبكم وأعمـالكم»[1] فتعهـدوا الأعمال، وما تعهدوا القلوب، والقلب هو الأصـل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ولا يخفى أن ذلك غرور.

● وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشـرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بـذلك، وإنمـا يبتلي به العـوام، ثم إذا ظهر عليهم الكبـر والريـاسة وطلب الشـرف قالوا: ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم..

ونسي المغرور: أن عدوه ــ الذي حذره الله منـه ــ هو الشيـطان، وأنه يفـرح بما يفعله ويسخر به، ونسي ما روي عن الصحـابة من التـواضع، حتى عـوتب عمر رضي الله عنـه في بذاذة زيـه عنـد قـدومـه إلى الشـام، فقـال: إنـا قـوم أعـزنـا الله بالإسلام، فلا نطلب العزَّ في غيره.

● وفـرقة أخـرى: أحكموا العلم والعمـل، وجاهـدوا أنفسهم في التبري من الرياء والكبر..، ولكنهم بعد مغرورون، إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكـايد الشيطان ما دق وغمض مدركه، فلم يفطنوا لها وأهملوها.

وإنما مثاله: من أراد تنقية الزرع من الحشيش، ففعل، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظن أن الكل قد ظهر.

فكذلك العالم، قد يفعل جميع ذلك، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت.

وعساه يصنف ظاناً أنه يجمع العلم لينتفع بـه، وإنما يـريد بـه استطارة اسمـه بحسن التصنيف، ولعله في تصنيفـه لا يخلو من الثنـاء على نفســه، ولعله يحكي ما يستحسنه ولا يعزيه إلى قـائله، فينقله كالسـارق له، أو يغيـره أدنى تغيير، كـالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤/٣٤).

فهذا وأمثاله، من خفايا القلوب، التي لا يفطن له إلا الأكياس، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء.

وأقل الدرجات: أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويسوؤه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه. فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال. فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار.

هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكنهم قصروا في العمل بالعلم.

[النوع الثاني]:

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم، وتركوا المهم. وهم به مغترون، إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه.

● فمنهم فرقة: اقتصروا على علم الفتاوى في المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد. وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا ـ مع ذلك ـ الأعمال الظاهرة، ولم يحرسوا قلوبهم عن المهلكات، وهؤلاء مغرورون من وجهين: من حيث العمل والعلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، ومثلنا له بالمريض الذي تعلم الدواء.. فكذلك المتفقه المسكين، قد يسلط عليه الكبر والحسد وسائر المهلكات.. فترك ذلك واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار والحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه.. فيظن أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية؛ هذا لو كانت نيته صحيحة.

وأما غروره من حيث العلم، فحيث اقتصر على علم الفتاوى، وظنه أنه الدين، وترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وربما طعن في المحدثين أنهم نقلة أخبار، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق.

وسبب غروره: ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله، ليستشعر القلب الخوف، إذ قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1].

والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم.

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات. ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة وإفحام الخصوم، فغرور هؤلاء أقبح من غرور من قبلهم.

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان، ولا يصح إيمان إلا بتعلم جدلهم، وهم فرقتان: ضالة ومحقة.

والمحقة إنما اغترارها أنها ظنت الجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن، أو ليس كامل الإيمان؟!

ولم يلتفتوا إلى القرن الأول، وهم خير القرون، وأنهم لم يشتغلوا بذلك، وأن الرسول ﷺ ما جادلهم إلا بتلاوة القرآن.

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء..

وغرور هؤلاء أشد، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية العجب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة، إلا وهم محبون لله، وما وقعوا على خفايا عيوب الناس إلا وهم منزهون عنها.

فالمسكين، بهذه الظنون يرى أنه من المتوكلين على الله، وهو من المتكلمين على العزّ والجاه والمال، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين. فهو يخوف بالله تعالى وهو منه آمن، ويذكر بالله تعالى، وهو له ناس، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص.

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٢).

وهو يدعي حب الله، فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله؟ ويدعي الزهد، فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟

وإنما وقع الغرور لهؤلاء، من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني، وهو حب الله والخوف منه، ثم قدروا ـ مع ذلك ـ على وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك إلا لاتصافهم بها.

ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور.

● وفرقة أخرى: عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، واشتغلوا بالطامات والشطح، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، طلباً للإغراب.

فهؤلاء شياطين الإنس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

ومنهم من قنع بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، ويظن أن حفظه ذلك يكفيه.

● وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة، وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمّ أحدهم أن يدور في البلاد، ويرى الشيوخ، ليقول: رأيت فلاناً، ورويت عن فلان.

وغرورهم: أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة، فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم.

والذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وسالك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد ليعمل به طول عمره.

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم النحو واللغة وغريب اللغة، واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوامهما بعلم اللغة. فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو، وفي صناعة الشعر.

ومثالهم: كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف. ويزعم

أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، فلا بد من تعلمها، ولو عقل لعلم: أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ. والباقي زيادة على الكفاية.

فأما التعمق في اللغة إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه، ثم لو اقتصر عليه، وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها، فهذا أيضاً مغرور.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل:

والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد. ولم يخل إلا الأكياس وقليل ما هم.

● فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى السرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء.. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة.

ومنهم من غلب عليه الوسوسة في نية الصلاة.

ومنهم من تغلب عليه الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة.

● وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به، وقلبه يتردد في أودية الأماني، فلا يتفكر في معاني القرآن، ولا يتعظ بمواعظه.

فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله: مثال عبد كتب إليه مالكه ومولاه كتاباً، وأشار به عليه بالأوامر والنواهي. فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه وتكريرة. فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه.

نعم، تلاوته إنما تراد لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه.

● وفرقة أخرى: اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء.. ومع ذلك يظنون بأنفسهم الخير.

● وفرقة أخرى: اغتروا بالحج، فيخرجون إليه، من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، وطلب الزاد الحلال.. ومع ذلك يظنون أنهم على خير.

● وفرقة أخرى: أخذت في طريق الحسبة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير، وينسى نفسه.

● وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة، واغتروا ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم، ملتفتة إلى قول من يعرفه: إن فلاناً مجاور..

● وفرقة أخرى: زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدون، ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، ومع ذلك هو راغب في الرياسة والجاه.

فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين. فهذا مغرور، إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا، وهو لم يفهم معنى الدنيا، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة..

● وفرقة أخرى: حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يبادر في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «ما تقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1].

الصنف الثالث: المتصوفة:

وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة.

● ففرقة منهم: وهم متصوفة أهل الزمان ــ إلا من عصمه الله ــ اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فشاركوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم.. وفي الصلاة، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس. فلما تشبهوا بهم ظنوا أنهم أيضاً صوفية، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن.

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٠٢).

● وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة.. ولا تعرف إلا الطامات.. وهي تنظر إلى الفقهاء والمفسرين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام.. وتقول عن العباد إنهم أجراء متعبون، وعن العلماء إنهم بالحديث محجوبون عن الله، وتدعي لنفسها الوصول..

وهؤلاء عند الله من الفجار المنافقين.

● وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟! وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا واصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية..؟!

وكل ذلك أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم. ومن غير اقتداء بمن يقتدي به من أهل الدين والعلم.

● وفرقة أخرى: جاوزت حد هؤلاء، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل.. من غير وقوف على شروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعي الوجد.. وبعضهم يدعي التوكل، فيخوض البوادي من غير زاد، ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، وقد كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون.

● وفرقة أخرى: ادعوا حسن الخلق والتواضع، وإنما غرضهم التكبر وباعثهم الرياء والسمعة..

● وفرقة أخرى: اشتغلوا بتهذيب الأخلاق، وتطهير النفس من عيوبها، وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة. ومن أضاع عمره في التفتيش عن عيوب النفس، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج، ولم يسلك طريقه، فذلك لا يغنيه.

وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لا تحصى في مجلدات.

الصنف الرابع: أرباب الأموال:

● ففرقة منهم، يحرصون على بناء المساجد والمدارس.. وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها، ليخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال ربما اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها. فالواجب عليهم التوبة، وردها إلى ملاكها.

الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً، ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه، لشق عليه ذلك، ولم تسمح به نفسه.

● وفرقة منهم: ربما اكتسبت المال من الحلال، وأنفقت على المساجد، وهي مغرورة أيضاً من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في جواره فقراء، وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى، وإنما يخف عليهم الصرف في المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

الثاني: أنه يصرف إلى زخرفة المسجد، وهي شاغلة قلوب المصلين، والمقصود من الصلاة الخشوع ووبال ذلك كله يرجع إليه.

● وفرقة أخرى: ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء، ويطلبون المحافل الجامعة، ويكرهون التصدق في السر، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً.

جاء رجل يودع بشر بن الحارث (الحافي) وقال: قد عزمت على الحج، فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك، وتنفق ألفي

درهم، وتكـون على يقين من مرضـاة الله تعالى، أتفعـل؟ قال: نعم، قـال: اذهب فأعطهـا عشرة أنفس: مـديون يقضي دينـه، وفقير يـرم شعثه، ومعيـل يغني عيالـه، ومربـي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك أن تعطيها واحداً فافعل، فـإن إدخالـك السرور على قلب المسلم، وإغـاثة اللهفـان، وكشف الضر، وإعـانة الضعيف، أفضـل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقـل لنا مـا في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبـي. فتبسم بشر رحمه الله، وأقبـل عليه وقـال لـه: المال إذا جمـع من وسخ التجـارات والشبهـات، اقتضت النفس أن تقضي بـه وطراً، فأظهرت الأعمال الصـالحات، وقـد آلى الله على نفسه أن لا يقبـل إلا عمل المتقين.

● وفرقة أخرى: من أرباب الأمـوال، يمسكونهـا بحكم البخل، ثم يشتغلون بـالعبادات البـدنية، التي لا تحتـاج إلى النفقة، كصيـام النهار، وقيـام الليل، وختم القرآن.

وهم مغرورون، لأن البخل قد استولى على بـواطنهم، فهو يحتـاج إلى قمعه بإخراج المال، وقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها.

ولذلك قيـل لبشر: إن فـلاناً الغني كثيـر الصوم والصـلاة، فقال: المسكين، ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنمـا حال هـذا بإطعـام الطعـام للجياع، والإنفـاق على المساكين، فهذا أفضل من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا، ومنعه للفقراء.

● وفرقة أخرى: غلبهم البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الـزكاة فقط، ثم إنهم يـطلبون من الفقـراء من يخدمهم، ويتـردد عليهم. وكل ذلـك مفسـدات للنيـة محبطات للعمل، وصاحبه مغرور.

[الغرور بالسماع بغير عمل]:

وهنـاك قـوم من عـوام الخلق، وأربـاب الأمـوال والفقـراء، اغتـروا بحضـور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن

لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل، ودون الاتعاظ أجراً.

وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإذا لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها..

وربما تدخله من الوعظ رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم، أو نعوذ بالله، أو: سبحان الله. ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور.

وإنما مثاله: مثال الجائع الذي يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة ثم ينصرف، وذلك لا يغني عن جوعه شيئاً.

فكل وعظ لم يغير منك صفة.. فذلك الوعظ زيادة حجة عليك. فإذا رأيته وسيلة كنت مغروراً.

[سبيل التخلص من الغرور]:

فإن قلت: ما ذكرته من مداخل الغرور، أمر لا يتخلص منه أحد، وهذا يوجب اليأس، إذ لا يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الآفات.

فأقول: إن الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر، واستوعر الطريق.

وإذا صح منه الهوى، اهتدى إلى الحيل، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء، مع بعده منه، استنزله، وإذا أراد أن يستخرج الذهب والفضة من تحت الجبال استخرجه.. وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها، استخرجها بدقيق الهندسة، وهو مستقر على الأرض. كل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات.

كل ذلك لأن همه أمر دنياه، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد، وهو تقويم قلبه. وليس ذلك بمحال، فلم يعجز عنه السلف الصالحون، ومن اتبعهم بإحسان. فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته.

[النجاة من الغرور]:

فإن قلت: فبم ينجو العبد من الغرور.

فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة؟

ـ أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية، والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء. فأساس السعادات كلها العقل.

ـ وأما المعرفة: فأعني بها أربعة أمور: أن يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة.

فيعرف نفسه بالعبودية والذل، وبكونه غريباً في هذا العالم.

وما لم يعرف ربه فليستعن على ذلك بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكر، وكتاب الشكر، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله تعالى.

وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة.

فإذا عرف ذلك: ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة عليه صحت نيته في الأمور كلها.

ـ وأما العلم، وأعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق، وجميع ذلك أودعناه كتاب إحياء علوم الدين.

فيعرف من ربع العبادات، شروطها وآفاتها. ومن ربع العادات أسرار المعايش. ومن ربع المهلكات العقبات المانعة في طريق الله، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة.. فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور.

[قاعدة في الأولويات]:

الترتيب بين الأعمال الخيرة واجب، وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، فقد يتعين على الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى.

فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره. وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت.

وهذا، كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك»[1].

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج...

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج. وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه.

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه.

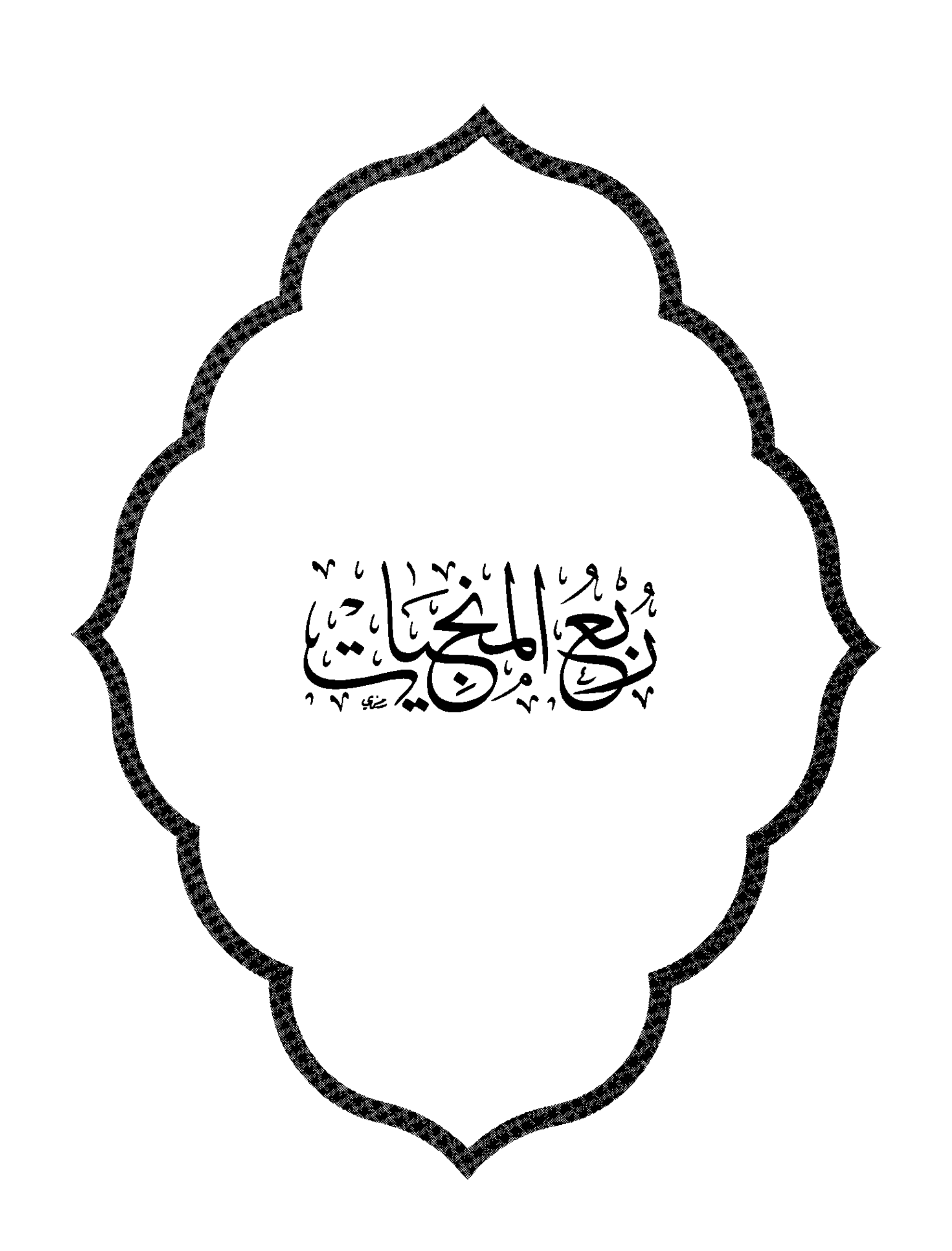
وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلـك، فـالنجاسـة محذورة وإيـذاؤهمـا محـذور، والحـذر من الإيـذاء أهم من الحـذر من النجاسة.

ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض. لأن المغرور فيه في طاعة، إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية، حيث تـرك بها طاعة واجبة هي أهم منها[1].



(١) أورد المصنف هذه القاعـدة عند التعليق على فـرقة من فـرق المغترين (٣/٤٠٣) وقـد ألح على المعنى الوارد فيها إلحاحاً كبيـراً خلال كتـاب الغرور، وهي من القـواعد المهمـة التي ينبغي مراعاتها.




ربع المنجيات





الكِتَابُ ٱلأَوَّلُ

التَّوْبَة

رُبعُ المنجيات



التوبة عن الذنوب، بالرجوع إلى ستار العيوب، وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، وأول أقدام المريدين.

والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرد للخير مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان.

ولما كانت التوبة لها من الدين هذا الموقع، وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات، ويتم بحثها في أربعة أركان:

الركن الأول: في نفس التوبة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة، وهو الذنوب.

الركن الثالث: في بيان شروطها.

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة.

الركن الأول

في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة:

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى، ينتظم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. وكل واحد يقتضي الذي يليه، اطراد سنّة الله في ملكه.

أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب.

فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه ــ بسبب فعله المفوت لمحبوبه ــ ندماً.

فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى: إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق: بالحال والماضي وبالاستقبال:

ــ أما تعلقه بالحال، فبالترك للذنب الذي كان ملابساً.

ــ وأما بالاستقبال، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر.

ــ وأما بالماضي، فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم والندم والقصد ــ المتعلق بالترك في الحال والاستقبال، والتلافي للماضي ــ ثلاثة معانٍ مرتبة في الحصول. فيطلق اسم التوبة على مجموعها.

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، وبهذا الاعتبار قال ﷺ:

«الندم توبة»[1].

بيان وجوب التوبة وفضلها:

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار[2] والآيات.

وهو واضح بنور البصيرة عند من شرح الله بنور الإيمان صدره، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلاَّ في لقاء الله تعالى. وعلم أن لا مبعد عن لقاء الله إلاَّ اتباع الشهوات، والأنس بهذا العالم الفاني، وعلم أن الذنوب ـ التي هي إعراض عن الله ـ سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى، فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب.

وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، وما لم يعلم أن الذنوب سبب البعد لم يندم ولم يتوجع، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فهذه المعاني ضرورية في الوصول إلى المحبوب.

قال الله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

وهذا أمر على العموم.

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[4].

ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى، خالياً عن الشوائب، مأخوذ من النصح.

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس، وقال صحيح على شرط الشيخين (ع).

(٢) من الأخبار الدالة على وجوب التوبة ما أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢) من قوله ﷺ: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة» (ع).

(٣) سورة النور: الآية (٣١).

(٤) سورة التحريم: الآية (٨).

ويدل على فضل التوبة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

وقال ﷺ: «لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِّيَّة[2] مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده، عليها زاده وشرابه، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»[3].

والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى. وهذا داخل في وجوب الإيمان.

وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه، إذ كون معرفة المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[4].

وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى صفات الله ووحدانيته.. فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت.

كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله، يقال: تناول وهو غير مؤمن، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيباً، وغير مصدق به، بل

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٢٢).

(٢) هي الأرض القفر والفلاة الخالية، وهي بفتح الدال وتشديد الواو والياء جميعاً.

(٣) متفق عليه (خ ٦٣٠٨، م ٢٧٤٤).

(٤) متفق عليه (خ ٥٥٧٨، م ٥٧).

المراد: أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك، فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان.

وليس الإيمان باباً واحداً، بل هو نيف وسبعون باباً، أعلاها شهادة أن لا إلّه إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[1].

فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للبدن، لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير المزاج، وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد فيمرض دفعة، ثم يموت دفعة. فكذلك المعاصي وسوء الخاتمة.

واعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال، إذ قال تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

فعمم الخطاب.

ونور البصيرة يرشد إليه أيضاً، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، وكمال العقل يقتضي ذلك.

وبيان وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال، هو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخلُ عنه الأنبياء، كما ورد في القرآن والأخبار، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح، فلا يخلو عن الهمّ بالذنوب بالقلب، فإن خلا في بعض الأحوال عن الهمّ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان، بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله.. وكل ذلك نقص وله أسباب.

ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه، ولهذا قال ﷺ: «إنه ليغان[3] على قلبي حتى

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٥)، بلفظ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إلّه إلّا الله..».

(٢) سورة النور: الآية (٣١).

(٣) الغين والغيم بمعنى واحد، قال القاضي: قيل المراد: الفترات عن الذكر.

أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[1] ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[2].

وإذا كان هذا حاله، فكيف حال غيره؟

واعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى.

وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه، كما يرتفع عن نَفَس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً، كما يصير بخار النَفَس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً. كما قال تعالى:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

فلا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»[4].

فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.

وذلك واجب على الفور، حتى لا يكون في معنى قوله تعالى:

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[5].

وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾[6].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٢).

(٢) سورة الفتح: الآية (٢).

(٣) سورة المطففين: الآية (١٤).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (ع).

(٥) سورة سبأ: الآية (٥٤).

(٦) سورة المنافقون: الآية (١١).

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾(1).

والقرب المذكور في الآية معناه: قرب عهد بالخطيئة..

بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة:

إن كل توبة استجمعت شرائطها فهي مقبولة، ذلك أن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما أنه لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار.

وإنما عليك التزكية والتطهير، وأما القبول فمبذول، قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مردَّ له، وهو المسمى فلاحاً في قوله تعالى:

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾(2).

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول.

فهذا البيان كافٍ عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنّا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار، فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنّة لا يوثق به. وقد قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(3).

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾(4).

---

(1) سورة النساء: الآيتان (17 ــ 18).

(2) سورة الشمس: الآية (9).

(3) سورة الشورى: الآية (25).

(4) سورة غافر: الآية (3).

إلى غير ذلك من الآيات.

وقال ﷺ: «لله أفرح بتوبة أحدكم..» الحديث[1] والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة.

وقال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلّ يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[2]، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، والطالب وراء القابل.

وقال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى:

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾[3].

في الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

***

(١) متفق عليه (خ ٦٣٠٨، م ٢٧٤٤) وقد سبق بتمامه قريباً.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٩)، وذكره المصنف بلفظ قريب وأثبتُّ لفظ مسلم.

(٣) سورة الإسراء: الآية (٢٥).

الركن الثاني

في الذنوب

اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلاَّ بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة، فمعرفة الذنوب إذن واجبة.

والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى، من ترك أو فعل.

أقسام الذنوب بالنسبة إلى العبد:

اعلم أن الذنوب تقسم إلى:

- ما بين العبد وبين الله تعالى.
- ما يتعلق بحقوق العباد.

أما ما يتعلق بالعبد بينه وبين الله تعالى خاصة، كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وكل ما لم يكن شركاً، فالعفو فيه أرجى وأقرب.

وما يتعلق بحقوق العباد ـ كتركه الزكاة، وقتله النفس، وغصبه الأموال، وشتمه الأعراض، وكل متناول من حق الغير، من نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، والدعاء إلى البدعة، والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى، كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف، فالأمر فيه أغلظ.

انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر:

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف.

إذ قال تعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[2].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»[3].

وقال ﷺ: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[4].

واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر، فقال ابن مسعود: هن أربع، وقال ابن عمر: هن سبع، وقال ابن عباس ـ وقد بلغه قول ابن عمر ـ: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال بعض السلف: كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة.

وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر وغيرهم:

أربع في القلب وهي: الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره.

وأربع في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس

---

(١) سورة النساء: الآية (٣١).

(٢) سورة النجم: الآية (٣٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٣٣).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٨٧).

ـ وهي التي يحق بها باطلاً، أو يبطل بها حقاً، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ـ والسحر.

وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم.

واثنتان في الفرج، وهما: الزنا واللواط.

واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة.

وواحدة في الرجلين وهي: الفرار من الزحف، الواحد من اثنين.

وواحدة في جميع الجسد وهي: عقوق الوالدين.

هذا ما قاله أبو طالب المكي، وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه. قال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر»[1].

وكشف الغطاء عن هذا: أن الكبيرة من حيث اللفظ «مبهم» ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلّا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه.

والحق أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه، فلا يدرى حكمه؟

والطمع في حد حاصر، أو عدد جامع مانع، طلب لما لا يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلّا بالسماع من رسول الله ﷺ، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟

وربما قصد الشرع إبهامه، ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر، ليعظم جد الناس في طلبها.

---

(١) أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال: «من الموبقات» بدل الكبائر، ورواه البخاري من حديث أنس، وأحمد والحاكم من حديث عبادة وقال: صحيح الإسناد (ع).

الدرجات والدركات في الآخرة:

إن توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا، لا يمكن أن يفهم إلاَّ بمثال، فلنفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول:

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً، وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر، كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى أصلاً، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له، وسنته الأزلية مطردة، إلاَّ أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس. فنقول:

الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين.

ومثاله في الدنيا: أن يستولي ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي عن بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون. فإن كان الملك عادلاً، لم يقسمهم كذلك إلاَّ باستحقاق، فلا يقتل إلاَّ جاحداً معانداً له في أصل الدولة، ولا يعذب إلاَّ من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلوّ درجته، ولا يخلي إلاَّ معترفاً له برتبة الملك ولم يقصر، ولا يخلع إلاَّ على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة.

ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بحز الرقبة، أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها بحسب درجات تقصيرهم. فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر.

فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون:

الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين، ونعني بهم: الآيسين من رحمة الله

تعـالى، وهذه الـدرجة لا تكـون إلاَّ للجاحـدين والمعـرضين، المتجـردين للدنيـا، المكذبين بالله ورسله وكتبه.

والسعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه، وذلـك لا ينال أصـلاً إلاَّ بـالمعرفـة التي يعبر عنهـا بـالإيمـان والتصـديق، والجـاحـدون هم المنكـرون، والمكـذبون هم الآيسـون من رحمـة الله تعـالى أبـد الآبـاد، إنهم عن ربهم يـومئـذٍ لمحجوبون لا محـالة. وكـل محجوب محـول بينه وبين مـا يشتهيه لا محـالة، فهـو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم.

فرتبة الهـلاك هذه ليست إلاَّ للجهـال المكذبين، وشهـادة ذلك من كتـاب الله وسنَّة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر، فلذلك لم نوردها.

الـرتبة الثـانية: وهي رتبـة المعذبين، وهي رتبـة من تحلّى بأصـل الإيمـان، ولكن قصر بالوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يعبد إلاَّ الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلّهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك: «لا إلّه إلاَّ الله»، معنى قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾(١).

ولما كان التوحيد لا يكمل إلاَّ بالاستقامة على الصراط، وهو أدق من الشعـرة وأحد من السيف مثل الصـراط الموصـوف في الآخرة، فـلا ينفك بشـر عن ميل عن الاستقـامة ولـو في أمر يسيـر، إذ لا يخلو عن اتباع الهـوى. وذلك قـادح في كمـال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم. فذلك يقتضي نقصاناً في درجات القرب. ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بـالنقصان، ونـار جهنم كما وصفها القرآن.

فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبـاً مرتين من وجهين، ولكن شـدة ذلـك العذاب وخفتـه، وتفـاوتـه بحسب طـول المـدة، إنمـا يكـون بسبب أمـرين: أحدهما: قوة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٣٠).

ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنّا تيقنّا أنّا على النار واردون، وشككنا في النجاة.

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[١].

وأما اختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، وهذه الاختلافات ثابتة دلت عليها قواطع الشرع، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح، إذ قال ﷺ فيما أخبر عن الله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»[٢].

فإذن: هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواعد الشرع. فأما التفصيل فلا يعرف إلاَّ ظناً ومستنده ظواهر الأخبار.

وفي الحديث: «آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف»[٣]. ولا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام؛ كأن يقابل فرسخ بفرسخين، فإن هذا جهل لطريق ضرب الأمثال. بل هذا كقول القائل: أخدمته جملاً وأعطاه عشرة أمثاله. وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار، فإن لم يفهم من المثل إلاَّ المثل بالوزن فلا تكون مائة دينار عشر عشير الجمل. بل المقصود موازنة معاني الأجسام..

فهذا حكم من يخرج من النار، ولا يخرج من النار إلاَّ موحد.

وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد.

الرتبة الثالثة: رتبة الناجين، وأعني بالنجاة السلامة فقط، دون السعادة

---

(١) سورة مريم: الأيتان (٧١ ــ ٧٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥١).

(٣) متفق عليه (خ ٦٥٧١، م ١٨٦).

والفوز. وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين، والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد.. فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون منزلة بين المنزلتين، عبَّر الشرع عنها بالأعراف. وحلول طائفة من الخلق فيها معلوم يقيناً من الآيات[1]. فأما الحكم على العين، كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن.

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين، وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقربون والسابقون، وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان. وهو الذي أجمله قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2].

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. فكبيرة واحدة تنصرم، ولا يتبعها مثلها، يكون العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها.

ومثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[3]، فالنافع من العمل هو الدائم وإن قلَّ، والكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب.

---

(١) ورد ذلك في سورة الأعراف في الآيتين (٤٦ و٤٨)، ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال..﴾ ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾.

(٢) سورة السجدة: الآية (١٧).

(٣) متفق عليه (خ ٤٣، م ٧٨٢).

ومنها: أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه، صغر عند الله تعالى، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به.

واستصغاره يصدر عن الإلف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب.

وقد جاء في الخبر: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرَّ على أنفه فأطاره»[1].

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصاه، رأى الصغيرة كبيرة. وفي حديث أنس «إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[2]. إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر.

وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد، كبر أثرها في تسويد قلبه، حتى إن بعض المذنبين يمتدح بذنبه، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه، وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، ويكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله. كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح، ورواه البخاري من حديث أنس (ع).

(٣) سورة المجادلة: الآية (٨).

ومنها: أن يأتي الـذنب ويظهـره، بأن يـذكره بعـد إتيانـه، أو يأتيـه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليـه. وفي الخبر: «كـل الناس معافى إلّا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليـه، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه»[1].

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منـه كبر ذنبه، كلبس الحريـر، وأخذه مـال الشبهة من أمـوال السلاطين، ودخـوله عليهم.. فقد يموت ويبقى شره مستطيراً، فطوبـى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه.

وفي الخبر: «من سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرهـا، ووزر من عمل بهـا، لا ينقص من أوزارهم شيء»[2].

قال تعالى:

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾[3].

والآثار، ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل.

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر، فعليهم وظيفتان: ترك الذنب، وإخفاؤه.



(١) متفق عليه (خ ٦٠٦٩، م ٢٩٩٠).
(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠١٧).
(٣) سورة يس: الآية (١٢).

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها

تمام التوبة وشروطها:

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم.

ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام. ولتمامها علامة، ولدوامها شرط فلا بد من بيانها[1].

أما العلم، فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي.

وأما الندم: فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته: طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر. وألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى.

ومن علامته: أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه، بدلاً من حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة.

فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل.

وأما القصد: الذي ينبعث منه، وهو إرادة التدارك:

ـ فله تعلق بالحال: وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال.

---

(١) سبق للمصنف أن بيّن أن أركان التوبة أربعة هي: العلم، والندم، والعزم، والقصد.

ـ وله تعلق بالماضي: وهو تدارك ما فرط.

ـ وبالمستقبل، وهو دوام الطاعة، ودوام ترك المعصية إلى الموت.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي: أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً، وينظر إلى الطاعات: ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي: ما الذي قارفه منها؟ فيتدارك ما فاته من الطاعات، ويقابل المعاصي بالحسنات.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال، فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً، ويعاهده عهداً وثيقاً، أن لا يعود إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها.

أقسام العباد في دوام التوبة:

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي، ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلَّا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات.

فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبها هو السابق في الخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات. واسم هذه التوبة: التوبة النصوح، واسم هذه النفس الساكنة: «النفس المطمئنة»، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات، وترك كبائر الفواحش كلها، إلَّا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وقصد، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه، وندم وتأسف، وجدد عزمه على الاحتراز عن أسبابها التي تعرضه لها.

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي «النفس اللوامة»، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وقصد.

وهذه أيضاً رتبة عالية، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال

التائبين، فالغاية أن يغلب خيره شره، حتى ترجح كفة الحسنات، أما أن تخلو كفة السيئات بالكلية فذلك في غاية البعد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى، إذ قال:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾(2).

فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه.

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين.

الطبقة الثالثة: أن يتوب، ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب، فيقدم عليها عن قصد، لعجزه عن قهر شهوته، إلَّا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك جملة من الذنوب، مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يودُّ لو أقدره الله على قمعها، وكفاه شرها.

هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة، وعند الفراغ يتندم، ويقول: ليتني لم أفعله، وسأتوب عنه وأجاهد نفسي، لكنه يسوف توبته مرة بعد أخرى..

فهذه النفس، هي التي تسمى: «النفس المسوّلة» وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾(3).

---

(1) سورة النجم: الآية (٣٢).
(2) سورة آل عمران: الآية (١٣٥).
(3) سورة التوبة: الآية (١٠٢).

فأمره من حيث مواظبته على الطاعات، وكراهته لما تعاطاه مرجوّ، فعسى الله أن يتوب عليه.

وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة، فيخشى عليه في الخاتمة.

الطبقة الرابعة: أن يتوب، ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب، من غير أن يحدِّث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من جملة المصرِّين، وهذه النفس هي: «النفس الأمّارة بالسوء» الفرارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة، وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات مات على التوحيد، فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين.

ما يفعله التائب بعد الذنب:

ينبغي على المذنب أن يبادر بالتوبة والندم، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

فالحسنات المكفرة للسيئات، إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة، وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب: فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو.

وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول: رب ظلمت نفسي، وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي.

وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات.

والمقصود أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

الثانية: نيل الدرجات.

وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة.

والاستغفار بالقلب ليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجوده كعدمه، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾[1]:

صدق، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال.

فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وذرات المعاصي فلا تتقيها.

فإذن: التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً، بل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة، خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت.

قال بعض الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

قال: كان لنا أمانان، ذهب أحدهما، وهو كون الرسول فينا، وبقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا[3].



(١) سورة الزلزلة: الآية (٧).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

(٣) أخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري، ورفعه الترمذي من حديثه (ع).

الركن الرابع

دَوَاءِ ٱلتَّوبَةِ وَعِلاجِ ٱلإِصْرَار

[وصف المرض على الجملة]:

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلاَّ بالدواء، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلاَّ مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلاَّ بضده.

ولا سبب للإصرار إلاَّ الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلاَّ العلم، ولا يضاد الشهوة إلاَّ الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة.

فهذا الدواء له أصلان: العلم والصبر ولا بد من بيانهما[1].

والعلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب، ولكن لكل مرض علم يخصه، وكذلك دواء الإصرار.

[الطبيب وكيفية المعالجة]:

والعلماء هم الأطباء، وإذا كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه، فالرجاء والخوف دواءان، ولكن لشخصين متضادي العلة.

أما الذي غلب عليه الخوف، حتى هجر الدنيا بالكلية، وكلف نفسه ما لا تطيق، وضيق العيش على نفسه بالكلية، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة

---

(١) اقتصر المصنف في هذا الركن على بحث جانب العلم، وأحال في موضوع الصبر إلى الكتاب الذي يلي هذا الكتاب.

الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت، يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب.

فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء، فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء، وذلك دأب الجهال والأغبياء، فإن فساد الأطباء هي المعضلة التي لا تقبل الدواء أصلاً.

والأنواع النافعة في حل عقد الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب أربعة:

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين، وهي كثيرة لا تحصى.

الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالح، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع، ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل عصيان آدم عليه السلام، وما لقيه من الإخراج من الجنة..

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر، ولم يرِدْ بها القرآن للسمر، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار، لتعلم أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ لم يتجاوَزْ عنهم في الذنوب الصغار، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟

الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فربَّ عبدٍ يتساهل في أمر الآخرة، ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به، فإن الذنوب يتعجل شؤمها في الدنيا في غالب الأمر.

الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كالخمر، والزنا، والسرقة، والكبر والحسد..

وينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق، فذكر الأمر في غير أهله، وضع للدواء في غير موضعه، فيستدل أولاً بالنبض والسحنة، ووجود الحركات على العلل الباطنة، ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات.

وليقتد برسول الله ﷺ حيث قال له رجل: أوصني يا رسول الله ولا تكثر، فقال له: «لا تغضب»(١)، وقال له آخر: أوصني، فقال له: «عليك باليأس مما في أيـدي الناس، فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مـودع، وإياك وما يعتـذر منه»(٢)، فكـأنه ﷺ تـوسم في السائـل الأول مخايـل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل.

فإذاً: على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفـة إلى تفرس الصفـات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة، ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كـل واحد غيـر ممكنة، والاشتغـال بوعـظه بما هـو مستغن عن التوعظ فيـه تضييـع زمان.

[كثرة مرضى القلوب]:

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

الأولى: أن المريض به لا يدري أنه مريض.

الثانية: أن عـاقبته غيـر مشاهـدة في هذا العـالم بخلاف مـرض البدن، فـإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غيـر مشاهـد، وعاقبـة الذنـوب موت القلب، وهو غير مشاهد في هذا العالم، فقلَّت النفرة عن الذنوب وإن علمهـا مـرتكبها. فلذلـك تراه يتكـل على فضل الله في مـرض القلب، ويجتهد في عـلاج مرض البدن من غير اتكال.

الثالثة: وهي الداء العضال، وهي فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً، عجـزوا عن علاجـه، وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضـطروا إلى إغواء الخلق والإشـارة عليهم بما يزيـدهم مرضـاً، لأن الداء المهلك هـو حب الدنيـا، وقد غلب هـذا الداء على

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم (ع).

الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق، خوفاً من أن يقال لهم: ما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟

بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا، وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا.

فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم إلاَّ ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، وذلك بتغليب الرجاء وذكر دلائل الرحمة، فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ، وقد استفادوا جراءة على المعاصي، ومزيد ثقة بفضل الله تعالى؟!

[أسباب الإصرار على الذنب وعلاجه]:

اعلم أن الوقوع في الذنب لا يكون لفقد الإيمان، بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى، وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:

الأول: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة، وهي في الحال آخذة بالمخنق، وقد قوي ذلك، واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف. وترك العاجل لخوف الآجل شديد على النفس. ولذلك قال تعالى:

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾[1].

وقد عبَّر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

فإذاً: كون الشهوة مرهقة في الحال، وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان.

---

(١) سورة القيامة: الآية (٢٠).

(٢) متفق عليه (خ ٦٤٨٧، م ٢٨٢٢).

فليس كل من يشرب الماء المثلج في مرضه لشدة عطشه مكذباً بأصل الطب، ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه، ولكن الشهوة تغلبه، وألم الصبر عنه ناجز، فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن، إلَّا ـ وهو في الغالب ـ عازم على التوبة، وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وُعِدَ بأن ذلك يجبره، إلَّا أن طول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوِّف التوبة والتكفير.

الرابع: أنه ما من مؤمن إلَّا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب، وينتظر العفو اتكالاً على فضل الله تعالى.

فهذه أربعة أسباب موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

فإن قلت: فما العلاج؟

فأقول: هو الفكر. وذلك بأن يقرر على نفسه:

ـ في السبب الأول ـ وهو تأخر العقاب ـ أن كل ما هو آتٍ آت، وأن غداً للناظرين قريب، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله، فما يدريه لعل الساعة قريب؟! ويذكر نفسه: أنه دائماً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال. فيركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح، الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال..

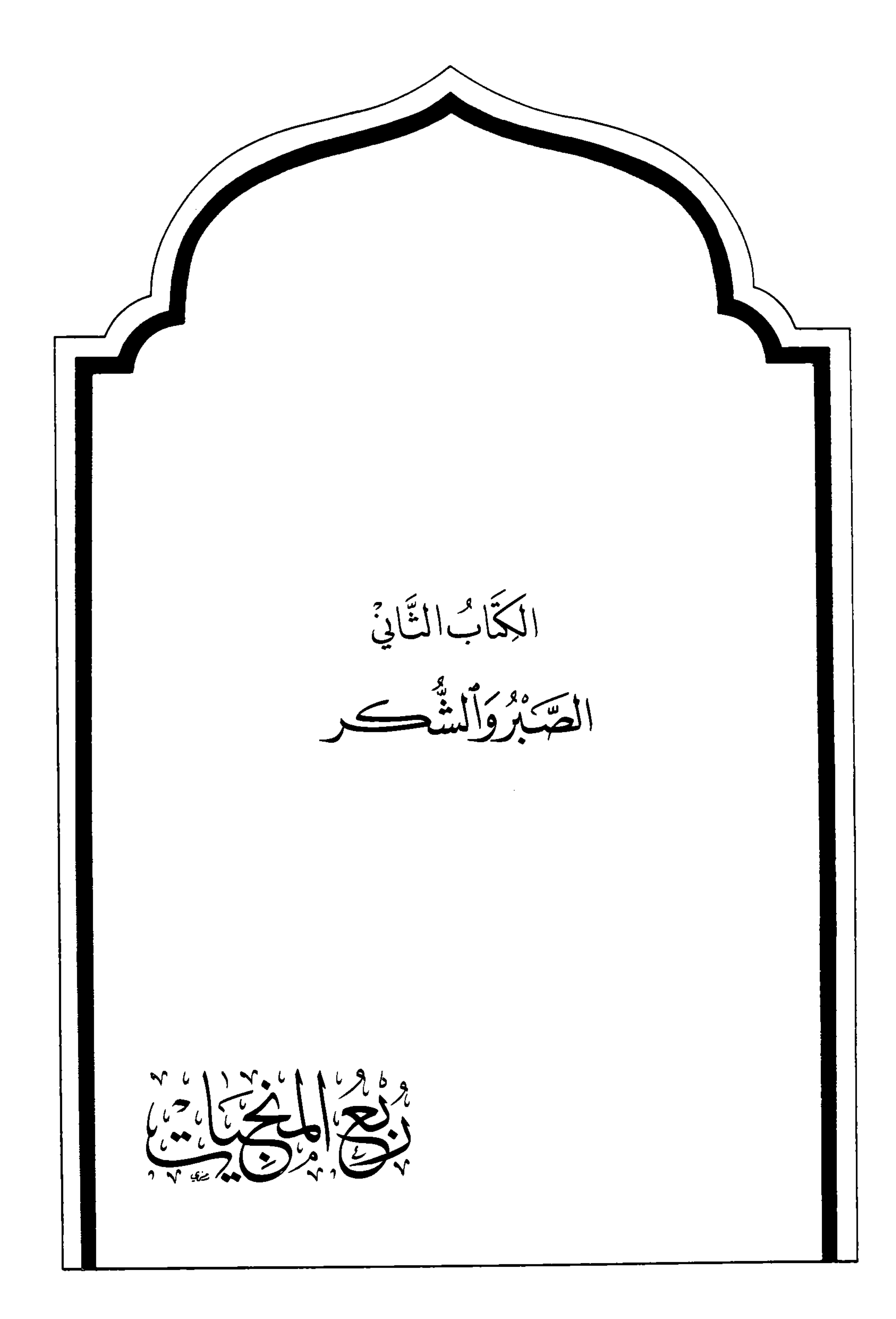
ـ وبهذا التفكير يعالج اللذة الغالبة عليه، ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر، وهي أيام قلائل، فكيف أقدر عليه أبد الآباد؟!

ـ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف.

ـ وأما المعنى الرابع، وهو انتظار عفو الله تعالى، فهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فمنتظر هذا منتظر لأمر ممكن، ولكنه في غاية الحماقة والجهل.

***





الكِتَابُ الثَّانِي

الصَّبْرُ وَالشُّكْر

رُبعُ المُنجِيَات



الفصل الأول

في الصبر

فضيلة الصبر:

وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له.

فقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾(1).

وقال تعالى:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾(3).

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(4).

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من

---

(1) سورة السجدة: الآية (٢٤).

(2) سورة النحل: الآية (٩٦).

(3) سورة القصص: الآية (٥٤).

(4) سورة الزمر: الآية (١٠).

الصبر، قال الله تعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1] فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى:

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[3].

حقيقة الصبر ومعناه:

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين.

والصبر خاصية الإنس، ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما الملائكة فلكمالها، وأما البهائم فلنقصانها.

فالصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر، قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما.

فلنسمِّ هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً.

ولنسمِّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى.

وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين..

فالصبر: عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة، فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها، التحق بأتباع الشياطين.

---

(١) متفق عليه (خ ٧٤٩٢، م ١٦٤ من كتاب الصيام).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٤٦).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٥٧).

فترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر. وهو ثبات الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة.

وثبات باعث الدين، حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة.

أسماء الصبر بحسب متعلقاتها:

اعلم أن الصبر ضربان:

الأول: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو:

- إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات ومن غيرها.
- وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد، والمرض العظيم..

الثاني: نفسي، وهو المحمود، وهو الصبر عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم ــ هذا الضرب النفسي ــ إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان في مصيبة اقتصر على اسم «الصبر»..

وإن كان في احتمال الغنى، سمي ضبط النفس، ويضاده البطر.

وإن كان في حرب سمي: شجاعة، ويضاده الجبن.

وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي: حلماً، ويضاده: التذمر.

فهذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها.

أقسام الصبر:

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن يقهر داعي الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة. ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعندها يقال: من صبر ظفر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون، فلا جرم هم المقربون:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[1].

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى، وتسقط منازعة باعث الدين بالكلية، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم..

وهذه الحالة علامتها: اليأس والقنوط والغرور بالأماني، وهو غاية الحمق.

الحالة الثالثة: أن تكون الحرب سجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين، لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين:

﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[2].

هذا التقسيم باعتبار القوة والضعف.

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى:

ـ ما يشق على النفس، فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد، وتعب شديد، ويسمى ذلك «تصبراً».

ـ وما يكون من غير شدة تعب، بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويخص ذلك باسم «الصبر».

ومثاله: قدرة المصارع على غيره، فإن القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى جهد وأيسره، ولا يقوى أن يصرع القوي إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين.

واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى: فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور، كمن يقصد حريمه بسوء، فإن لم تهج غيرته وسكت، فهذا الصبر محرم.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٣٠).

(٢) سورة التوبة: الآية (١٠٢).

بيان مظان الحاجة إلى الصبر:

اعلم أن جميع ما يلقاه العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

أحدهما: هو الذي يوافق هواه.

الثاني: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه.

وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما. فهو إذن لا يستغني عن الصبر قط.

النوع الأول: ما يوافق الهوى، وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة، واتساع الأسباب، وكثرة الأنصار، وجميع ملاذ الدنيا.

وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها، والانهماك في ملاذها المباحة، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان. فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها: أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، ويرعى حقوق الله في سائر ما أنعم به عليه..

وإنما كان الصبر في السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة، فالجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع، وهو ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: ما يرتبط باختيار العبد من الطاعات والمعاصي.

أما الصبر على الطاعات فإنه شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية، وهي شاقة عليها، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره

بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

وأما المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى:

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾[1].

والصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة هو أشد أنواع الصبر.

فالعادة والشهوة جندان من جنود الشيطان قد لا يقوى باعث الدين على قمعهما، ثم إن كان ذلك الفعل مما يسهل فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها، وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة، ولا يمكن الصبر عليه أصلاً إلا أن يغلب على القلب همٌّ آخر.

● القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختيار العبد، وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول، أو جني عليه في نفسه أو ماله.

فالصبر على ذلك بترك المكافأة، تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة.

قال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[2].

(١) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٢) سورة المزمل: الآية (١٠).

وقال تعالى:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(١).

أي تصبروا عن المكافأة.

ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢).

وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الشهوة والغضب جميعاً.

● القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار، كالمصائب، مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض، وفساد الأعضاء، وبالجملة سائر أنواع البلاء.

فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض، وصبر عن محارم الله تعالى، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

وإنما تنال درجة الصبر في المصائب، إذا لم يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في إظهار الشكوى والكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنبها، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٦).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٦).

روي عن الرميصاء أم سليم[1] رحمها الله أنها قالت: توفي لي ابن، وزوجي أبو طلحة غائب، فقمت فسجيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة، فقمت فهيأت له إفطاره، فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنّه، فإنه منذ اشتكى لم يكن بأسكن منه الليلة. ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك، حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى، وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»[2]. قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأ القرآن.

ولا يخرجه عن حد الصابرين: توجع القلب، ولا فيضان العين بالدمع، فإن ذلك مقتضى البشرية، ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي ﷺ فاضت عيناه، فقيل له في ذلك، فقال: «هذه رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[3].

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات: أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، حتى إن الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهراً وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً.

دواء الصبر وما يستعان به عليه:

قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن

---

(١) أم سليم بنت ملحان الأنصارية، تزوجت مالك بن النضر في الجاهلية، فولدت أنس بن مالك الذي خدم النبي ﷺ، أسلمت مع السابقين، فغضب زوجها وفارقها إلى الشام ومات فيها، ثم تزوجت أبا طلحة.

(٢) القصة بطولها أخرجها الشيخان (خ ٥٤٧٠، م ٢١٤٤).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٠٣، م ٩٢٦).

تكون له اليد العليا، وتضعيف الآخر. فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: الأغذية التي هي مادة قوة الشهوة، فلا بد من قطعها بالصوم، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه.

الثاني: قطع الأسباب المهيجة للشهوة في الحال. وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن الشهوات والفرار منها بالكلية.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه. فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر.

وأما تقوية باعث الدين، فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة، وثمراتها في الدين والدنيا.

الثاني: أن يعوِّد باعث الدين مصارعة باعث الهوى تدريجياً قليلاً قليلاً. . فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر.



الفصل الثاني

في الشكر

وله ثلاثة أركان:

الأول: في الشكر وحقيقته.

الثاني: في النعمة وأقسامها.

الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول: في نفس الشكر

فضيلة الشكر:

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه فقال تعالى:

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3].

(١) سورة البقرة: الآية (١٥٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١٤٧).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤٥).

وقال تعالى:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر فقال:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

ولعلو رتبة الشكر طعن إبليس في الخلق فقال:

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[3].

وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[4].

حقيقة الشكر:

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو ينتظم من: علم، وحال، وعمل.

فأما العلم: فهو معرفة النعمة من المنعِم.

والحال: هو الفرح الحاصل بإنعامه.

والعمل: هو القيام بما هو مقصود المنعم، وهو العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح. ولا بد من جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر.

- أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق.

- وأما باللسان: فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه.

---

(1) سورة سبأ: الآية (١٣).

(2) سورة إبراهيم: الآية (٧).

(3) سورة الأعراف: الآية (١٧).

(4) سورة الزمر: الآية (٧٤).

ـ وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه.

والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى من جملة الشكر.

وكل عبد سئل عن حاله، فهو بين أن يشكر، أو يشكو، أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء؟ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء، وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو القادر على إزالة البلاء، وذل العبد لمولاه عز، والشكوى إلى غيره ذل.

بيان الشكر في حق الله تعالى:

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلاَّ بمعرفة ما يحبه الله تعالى وما يكرهه، إذ معنى الشكر: استعمال نعمه تعالى في محابّه، ومعنى الكفر: نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات والأخبار. ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد. فمن لم يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً.

والثاني: بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار. وهو مدرك عسير، وهو لأجل ذلك عزيز.

وهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلاَّ وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب.

وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية:

أما الجلية: فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس، أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً، فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كل الحكم فيها، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة.

وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق، دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه، إذ قال تعالى:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا﴾(١).

وأما الخفية: فكالحكمة في سائر الكواكب السيارة والثابتة، فهذه لا يطلع عليها كافة الخلق. والقدر الذي يحتمله فهمهم أنها زينة للسماء، لتستلذ بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾(٢).

فجميع أجزاء العالم، سماؤه وكواكبه، وبحاره وجباله، ومعادنه ونباته، وحيواناته وأعضاء حيواناته، لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة..

وكذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش.. وأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والكبد.. فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون إلاَّ قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى.

فإذن: كل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها، أو على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى.

فمن ضرب غيره بيده، فقد كفر نعمة اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه، ويأخذ ما ينفعه، لا ليهلك بها غيره.

---

(١) سورة عبس: الآيات (٢٥ ــ ٢٨).

(٢) سورة الصافات: الآية (٦).

ومن نظر إلى وجه غير المَحْرم، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس، إذ بهما يتم الإبصار. وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بهما ما يضره فيهما. فقد استعملهما في غير ما أريدتا به.

ولو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله لك اليدين، وجعل عمل اليمنى شريفاً كأخذ المصحف، وعمل اليسرى خسيساً كإزالة النجاسة، فإذا أزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فظلمته وعدلت عن العدل..

وحاصل الكلام: أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران.

وبالجملة، فمن فهم حكمة الله تعالى في الأشياء قدر على القيام بوظيفة الشكر.

الركن الثاني: ما عليه الشكر
(وهو النعمة)

حقيقة النعمة:

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة. ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية.

وتسمية ما سواها نعمة وسعادة، إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة، فإن ذلك غلط محض.

وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها، إما بواسطة

واحدة، أو بوسائط فإن تسميته نعمة صدق، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية.

ونشرح اللذات المسماة نعمة، فنقول:

● إن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى:

ــ ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً: كالعلم وحسن الخلق، وهو نعمة تحقيقاً.

ــ وما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق، وهو بلاء تحقيقاً.

ــ وما ينفع في الحال ويضر في المآل، كالتلذذ باتباع الشهوات، وهو بلاء محض.

ــ وما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل، كقمع الشهوات ومخالفة النفس وهو نعمة عند ذوي الألباب.

● وفي قسمة أخرى نقول: النعمة يعبر بها عن كل لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها، أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع:

ــ عقلية.

ــ وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات.

ــ وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات.

أما العقلية، فكلذة العلم والحكمة، إذ ليس يستلذها السمع والبصر، وإنما يستلذها القلب، وهذه أقل اللذات وجوداً، وهي أشرفها. وأما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلاَّ العالم، والحكمة لا يستلذها إلاَّ الحكيم. وأما شرفها، فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا، ولا في الآخرة. ودائمة لا تمل.

وما يشارك فيها الإنسان بعض الحيوانات، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر.

وما يشارك فيها سائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج. وهذه أكثرها وجوداً، وهي أخسها.

السبب الصارف للخلق عن الشكر :

اعلم أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلاَّ بالجهل والغفلة، فإنهم منعوا بهما عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلاَّ بعد معرفتها.

ثم إنهم إن عرفوا نعمة، ظنوا أن الشكر عليها، أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر: أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عزَّ وجلّ.

فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين ـ معرفة النعمة، ومعرفة معنى الشكر عليها ـ إلاَّ غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها: أن الناس ـ بجهلهم ـ لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة من النعم لأنها عامة مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منها اختصاصاً فلا يعدها نعمة.

فتراهم لا يشكرون الله على الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنه ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء، ماتوا غماً، فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك، ثم نجا، ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها.

وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها. فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلاَّ عند فقده لو أعيد عليه بصره..

ولما كانت رحمة الله واسعة، عمم الخلق، وبذل لهم النعم في جميع الأحوال.. فلم يعدَّه الجاهل نعمة، وصار الناس لا يشكرون إلاَّ المال الذي يتطرق الاختصاص إليه، من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله عليهم.

شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر، وأظهر شدة اغتمامه بفقره، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك

أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك، وله عندك عروض بخمسين ألفاً؟!

وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول:

ما من عبد إلاَّ لو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: فما من عبد لله تعالى إلاَّ وهو راضٍ عن الله في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلَّ من يسأل الله العقل، وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه، كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه. وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه.

وأما الخلق، فما من عبد إلاَّ ويرى من غيره عيوباً يكرهها، وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه، وابتلى غيره بالخلق السيء.

وأما العلم، فما من أحد إلاَّ ويعرف بواطن أمور نفسه، وخفايا أفكاره، وما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة؟ فلمَ لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساوئه، فأظهر الجميل، وستر القبيح، وأخفى ذلك عن أعين الناس، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد.

فهذه ثلاث من النعم خاصة، يعترف بها كل عبد.

وإذن: إنما انسدّ طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر؟

فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة.

وأما القلوب البليدة، التي لا تعد النعمة نعمة إلاَّ إذا خصت بها، أو شعرت بالبلاء معها، فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان كل يوم يحضر دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود. فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم، ثم يتأمل في صحته وسلامته، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض، ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة يعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات. . ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً، أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته. . فإذا شاهد ذلك فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله. . وإذا عرف تلك النعمة شكر.

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة فعساها تشكر.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد. ولذلك كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقال بعض السلف: النعم وحشية، فقيدوها بالشكر.

الركـن الثالـث
فيما يشترك فيه الصبر والشكر

اجتماع الصبر والشكر:

لعلك تقول: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهـذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر؟ وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البـلاء؟ وكيف يجتمع الصبـر والشكـر، فـإن الصبـر يستـدعي ألمـاً، والشكـر يستدعي فرحاً، وهما متضادان.

فاعلم: أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة.

وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه، فالكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره، وعلى العاصي أن يترك معصيته.

وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه، فلا يؤمـر بالصبـر عليه، فلو تـرك الإنسان الماء مع طـول العطش، حتى عـظم تألمـه فلا يؤمـر بالصبـر عليه، بـل يؤمر بـإزالة الألم.

وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته.

فإذاً: يرجـع الصبر في الـدنيا إلى مـا ليس ببلاء مـطلق، بل يجـوز أن يكون نعمـة من وجه، فلذلـك يتصور أن يجتمـع عليه وظيفـة الصبر والشكـر، فإن الغنى ـ مثلاً ـ يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان، حتى يُقصد بسبب مالـه فيقتل ويقتـل أولاده. والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من هـذه النعم الدنيـوية إلاَّ ويجـوز أن تصير بلاء، ولكن بـالإضافـة إليه، وكـذلك مـا من بلاء إلاَّ ويجـوز أن يصير نعمـة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيـرة له في الفقـر والمرض، ولـو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى.

ومثـال ذلك: أن الجهـل بلاء ولكنـه قد يكـون على العبـد في بعض الأمـور نعمة. فجهل الإنسان بأجله نعمة عليه، إذ لو عرفه ربما تنغص عليـه العيش، وطال

بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه، إذ لو رفع الستر واطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده.

ومن ذلك: إبهام الله تعالى أمر القيامة، وليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد.

فهذه وجوه نعم الله في الجهل، فكيف بالعلم؟!

وحيث قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، فهو حق، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كألم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لو لم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار. ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها، من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يغرموا بسببها.

فإذن: قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلاَّ وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع عباده، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً، إما على المبتلى، أو على غير المبتلى، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة.

* * *

واعلم أن في كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح بها العاقل، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض، فيتصور أن يكون أكبر منها، فإن مقدورات الله لا تتناهى، فلو زادها الله ماذا كان يرده؟ فليشكر إذ لم تكن أعظم منها.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه. قال عمر بن الخطاب

رضي الله عنه: ما ابتليت ببلاء إلاَّ كان لله تعالى عليَّ فيه أربـع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه.

الثالث: أنه ما من عقوبة إلاَّ كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنهـا فتخف. ومصيبة الآخـرة دائمة، وإن لم تـدم فلا سبيـل إلى تخفيفهـا. ومن عجلت عقوبته في الدنيا، لم يعاقب ثانياً.

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبـة عليه في أم الكتـاب، وكان لا بـد من وصولها إليه. وقد وصلت، ووقع الفراغ منها واستراح فهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابهـا أكثر منهـا، فإن مصـائب الدنيـا طرق إلى الآخـرة، وكل بلاء في الأمور الدنيوية مثالـه مثال الـدواء الذي يؤلم في الحـال وينفع في المـآل، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هـذه النعم في البلاء لم يتصـور منه الشكـر، لأن الشكر يتبـع معرفـة النعمة بـالضرورة. ومن لم يؤمن أن ثـواب المصيبة أكبـر من المصيبة، لم يتصـور منه الشكـر على المصيبـة، والأخبـار الواردة في ثواب الصبر على المصائب كثيرة، ويكفي في ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

فضل النعمة على البلاء:

لعلك تقول: هذا يدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم فيها، فهـل لنا أن نسأل الله البلاء؟

فأقول: لا وجـه لذلـك، لما روي أنـه ﷺ: كان يستعيـذ في دعائـه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة[2].

وكان ﷺ يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»[3].

---

(١) سورة الزمر: الآية (١٠).

(٢) رواه أحمد بلفظ: «أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة»، وإسناده جيد (ع).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس (ع).

فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا، ودفع ما فوقه من البلاء.

أما ما نقل عن بعضهم من سؤالهم للبلاء، فما سمعته من هذا الفن، فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه.

بيان الأفضل من الصبر والشكر:

اختلف الناس، هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب، بعيد عن التحصيل، فنقول في بيان ذلك مقامان:

المقام الأول: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر، ولا يطلب التفتيش عن حقيقته، وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام ينبغي أن يعتمده الوعاظ.

ومقتضى هذا المقام، النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله، فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر. بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل. كقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

وقوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[2].

فالحديث دليل على أن الفضيلة في الصبر، إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر، فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر.

المقام الثاني: ونقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار.

السابق إلى أفهام الناس، أن النعمة هي الأموال والغنى بها. فإذا أضيف الصبر إلى الشكر ـ الذي هو صرف المال إلى الطاعة ـ فالشكر أفضل، لأنه تضمن

---

(١) سورة الزمر: الآية (١٠).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه (ع).

الصبر أيضاً. وفيه فرح بنعمة الله تعالى. وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعم المباح، والشيئان أفضل من شيء واحد، والجملة أعلى رتبة من البعض، فالشكر أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التنعم المباح، فالصبر ها هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله، الصارف إياه إلى المباحات، لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات.

وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر، أن يقول الإنسان: الحمد لله، ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن الصبر أفضل من الشكر. أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة.

وإذا لاحظت المعاني التي ذكرناها، علمت أن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال. فربّ فقير صابر أفضل من غني شاكر، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر.

وللصبر درجات، أقلها: ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا، وهو مقام وراء الصبر، ووراءه الشكر على البلاء، وهو وراء الرضا.

وكذلك فالشكر درجات كثيرة، من جملتها: أن حياء العبد مع تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من النعم وموهبة من الله تعالى شكر.





الكِتَابُ ٱلثَّالِثُ

الرَّجاءُ وَٱلخوْف

ربع المنجيات

الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على فصلين:

الفصل الأول: في الرجاء.

الفصل الثاني: في الخوف.

الفَصْلُ الأَوَّل

فِي ٱلرَّجَاء

[تمهيد في بيان المصطلحات]:

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين.

وإنما يسمى الوصف «**مقاماً**» إذا ثبت وأقام.

وإنما يسمى «**حالاً**» إذا كان عارضاً سريع الزوال.

وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال، كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى «حالاً» لأنه يحول على القرب..

وكل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب، فينقسم إلى موجود في الحال، وإلى موجود فيما مضى، وإلى منتظر في الاستقبال:

فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي «**ذكراً**» و«**تذكراً**».

وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال، سمي: «**وجداً**» و«**ذوقاً**» و«**إدراكاً**» وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك.

وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال، وغلب ذلك على قلبك، سمي **«انتظاراً»** و **«توقعاً»**:

فإن كان المنتظر مكروهاً، حصل منه ألم في القلب سمي **«خوفاً»** و **«إشفاقاً»**.

وإن كان محبوباً، حصل من انتظاره وتعلق القلب به، لذة في القلب وارتياح، سمي ذلك الارتياح **«رجاء»**.

فالرجاء: هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده. ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بدَّ وأن يكون له سبب.

فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم **«الرجاء»** صادق عليه.

وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم **«الغرور»** و **«الحمق»** عليه أصدق من اسم الرجاء.

وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود، ولا معلومة الانتفاء، فاسم **«التمني»** أصدق على انتظاره، لأنه انتظار من غير سبب.

وعلى كل حال، فلا يطلق اسم «الرجاء» و «الخوف» إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع، وأخاف غروبها وقت الغروب، لأن ذلك مقطوع به. نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

حقيقة الرجاء:

الرجاء يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضي العمل، والرجاء اسم لجملة الثلاثة.

وقد علم أرباب القلوب، أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة، التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرةَ برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً، غير عفن ولا مسوّس، ثم أمده بما يحتاج إليه، وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نفى الشوك عن الأرض والحشيش، وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق، والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمي انتظاره رجاءً.

وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة، لا ينصب إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه، سمي انتظاره: حمقاً وغروراً، لا رجاءً.

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع، سمي انتظاره تمنياً، لا رجاءً.

فاسم «الرجاء»، إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات.

فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر قلبه عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاءً حقيقياً، محموداً في نفسه، باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت.

وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال ﷺ: «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[1].

وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[2].

معناه: أولئك يستحقون أن يكونوا من أصحاب الرجاء، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم قد يرجو، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء.

والرجاء محمود لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم ـ وهو ضده ـ لأنه صارف عن العمل.

والخوف ليس بضدّ للرجاء، بل هو رفيق له، وهو باعث على العمل بطريق الرهبة، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة.

قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو، من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عزَّ وجلّ مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس

فضيلة الرجاء:

ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب، لا سيما في وقت الموت. قال الله تعالى:

﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[3].

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه (ع) وكذا أخرجه أحمد (ش).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢١٨).   (٣) سورة الزمر: الآية (٥٣).

فحرم أصل اليأس.

وقال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجلّ»[1].

وقال ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي بـي»[2].

وقـال علي رضي الله عنه لـرجل أخـرجه الخـوف إلى القنوط لكثـرة ذنـوبـه: يا هذا، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك.

سبيل الوصول إلى حال الرجاء:

اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه أحد رجلين:

إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة.

وإما رجل غلب عليـه الخوف فـأسرف في المـواظبة على العبـادة، حتى أضر بنفسه.

وهذان رجلان مائلان عن الاعتـدال إلى طرفي الإفـراط والتفريط، فيحتـاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال.

فأما العاصي المغرور، المتمني على الله، مع الإعراض عن العبادة، واقتحام المعاصي، فأدوية الرجاء تنقلب سمومـاً مهلكة في حقـه. ولا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، والأسباب المهيجة له.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً، ناظراً إلى مواقـع العلل، معالجـاً كل علة بما يضادها، لا بما يزيد فيها. وهـذا الزمـان زمان لا ينبغي أن يستعمـل فيه مـع الخلق أسباب الـرجاء، بـل المبالغـة في التخويف، فـإن ذكر أسبـاب الـرجـاء يهلكهم ويرديهم.

وأسبـاب الرجـاء نوعـان: منها مـا هو بـطريق الاعتبار، ومنهـا ما هـو بـطريق استقراء الآيات والأخبار.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٧).

(٢) متفق عليه (خ ٧٤٠٥، م ٢٦٧٥).

أما الاعتبار: فهو أن يتأمل ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكـر، فإذا علم لـطائف الله تعالى في الـدنيا بعبـاده، وعجائب حكمتـه التي راعاهـا في فـطرة الإنسـان، وأن لطفـه الإلهي لم يقصر عن عبـاده في دقائق مصـالحهم في الـدنيـا، فكيف يـرضى سياقتهم إلى الهـلاك المؤبـد، فـإن من لـطف في الـدنيـا يلطف في الآخرة، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد، وهو غفور رحيم.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر.

قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢).

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أولياءه فقال:

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾(٤).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ ﴾(٥).

---

(١) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(٢) سورة الشورى: الآية (٣).

(٣) سورة الزمر: الآية (١٦).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٣١).

(٥) سورة الرعد: الآية (٦).

وقال ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة»[1].

وقال ﷺ فيما يحكيه عن ربه عزَّ وجلّ قال: «أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[2].

وقال ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار»[3].

وقال ﷺ: «إن الله كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي»[4].

وقال ﷺ: «لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[5].

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»[6].

وقال ﷺ: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[7].

فهذه هي الأسباب التي يجلب بها الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك. بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٨٧).
(٢) متفق عليه (خ ٧٥٠٧، م ٢٧٥٨) واللفظ لمسلم وقد أورده المصنف بلفظ قريب.
(٣) متفق عليه (خ ١٢٣٨، م ٩٣).
(٤) متفق عليه (خ ٧٤٠٤، م ٢٧٥١).
(٥) متفق عليه (خ ٦٤٦٩، م ٢٧٥٥) واللفظ لمسلم.
(٦) أخرجه مسلم برقم (٢٧٤٩).
(٧) متفق عليه (خ ٦٤٦٩، م ٢٧٥٢).

الفصل الثاني

في الخوف

حقيقة الخوف:

الخوف: عبارة عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

والباعث على الخوف، هو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه، كمن جنى على ملك ثم وقع في يده، فيخاف القتل مثلاً، ويجوِّز العفو والإفلات، ويكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو تفاحش جنايته.

والخوف من الله تعالى، تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً.

وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى، تكون قوة خوفه، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال ﷺ: «أنا أخوفكم لله»[1]، وكذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2].

وللخوف أثر يفيض من القلب على البدن والجوارح والصفات.

أما في البدن: فبالنحول والصفار والبكاء، وقد يفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس.

---

(١) متفق عليه بلفظ: «إني لأتقاكم لله وأخشاكم له» (خ ٥٠٦٣، م ١١٠٨).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

وأما في الجوارح: فبكفها عن المعاصي، وتقييدها بالطاعات، تلافياً لما فرط، واستعداداً للمستقبل.

وأما في الصفات: فبأن يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة.

وعندها تحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ويكون شغله المراقبة والمحاسبة والمجاهدة.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمتنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً. فإن زادت قوة الكف، فكف عما لا يتيقن تحريمه. ويسمى ذلك: تقوى. وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس. وهو الصدق في التقوى.

درجات الخوف:

الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

وهو أمر محمود، وله قصور، وله إفراط، وله اعتدال، والمحمود هو الاعتدال.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن، فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة.

فهذا خوف قاصر، قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف، الذي تضرب به دابة قوية، فلا يؤلمها ولا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها.

وهـذا خوف النـاس كلهم، إلاَّ العـارفين والعلمـاء، ولست أعني بـالعلمـاء: المترسمين برسوم العلماء، والمتسمين بأسمائهم، فـإنهم أبعد النـاس عن الخوف، بل أعني العلماء بالله، وذلك مما قد عزَّ وجوده الآن.

ولذلك قال الفضيل بن عياض: إذا قيل لك: هل تخاف الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: «لا»، كفرت، وإن قلت: «نعم»، كذبت.

وأشار به إلى أن الخوف، هو الـذي يكف الجوارح عن المعـاصي، ويقيدهـا بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح، فهو حديث نفس، وحـركة خـاطر، لا يستحق أن يسمى: خوفاً.

وأمـا المفرط: فهـو الذي يقـوى، ويتجاوز حـدَّ الاعتدال، حتى يخـرج إلى اليأس والقنوط، وهو ــ أيضاً ــ مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخـرج أيضاً إلى المرض والضعف، وإلى الوله والدهشة وزوال العقل.

وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها، ليعالج بها صدمـة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط، أو أحد هذه الأمور.

فكـل ما يـراد لأمر، فـالمحمود منـه، مـا يفضي إلى المـراد المقصـود منـه، وما يقصر عنه، أو يجاوزه، فهو مذموم.

وفائدة الخوف: الحذر والـورع والتقوى والمجـاهدة والفكـر والذكـر، وسائـر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى. وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، وكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

فإذن: إن لم يؤثر الخوف في العمل، فوجوده كعدمه، وإن لم يحمل إلاَّ على العفة ــ وهي الكف عن مقتضى الشهوات ــ فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يثمر درجة الصديقين، وهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مـع بقاء الصحـة والعقل، فـإن جاوز هـذا إلى الإضرار بـالعقل والصحـة فهـو مـرض يجب علاجه.

ولذلك كان سهل التستري ـ رحمه الله ـ يقول للمريدين الملازمين للجوع أياماً كثيرة: احفظوا عقولكم، فإنه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل.

أقسام الخوف:

المكروه ـ الذي يكون سبباً للخوف ـ إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة.

فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين.

ومقام الخائفين يختلف بحسب ما يغلب على قلوبهم من المكروهات.

ـ **فمنهم من يخاف معصيته** وجنايته، وهم الذين يغلب على قلوبهم خوف ما ليس مكروهاً لذاته، بل لغيره، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والغش.. أو خوف سكرات الموت.. فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف.

وأغلب هذه المخاوف على المتقين: خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة، لأن الخاتمة تتبع السابقة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب.

ـ **ومنهم من يخاف الله تعالى نفسه**، لصفته وجلاله وأوصافه، التي تقتضي الهيبة لا محالة. فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى (يستمر) خوفه وإن كان في طاعة الصديقين. وأما الآخر ـ وهو الذي يخاف معصيته ـ فهو في ساحة الغرور والأمن إن واظب على الطاعات.

فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين.

فضيلة الخوف:

فضل الخوف يعرف تارة بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

أما الاعتبار، فسبيله أن الشهوة لا تنقمع بشيء كما تنقمع بنار الخوف، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات، وبقدر ما يكف عن المعاصي، ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة، وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة، التي تقرب إلى الله زلفى.

وأما الآيات والأخبار، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر. وناهيك دلالة على فضيلته أن الله تعالى جمع للخائفين: الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان، وهي مجامع مقامات أهل الجنان:

فقال تعالى:

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2].

وصفهم بالعلم لخشيتهم.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[3].

وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٤).

(٢) سورة فاطر: الآية (٢٨).

(٣) سورة البينة: الآية (٨).

وقال تعالى:

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فأمر بالخوف وأوجبه، وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه.

وقال تعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[2].

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، كيف نصنع، نجالس أقواماً يخوفوننا، حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن؛ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

وكل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف، لأنهما متلازمان، فإن كل من رجا محبوباً، فلا بد وأن يخاف فوته، فلا ينفك أحدهما عن الآخر. قال تعالى:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[4].

الأفضل من الخوف والرجاء:

الأخبار في فضل الخوف والرجاء كثيرة، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد، يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٧٥).

(٢) سورة الرحمن: الآية (٤٦).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٩٠).

(٤) سورة السجدة: الآية (١٦).

والخوف والرجاء دواءان، يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى، والاغترار به، فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله، فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل.

وعلى الجملة: فما يراد لغيره، ينبغي أن يستعمل فيه لفظ «الأصلح» لا لفظ «الأفضل»، فنقول: أكثر الخلق، الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، وأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه.

ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي: ليدخل النار كل الناس إلَّا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلَّا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل.

وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما. فمثل عمر ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه، فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار، كان ذلك دليلاً على اغتراره.

الدواء الذي يستجلب به الخوف:

الخوف يحصل بطريقين مختلفين، أحدهما أعلى من الآخر.

ومثاله: أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مد اليد إلى الحية ليلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه، فخاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه، قام معه وغلب عليه الخوف، ووافقه في الهرب. فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها، وأما خوف الابن فبمجرد التقليد، لأنه يحسن الظن بأبيه، ويعلم أنه لا يخاف إلَّا من سبب مخوف في نفسه.

وإذا عرفت هذا المثال، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

ــ أحدهما: الخوف من عذابه.

ـ الثاني: الخوف منه.

فأما الخوف منه، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب، العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة، والخوف والحذر، المطلعين على سر قوله تعالى:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1].

وقوله عزَّ وجلّ:

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2].

وأن يكون الله هو المخوف، فهذا هو الخوف الأعلى، وهو أن يخاف العبد الحجاب منه، ويرجو القرب منه.

ومن ارتقى إلى هذه الذروة من المعرفة، وعرف الله تعالى، خافه بالضرورة، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف. كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالبه خاف بالضرورة شاء أم أبى، ولا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف.

وأما الخوف من عذابه فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، وضعفه بسبب الغفلة، وسبب ضعف الإيمان.

وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ، وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة، وأصناف العذاب في الآخرة.

وتزول الغفلة أيضاً بالنظر إلى الخائفين، ومجالستهم، ومشاهدة أحوالهم، فإن فاتت المشاهدة، فالسماع لا يخلو عن تأثير.

عن عائشة أم المؤمنين قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه قال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[1].

والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف، لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلَّا قوله تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2].

لكان كافياً، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها.

وأشد منه قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾[3].

وكذلك في سورة العصر أربعة شروط للخلاص من الخسران.

قال سهل التستري رحمه الله: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

فإذا كان خوف العارفين، مع رسوخ أقدامهم، وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة، فكيف لا يخافه الضعفاء؟

معنى سوء الخاتمة:

فإن قلت: إن أكثر خوف هؤلاء يرجع إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى.

ـ أما الرتبة العظيمة الهائلة: فهي أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: شك أو جحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٢).
(٢) سورة طه: الآية (٨٢).
(٣) سورة القصص: الآية (٦٧).

فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

ـ والثانية ـ وهي دونها ـ : أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا، وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا، وصارفاً وجهه إليها. وإذا انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلَّا المحجوبين عنه، فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار: جُز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي.

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها:

أما الخاتمة الأولى، والتي هي الختم على الشك أو الجحود، فينحصر سببها في شيئين:

أحدهما: يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال. كالمبتدع الزاهد، فإن عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة. وأعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق.

فإذا قرب الموت، وظهرت له ناصية الملك، واضطرب القلب بما فيه، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته، أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان، فقد ختم له بالسوء، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[1].

الثاني: هو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب، ومهما ضعف الإيمان، ضعف حب الله تعالى، وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى، إلاَّ من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس، والعدول عن طريق الشيطان.

فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد حب الله ضعفاً، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا، وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب لفراق الدنيا، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة، ختم له بالسوء، وهلك هلاكاً مؤبداً.

والسبب المفضي إلى مثل هذه الخاتمة، هو غلبة حب الدنيا، والركون إليها.

وأما الخاتمة الثانية، التي هي دون الأولى، وليست مفضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي، وإن قوي الإيمان.

الثاني: ضعف الإيمان، وإن قلت المعاصي.

وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوة ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره، يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من الشهوات، ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه، ويصير محجوباً عن الله تعالى.

فالذي لا يقارف الذنب إلاَّ الفينة بعد الفينة، هو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر. والذي غلبت عليه المعاصي، وكانت أكثر من طاعاته، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات، فهذا الخطر عظيم في حقه.

---

(١) سورة الزمر: الآية (٤٧).

ولا طريق للانتقال عن المعاصي والشهوات إلَّا المجاهدة طول العمر، في فطامه نفسه عنها، وفي قمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار. ويكون طول المواظبة على الخير، وتخلية الفكر عن الشر، عدَّة وذخيرة لحالة سكرات الموت. فإنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

فإذاً: رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب، واختلاج الخواطر.

ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً، وإن كان لطول الإلف فيه تأثير. فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة.

ولذلك كان مطرف بن عبد الله[1] يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا!!

[نصيحة]:

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخوف فيها، فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى، وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك، وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك. فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك، ويصرف إليه فكرك وخواطرك.

وإياك أن تسوِّف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نَفَس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تخطف فيه روحك.

فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمل لحظة، فلعل تلك اللحظة خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك.

---

(١) مطرف بن عبد الله الشخير العامري، زاهد من كبار التابعين، محدث ثقة، ولد في حياة الرسول ﷺ، وتوفي في البصرة عام (٨٧)هـ .

وأما إذا نمت، فإياك أن تنام إلاَّ على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلاَّ بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك، فإن حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر.

وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم. فكيف إذا لم تفعل؟! فالناس كلهم هلكى إلاَّ العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلاَّ العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلاَّ المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك. وضرورتك: مطعم وملبس ومسكن، والباقي كله فضول.

فاقبل هذه النصيحة، ممن هو أحوج إلى النصيحة منك، واعلم أن متسع التدبير والتزوُّد والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك، أو غفلتك، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك، ولم تفارقك حسرتك وندامتك.

[الشهادة وحسن الخاتمة]:

ولأجل هذا الخطر العظيم، في سوء الخاتمة، كانت الشهادة مغبوطاً عليها، وكان موت الفجأة مكروهاً.

أما الموت فجأة، فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء، واستيلائه على القلب.

وأما الشهادة، فلأنها عبارة عن قبض الروح، في حالة لم يبقَ في القلب سوى حب الله تعالى، وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد، وجميع الشهوات عن القلب، إذ لا يهجم على صف القتال ــ موطناً نفسه على الموت ــ إلاَّ حباً لله، وطلباً لمرضاته، وبائعاً دنياه بآخرته، وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به، إذ قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(١).

---

(١) سورة التوبة: الآية (١١١).

والبائع راغب عن المبيع لا محالة، ومخرج حبه عن القلب، ومجرد[1] حب العوض المطلوب في قلبه ــ وهو الجنة ــ .

ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة. هذا فيمن ليس يقصد الغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة. فإن من هذا حاله، وإن قتل في المعركة، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة، كما دلت عليه الأخبار.

ذكر أمثلة من خوف السلف الصالح :

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر، ولم أخلق بشراً.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: وددت أني شجرة تعضد.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني كنت نسياً منسياً.

ومرَّ عمر رضي الله عنه يوماً بدار إنسان، وهو يصلي ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾[2].

نزل عن حماره، واستند إلى حائط، ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً، يعوده الناس، ولا يدرون ما مرضه.

وقال علي رضي الله عنه، وقد سلم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة، وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فلم أرَ اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى[3]، قد باتوا لله سجداً

---

(١) أي أفرد.

(٢) سورة الطور: الآيتان (٧ ــ ٨).

(٣) أي من أثر السجود.

وقياماً، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما تميد الشجر في يوم الريح. وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين. ثم قام، فما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وكان علي بن الحسين رحمه الله إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وروي أن الفضيل رؤي يوم عرفة، والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب، قبض على لحيته، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت. ثم انقلب مع الناس.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم، فإن بلعام[1] كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر منزلة من المصطفى ﷺ عند الله، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

وقال الفضيل: إني لا أغبط نبياً مرسلاً، ولا ملكاً مقرباً، ولا عبداً صالحاً، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة؟ إنما أغبط من لم يخلق.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذلك الرجل. وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة.

فهذه مخاوف السلف الصالح، ونحن أجدر بالخوف منهم.

---

(١) بلعام بن باعوراء من علماء بني إسرائيل، كان علمه سبب هلاكه، كما قال تعالى: ﴿آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾، سورة الأعراف: الآية (١٧٥).

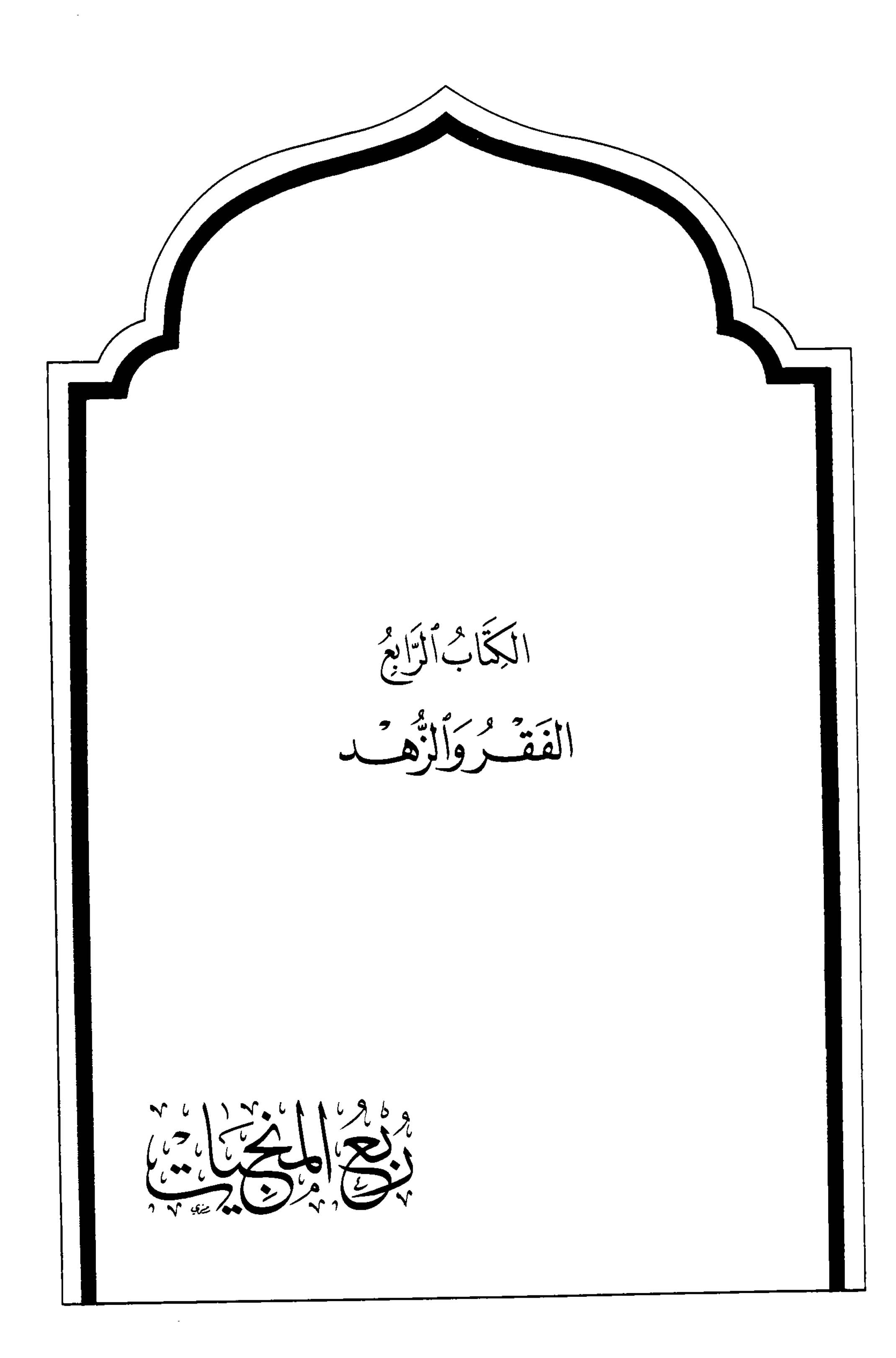
ومن العجائب: أنّا إذا أردنا المال في الدنيا، زرعنا وغرسنا واتجرنا، وركبنا البحار، وخاطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره، ونجتهد في طلب أرزاقنا، ولا نثق بضمان الله لنا، ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللَّهم ارزقنا.

ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بألسنتنا: اللَّهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا. فما هذه إلاَّ محنة هائلة، إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح، فنسأل الله أن يتوب علينا.



(١) سورة النجم: الآية (٣٩).



الكِتَابُ الرَّابِعُ

الفَقْرُ وَالزُّهْدُ

رُبعُ المُنجيات

سبق ذم الدنيا في ربع المهلكات، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه أم الطاعات، ورأس القربات، ورأس المنجيات، ولا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا.

ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد، ويسمى ذلك «فقراً»، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك «زهداً». ونحن نذكر كلاً منهما في فصل من هذا الكتاب.

الفصل الأول

في الفقر

حقيقة الفقر:

الفقر: عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً.

وكل موجود ـ سوى الله تعالى ـ فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى. وهذا معنى الفقر المطلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

ولسنا نقصد بيان الفقر المطلق، بل الفقر من المال على الخصوص.

فكل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده، وللفقير خمسة أحوال بحسب فقره ونحن نميزها ونخص كل حال باسم.

الأولى: وهي العليا، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه، وتأذى به، وهرب من أخذه، مبغضاً له، ومحترزاً من شره. وهو: الزهد، واسم صاحبه: الزاهد.

---

(١) سورة فاطر: الآية (١٥).

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه. وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه، لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه. فإن أتاه أخذه وفرح به، وإلا لم يشتغل بطلبه. وصاحب هذه الحالة نسميه قانعاً، إذ قنع بالموجود.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه. وإلا فهو راغب فيه لو وجد سبيلاً إلى طلبه. وصاحب هذه الحالة يسمى بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه، كالجائع الفاقد للخبز. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب، ضعيفة أو قوية، وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة.

وأعلى هذه الخمسة الحالة الأولى. ووراءها حالة أخرى، هي أعلى منها، وهي: أن يستوي عنده وجود المال وفقده. فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذّ، وإن فقده فكذلك. وذلك كما كان حال عائشة رضي الله عنها، إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء، فأخذتها وفرقتها من يومها. فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرتيني لفعلت.

فمن كانت هذه حاله، لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره. وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة: «المستغني» لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً.

وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم «الغني» المطلق على الله تعالى.

وعلى كلٍّ: كلُّ من كثر ماله من العباد، وهو يفرح به، فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده، لا عن بقائه. فهو إذن فقير من وجه. أما المستغني فهو غني عن دخوله وعن بقائه.

فضيلة الفقر:

قال الله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾[2].

ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وفي الخبر قوله ﷺ: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام»[3].

وقال ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»[4] أي أربعين سنة.

والاختلاف بين الخبرين يرجع إلى الاختلاف في درجات الفقر.

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره»[5].

---

(١) سورة الحشر: الآية (٨).
(٢) سورة البقرة: الآية (٢٧٣).
(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح (ع).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٩٧٩).
(٥) متفق عليه (خ ٤٩١٨، م ٢٨٥٣).

وقال ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»[1].

وقال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً[2]»[3].

قال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص. وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة، ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره، ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم، ما ينفع مال يزيد، وعمر ينقص.

ومر رجل بعامر بن عبد القيس، وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله، أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى، قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وقال رجل لبشر الحافي رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرَّ بي العيال، فقال: إذا قال لك عيالك: ليس عندنا دقيق ولا خبز، فادع الله لي في ذلك الوقت، فإن دعاءك أفضل من دعائي.

وقال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء؛ اختار الفقراء: راحة النفس، وفراغ القلب، وخفة الحساب، واختار الأغنياء: تعب النفس، وشغل القلب، وشدة الحساب.

وأما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير. ولكن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٥٤).

(٢) قال أهل اللغة: القوت: ما يسد الرمق.

(٣) متفق عليه (خ ٦٤٦٠، م ١٠٥٥) وأورده المصنف بلفظ «كفافاً» وما ذكرته في الصحيحين.

يحسن التفصيل: إنما يتصور الخلاف في فقير صابر ليس بحريص، بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات. أو فقير حريص مع غني حريص.

ولا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان الغني متمتعاً بالمباحات فالفقير القنوع أفضل منه.

وخلاصة القول: أن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فإن تساويا فيه تساوت درجتهما.

آداب الفقير في فقره:

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره، ومخالطته وأفعاله، ينبغي أن يراعيها:

أما أدب باطنه: فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله، وإن كان كارهاً للفقر.

كالمحجوم: يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها، ولا يكون كارهاً فعل الحجام ولا كارهاً للحجام، بل ربما يتقلد منه منة.

فهذا أقل درجاته، وهو واجب، ونقيضه حرام، ومحبط ثواب الفقر.

وأرفع من هذا: أن لا يكون كارهاً للفقر، بل يكون راضياً به.

وهذا يدل على أنَّ كل فقير ليس محموداً، بل المحمود: الذي لا يتسخط، ويرضى أو يفرح لعلمه بثمرته.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل، ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره، قال تعالى:

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[1].

وقال سفيان: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧٣).

وأما في الأعمال، فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه. وأقل منها: أن لا يخالط الأغنياء، ولا يرغب في مجالستهم، لأن ذلك من مبادىء الطمع.

وأما أدبه في أفعاله: فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى.

آداب الفقير في قبول العطاء:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال: فينبغي أن يكون حلالاً، خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه.

وأما غرض المعطي؛ فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه، وطلب محبته، وهو الهدية، أو الثواب: وهو الصدقة والزكاة، أو الذكر والرياء والسمعة.

ـ أما الهدية، فلا بأس بقبولها، فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة. فإن كان فيها منة فالأولى تركها.

ـ وأما ما كان للثواب المجرد وهو الصدقة والزكاة: فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه، فهو محل شبهة.

ـ فإن كان غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله، حتى لا يكون معيناً على غرضه الفاسد.

وأما غرضه في الأخذ: فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بد منه، أو هو مستغن عنه؟ فإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي، فالأفضل له الأخذ. وقال ﷺ: «إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا، فلا تتبعه نفسك»[1].

---

(١) متفق عليه (خ ١٤٧٣، م ١٠٤٥).

وقد كان سري السقطي[1] يوصل إلى أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ شيئاً، فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد، فإنها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد علي ما قلت، فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر، فاحبسه لي عندك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلي.

وأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته، فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه، أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم، لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه، وإن كان متكفلاً بحقوق الفقراء، فليأخذ ما زاد على حاجته، فإنه غير زائد عن حاجة الفقراء، وليبادر بصرفه إليهم.

والمقصود من هذا: أن الزيادة على قدر الحاجة، إنما تأتيك ابتلاءً وفتنة، لينظر الله إليك ماذا تعمل به، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

تحريم السؤال من غير ضرورة:

اعلم أنه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات، ففي الحديث قوله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه كانت مسألته خدوشاً وكدوحاً في وجهه»[3].

وقال ﷺ: «من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم»[4].

وسمع عمر رضي الله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب، فقال لواحد من قومه:

---

(١) السري بن المغلس السقطي، أبو الحسن، خال الجنيد، ومربيه، وصاحب معروف الكرخي وتلميذه، كان شديد الورع، وكانت له صلة بالإمام أحمد، وهو من أوائل الذين تكلموا في محبة الله تعالى، توفي سنة (٢٥٧)هـ.

(٢) سورة الكهف: الآية (٧).

(٣) رواه أصحاب السنن (ع).

(٤) رواه أبو داود وابن حبان. ولمسلم: «من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً» (ع).

عشِّ الرجل، فعشاه، ثم سمعه ثانياً يسأل، فقال: ألم أقل لك عشِّ الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر، فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً، فقال: لستَ سائلاً، ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة، وضربه بالدرة وقال: لا تعد.

فالسؤال حرام في الأصل، وإنما يباح لضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام. وإنما قلنا: إن الأصل فيه التحريم، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى. إذ السؤال إظهار للفقر، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه، وهو عين الشكوى.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، فسائر الخلق إنما هم عباد مثله.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل، فإن بذل حياءً من السائل أو رياءً، فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، والسائل هو السبب في هذا الإيذاء.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة القريبة منها.

أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، والعاري الذي ليس له ما يواريه.

وأما المحتاج حاجة مهمة، فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء، وكمن له جبة ولا قميص له تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً ينتهي إلى حد الضرورة.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه، أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقص بذلك في عينه، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم، حتى يخرج بذلك عن الذل.

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يسكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه.

***

الفصل الثاني

في الزهد

حقيقة الزهد:

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين.

والزهد: عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه.

فحال الزاهد يستدعي: مرغوباً عنه، ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه.

وشرط المرغوب عنه: أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه، لا يسمى زاهداً. إذ تارك الحجر والتراب لا يسمى زاهداً، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير.

فمن باع الدنيا بالآخرة، فهو زاهد في الدنيا، ومن باع الآخرة بالدنيا، فهو زاهد أيضاً ولكن في الآخرة.

والزهد: اسم جرت العادة بتخصيصه بمن زهد في الدنيا.

والزاهد المطلق: هو الذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى، فلا يحب إلا الله تعالى.

والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، أما تارك المحظورات فلا يسمى زاهداً. وأن تكون هذه المباحات مقدوراً عليها، فإن ترك ما لا يقدر عليه فلا يسمى زاهداً، ولذلك لما قيل لابن المبارك: يا زاهد، قال: الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدت؟!

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة، أو على سبيل استمالة القلوب، أو على سبيل الطمع.. فذلك كله من محاسن

العادات، ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة. وترك التزيين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة خوفاً أن يقال لك:

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾(١).

فضيلة الزهد ودرجاته:

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(٣).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٤).

قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال.

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(٥).

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (٢٠).

(٢) سورة طه: الآية (١٣١).

(٣) سورة الشورى: الآية (٢٠).

(٤) سورة الكهف: الآية (٧).

(٥) سورة النساء: الآية (٧٧).

واعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا، وهو مشتهٍ لها وقلبه مائل إليها، ونفسه ملتفتة إليها، ولكنه يجاهدها ويكفها. وهذا يسمى: المتزهد.

وهو مبدأ الزهد، في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً، لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين. ولكن هذا الزاهد يرى زهده، ويكون معجباً بنفسه وبزهده. وهذا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً، إذ عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة. فهذا هو الكمال في الزهد، وسببه كمال المعرفة.

أقسام الزهد:

وأقسام الزهد بالإضافة إلى «المرغوب فيه» على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار، ومن سائر الآلام، كعذاب القبر، ومناقشة الحساب..

فهذا هو زهد الخائفين، وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه، واللذات الموعودة في جنته..

وهذا زهد الراجين، فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد.

الدرجة الثالثة: وهي العليا، ألا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهمِّ بالله تعالى، وهو الموحد الحقيقي. وهذا زهد المحبين العارفين.

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى «المرغوب عنه» فقد كثرت فيها الأقاويل.

والحاصل: أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها. وإذا رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا، فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد البقاء ليتمتع، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء، ولا معنى لحب الحياة إلا دوام ما هو موجود، فإذا رغب عنها لم يردها.

ولذلك لما كتب عليهم القتال:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾(1).

فقال تعالى:

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(2).

أي: لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا. فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين.

أما الزاهدون المحبون لله تعالى، فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد، حرصاً على نصرة دين الله تعالى، أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة كخالد بن الوليد رضي الله عنه.

هكذا كان حال الصادقين في الإيمان، وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم:

﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾(3).

فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

* * *

---

(1) و (2) سورة النساء: الآية (٧٧).

(3) سورة الجمعة: الآية (٨).

إذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه، فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه، أو على من كان يخاطبه.

فقال بشر الحافي رحمه الله: (الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس)، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة.

وقال الفضيل رحمه الله: (الزهد في الدنيا هو القناعة)، وهذا إشارة إلى المال خاصة.

وقال الثوري: (الزهد هو قصر الأمل)، وهو جامع لجميع الشهوات.

علامات الزهد:

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فكم من تارك للمال مظهر للخشونة غايته أن يمدح بالزهد. فلا بد من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس في الدنيا.

وينبغي أن يعول على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأول: علامة الزهد في المال، والثاني علامة الزهد في الجاه.

الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

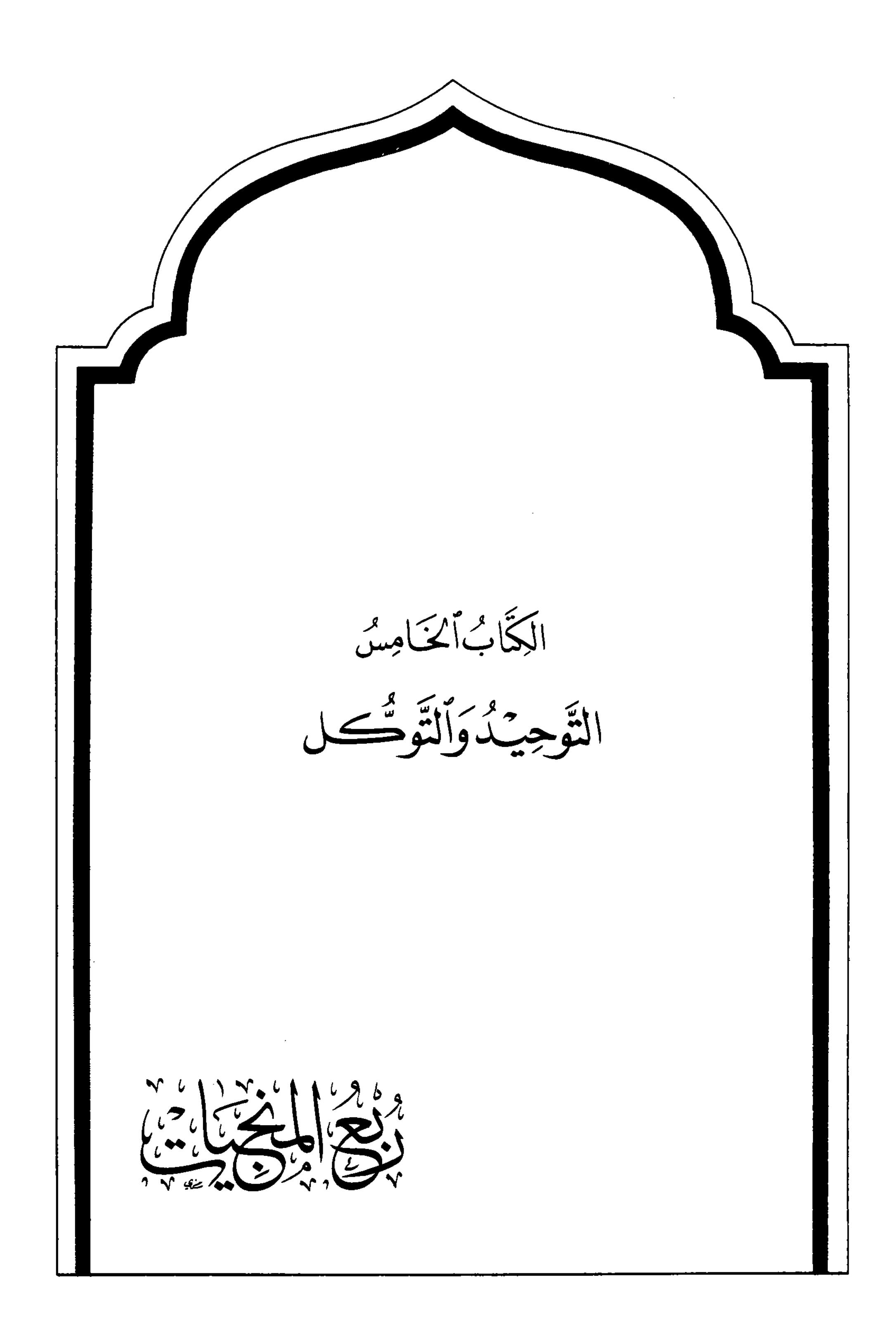
فإذن: علامة الزهد: استواء الفقر والغنى، والعز والذل، والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله.

قال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا.

---

(١) سورة الحديد: الآية (٢٣).





الكتاب الخامس

التوحيد والتوكل

ربع المنجيات



[تمهيد: مكانة التوكل]

التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقربين. وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل.

ووجه غموضه من حيث الفهم، أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنّة وقدح في الشرع.

وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع، في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء، مع شدة الخفاء، إلّا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق، فأبصروا وتحققوا، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا.

فضيلة التوكل:

قال الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

(١) سورة المائدة: الآية (٢٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (١٢).

وقال تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١).

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٢).

وأعظم بمقام موسوم صاحبه بمحبة الله تعالى، ومن كان الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه، فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يعذَّب ولا يبعَد ولا يحجَب.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٣).

أي عزيز لا يذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى حماه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره.

وقال عزَّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾(٤).

وقال عزَّ وجلّ:

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٥).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الذين لا يتطيرون

---

(١) سورة الطلاق: الآية (٣).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٤٩).

(٤) سورة العنكبوت: الآية (١٧).

(٥) سورة المنافقون: الآية (٧).

ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم» ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة»[١].

وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٢].

وقرأ الخواص[٣] قوله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[٤].

فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقال هرم بن حيان[٥] لأويس القرني[٦]: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ إلى الشام، قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس: أفٍّ لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة.

---

(١) متفق عليه (خ ٥٧٥٢، م ٢٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه (ع).

(٣) إبراهيم بن أحمد الخواص، كان أوحد المشايخ في عصره، وهو من أقران الجنيد، ولد في «سر من رأى»، ومات في جامع الري سنة (٢٩١)هـ. قال الخطيب البغدادي: له كتب مصنفة.

(٤) سورة الفرقان: الآية (٥٨).

(٥) هرم بن حيان العبدي: قال ابن عبد البر: هو من صغار الصحابة، مات في خلافة عثمان. وعده ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية من كبار التابعين، قال ابن سعد: ثقة له فضل، وكان على عبد القيس في الفتوح.

(٦) أويس بن عامر القرني، أحد العباد والنساك المتقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، أدرك النبي ﷺ ولم يره، وفد على عمر، ثم سكن الكوفة، شهد وقعة صفين مع علي، ويرجح أنه قتل فيها سنة (٣٧)هـ.

حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل:

اعلم أن التوكل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلاَّ بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من:

- علم: هو الأصل.
- وعمل: هو الثمرة.
- وحال: هو المراد باسم «التوكل».

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل، وهو المسمى «إيماناً» في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التصديق. وكل تصديق بالقلب فهو «علم» وإذا قوي سمي «يقيناً».

وأبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل، وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: «لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له» والإيمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك: «له الملك» والإيمان بالجود والحكمة التي يدل عليها قولك: «وله الحمد».

فمن قال: «لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» تمَّ له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني: أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه، غالباً عليه.

فأما التوحيد فهو الأصل، وله مراتب:

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه «لا إلّه إلاَّ الله» وقلبه غافل عنه أو منكر له، كتوحيد المنافقين. وهو توحيد بمجرد اللسان، يعصم صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان.

والرتبة الثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه، كما صدق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام. وصاحبه موحد: بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خالٍ عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه. وهذا التوحيد يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة، إن توفي عليه، ولم تضعف بالمعاصي عقدته.

والرتبة الثالثة: أن يشاهد ذلك ـ أي «لا إلّه إلاَّ الله» ـ.

وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهّار.

وهذا موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلاَّ فاعلاً واحداً، إذ انكشف له الحق كما هو عليه.

ومعنى بناء التوكل على التوحيد يرتبط بالرتبة الثالثة، وحاصله:

أن ينكشف لك أن لا فاعل إلاَّ الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع وحياة وموت، وغنى وفقر، إلى غير ذلك، فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عزَّ وجلّ، لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كان خوفك منه، وإليه رجاؤك، وبه ثقتك، وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون، لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض، وإذا فهمت هذا اتضح لك ذلك اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر.

[الجمع بين التوحيد والشرع]:

فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع؟

ومعنى التوحيد: أن لا فاعل إلاَّ الله تعالى.

ومعنى الشرع: إثبات الأفعال إلى العباد.

فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً؟ وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟

فأقول: نعم، ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد.

وإن كان له معنيان، وكان الاسم مجملاً مردداً بينهما لم يتناقض. كما يقال: قتل الأمير فلاناً، ويقال: قتله الجلاد. فالأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر.

فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله عزَّ وجلّ فاعل بمعنى آخر. فمعنى كون الله تعالى فاعلاً: أنه المخترع الموجد، ومعنى كون العبد فاعلاً: أنه المحل الذي خلق فيه القدرة.

فكما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً، لأن القتل ارتبط بقدرتهما، ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك سمي فعلاً لهما، فكذلك ارتباط المقـدورات بالقـدرتين. ولأجل توافق ذلك وتطابقـه، نسب الله تعالى الأفعـال في القرآن مـرة إلى الملائكـة ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه، فقال الله تعالى في الموت:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾(2).

وقال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾(3).

أضاف إلينا، ثم قال تعالى:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا﴾(4).

وقال تعالى:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(5).

فأضاف القتل إليهم، والتعذيب إلى نفسه. والتعذيب هو عين القتل.

بل صرح وقال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾(6).

---

(1) سورة السجدة: الآية (11).

(2) سورة الزمر: الآية (42).

(3) سورة الواقعة: الآية (63).

(4) سورة عبس: الآيات (25 ــ 28).

(5) سورة التوبة: الآية (14).

(6) سورة الأنفال: الآية (17).

وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً. ولكن معناه: وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً، إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً، إذ هما معنيان مختلفان.

فإذن: يستعمل الفعل على وجوه مختلفة، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت، فمن أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوِّز والمستعير في كلامه، وللتجوز وجه، كما أن للحقيقة وجهاً.

واسم الفاعل، وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلاً بحركته وظن أنه تحقيق، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز، مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلاد. فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس. وقالوا: إن «الفاعل» قد وضعته أيها اللغوي للمخترع فلا فاعل إلاَّ الله، فالاسم له بالحقيقة، ولغيره بالمجاز.

بيان حال التوكل:

ثم ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من: علم، وحال، وعمل، وقد ذكرنا العلم.

وأما الحال: فالتوكل ـ بالتحقيق ـ عبارة عنه، وإنما العلم أصله، والعمل ثمرته.

والتوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان، أي: فوَّضه إليه واعتمد عليه فيه. ويسمى الموكول إليه وكيلاً، ويسمى المفوَّض إليه متكلاً عليه، ومتوكلاً عليه، إذا اطمأنت إليه نفسه، ووثق به، ولم يتهمه بتقصير، ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً.

فالتوكل: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده.

ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول: من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس، لم يكن متوكلاً عليه، ولا واثقاً

به، ولا مطمئن النفس بتوكيله إلَّا إذا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة.

أما الهداية، فليعرف بها مواقع التلبيس، حتى لا يخفى عليه غوامض الحيل أصلاً، وأما القدرة والقوة، فليستجرىء على التصريح بالحق، فلا يداهن ولا يخاف ولا يجبن، وأما الفصاحة فللقدرة على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه، فليس كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس. وأما الشفقة، لتكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود.

فإن شك في الأربعة، أو في واحدة منها، أو جوَّز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه، لم تطمئن نفسه إلى وكيله.

إذا عرفت التوكل في هذا المثال، فقس عليه التوكل على الله تعالى.

فإن ثبت في نفسك أنه لا فاعل إلَّا الله تعالى ــ كما سبق ــ واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل ــ لا محالة ــ قلبك عليه وحده، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، ولا إلى نفسه وحوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلَّا بالله، كما سبق في التوحيد.

فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين:

ــ إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة.

ــ وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن وغلبة الأوهام عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم، وطاعة له، من غير نقصان في اليقين.

فلو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً بكونه ميتاً، وأنه جماد في الحال، وأن سنَّة الله مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه، وإن كان قادراً عليه. ومع هذا اليقين فإن طبعه ينفر من ذلك، ولا ينفر من سائر الجمادات. وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف، قلَّما

يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قلَّ، وقد يقوى فيصير مرضاً، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده، مع إغلاق الباب وإحكامه.

فإذن: لا يتم التوكل إلَّا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعاً. وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة لها من القوة والضعف ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته، كحالة الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى، كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلَّا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن نابه أمر في غيبتها، كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه هو أمه، فهي مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية من نوع إدراك بالتمييز الذي له.

والفرق بين هذه وبين الأولى: أن هذا متوكل، وقد فني في توكله عن توكله، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه فقط، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول: فيتوكل بالتكلف والكسب، وليس فانياً عن توكله، لأن له التفاتاً إليه، وشعوراً به.

الدرجة الثالثة: وهي أعلاها، أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يختلف عنه إلَّا في أنه يرى نفسه ميتاً، تحركه القدرة الأزلية، كما تحرك يد الغاسل الميت.

ومثل هذا مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه، فالأم تطلبه، وإن لم يسألها اللبن فالأم تسقيه.

وليس من شرط التوكل، ترك كل تدبير وعمل، وسيأتي تفصيل ذلك.

بيان أعمال المتوكلين:

اعلم أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهال.

وذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟

ونكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده وسعي العبد باختياره:

- إما أن يكون لأجل جلب نافع، هو مفقود عنده، كالكسب.
- أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار.
- أو لدفع ضار لم ينزل به كسارق وصائل.
- أو لإزالة ضار قد نزل كالتداوي من المرض.

ومقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها.

الفن الأول: في جلب النافع

الأسباب التي يجلب بها النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون، وموهوم.

الدرجة الأولى: المقطوع به، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله ومشيئته، ارتباطاً مطرداً لا يختلف، كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك، وأنت جائع، ولكنك لست تمد يدك إليه وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إليه سعي.. فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء.

فإنك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، فقد جهلت سنّة الله تعالى. وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر؛ فكل هذا جنون.

فالتوكل علم وحال، أما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد.. وأما الحال: فهو أن يكون سكون قلبك واعتماده على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام.

وإذا كان هذا حاله فليمد يده فإنه متوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله: من يفارق الأمصار ويخرج مسافراً إلى البوادي دون استصحاب الزاد. فهذا ليس شرطاً في التوكل. واستصحاب الزاد سنّة الأولين.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات، من غير ثقة ظاهرة، كالذي يتكسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح، فهذا يخرج عن درجات التوكل. أما الاكتساب بطريق فيه شبهة فإنه يبطل التوكل.

فإن قلت: فهل من دواء ينفع في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة، وحسن الظن بالله في تيسير الأسباب الخفية؟

فأقول: نعم، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الله تعالى. **قال تعالى**:

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾[1].

فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان. وإذا انضم إلى ذلك الجبن وضعف القلب، ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة، غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية..

قال إمام لمسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٨).

الفن الثاني: التعرض لأسباب الادخار

من حصل له مال بإرث أو كسب أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت، فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً، ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدخره إلَّا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه، فيدخره على هذه النية. فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً، وهي الدرجة العليا.

الثانية: المقابلة لهذه، المخرجة له عن حدود التوكل، أن يدخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً.

الثالثة: أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها، وقد اختلف في حكمه بالنسبة للتوكل.

وهذا كله حكم المنفرد، فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم، وتسكيناً لقلوبهم. وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين، فادخاره على ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه. وذلك يناقض قوة التوكل. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة[1].

فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال. وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر.

وذلك كالنوم في الأرض المسبعة[2]، أو في مجاري السيل من الوادي،

---

(١) متفق عليه. (ع)، ففي الصحيحين: «كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم» (خ ٣٠٩٤).

(٢) أي: الأرض ذات السباع والوحوش.

أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر. فكل ذلك منهي عنه، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة.

وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال، فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير، لأن هذه أسباب عرفت بسنَّة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً.

ولذلك قال تعالى:

﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[1].

وقال في صلاة الخوف:

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[3].

واختفى ﷺ في الغار عن أعين الأعداء دفعاً للضرر[4].

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر

وذلك كمداواة المرض وأمثاله.

اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم:

- إلى مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع.

- وإلى مظنون: كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل.

---

(١) سورة النساء: الآية (٧١).

(٢) سورة النساء: الآية (١٠٢).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٦٠).

(٤) وهذا أثناء هجرته ﷺ إلى المدينة، وقد ذكر القرآن ذلك.

ـ وإلى موهوم: كالكي والرقية.

أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت.

وأما الموهوم، فشرط التوكل تركه، إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين، وأقواها الكي ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها.

وأما الدرجة المتوسطة، وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء، ففعله ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع.

ويدل على أن التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله ﷺ، وقوله، وأمره به. فقد قال ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله خلق الداء وخلق الدواء»[1].

وقد تداوى من السلف كثيرون، وترك بعضهم التداوي:

فقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له: لو دعونا لك طبيباً؟ فقال: الطبيب قد نظر إلي وقال: إني فعال لما أريد.

وقيل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي، قالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

إظهار المرض وكتمانه:

واعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر، وهو من أعلى المقامات، لأن الرضا بحكم الله، والصبر على بلائه، معاملة بين العبد وبين الله عزَّ وجلّ، فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد:

كأن يكون غرضه التداوي فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا في معرض الشكاية، بل في معرض الحكاية.

---

(١) رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه (ع).

أو أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى . .

فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض. وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله حرام، ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهية لفعل الله تعالى. فإن خلا عن قرينة السخط، وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم، ولكن يحكم فيه بأن تركه أولى، لأنه ربما يوهم الشكاية.

ومن ترك التداوي توكلًا، فلا وجه في حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء.

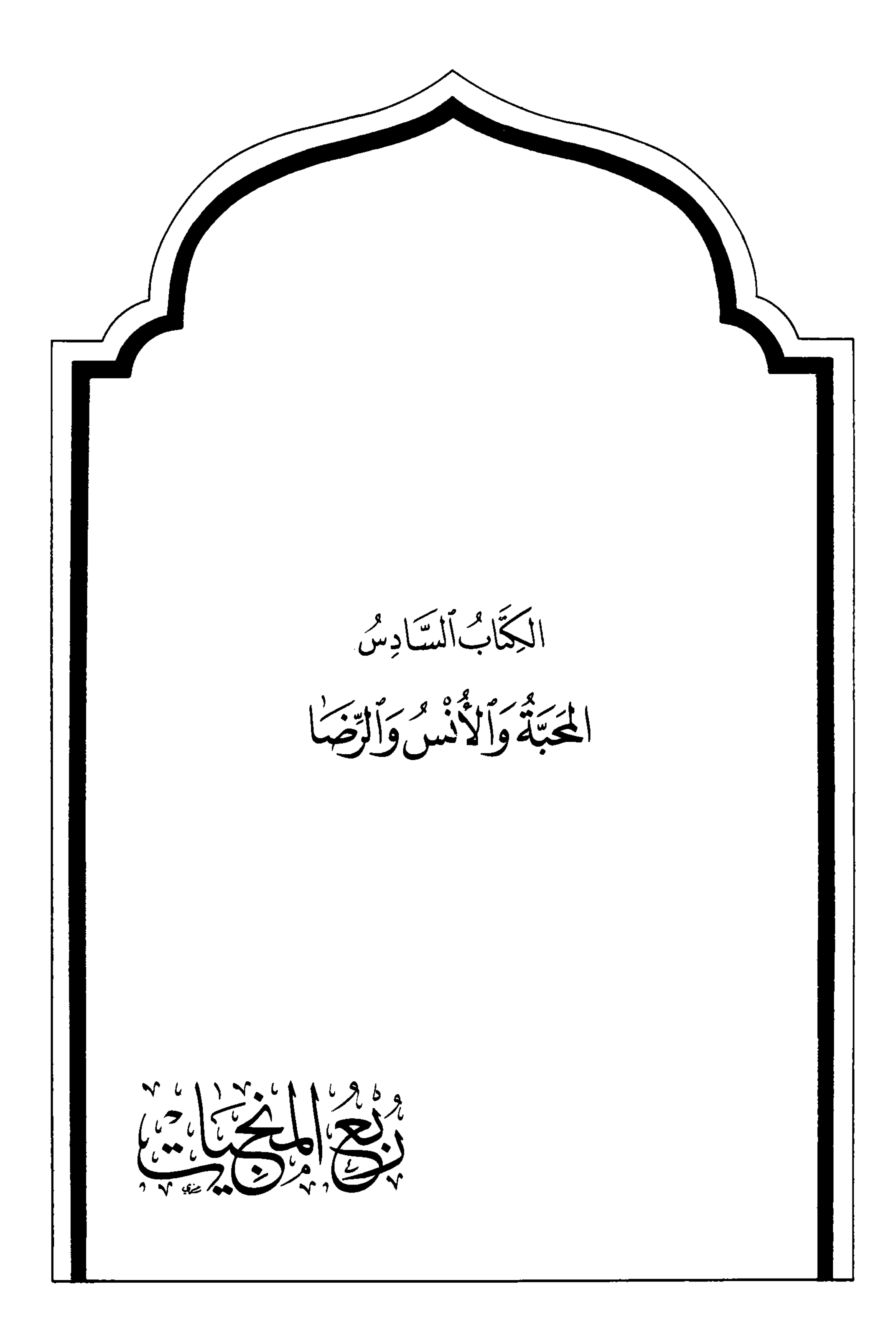
وقد قال بعضهم: من بث لم يصبر، وقيل في معنى قوله تعالى:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1].

لا شكوى فيه.

***

(١) سورة يوسف: الآية (١٨).


الكتاب السادس
المحبة والأنس والرضا
ربع المنجيات



[تمهيد: مكانة المحبة]

المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد.

وأما محبة الله تعالى، فقد عز الإيمان بها، حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال: لا معنى لها إلاَّ المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال، ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة.. ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر.

شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى:

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع للحب وثمرة له؟ فلا بد وأن يتقدم الحبُّ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب.

ويدل على إثبات الحب لله تعالى، قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٢).

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٦٥).

وهو دليل على إثبات الحب، وإثبات التفاوت فيه.

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة، ففي الحديث قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»[1] وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين»[2].

وكيف وقد قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3].

وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار.

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها؟» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة وصيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له ﷺ: «المرء مع من أحب» قال أنس: (فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك)[4].

حقيقة المحبة وأسبابها:

لا بد لمعرفة حقيقة المحبة من معرفة الأصول التالية:

الأصل الأول: لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا

---

(١) متفق عليه (خ ١٦، م ٤٣) بلفظ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

(٢) متفق عليه (خ ١٥، م ٤٤).

(٣) سورة التوبة: الآية (٢٤).

(٤) متفق عليه (خ ٦١٧١، م ٢٦٣٩).

مـا يعرفـه، ولذلـك لم يتصور أن يتصف بـالحب جماد، بـل هو من خـاصيـة الحي المدرك.

والمدركات تنقسم إلى ما يوافق الـطبع، وإلى مـا ينافيـه، فكل مـا في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض.

فإذن: كل لذيذ محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرة عنه، وإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي «عشقاً»، وإن قوي ذلك الكره سمي «مقتاً» وهذا أصل في حقيقة معنى الحب.

الأصـل الثاني: أن الحب لمـا كان تـابعاً لـلإدراك والمعرفـة، انقسم بحسب المـدركـات والحـواس، فكـل حـاسـة لهـا إدراك، فلذة العين في الإبصـار وإدراك المبصرات الجميلة. . وكذا الأذن. .

والطبع السليم له ميل إلى مدركات الحواس المحبوبـة، قال ﷺ: «حبب إلي من دنيـاكم الـطيب والنســاء، وجعلت قـرة عيني في الصــلاة»[1]، فسمى الـطيب محبوباً، وهو للشم فقط، وسمى النساء محبوبات، وسمى الصلاة قرة عين وجعلهـا أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنـه ليس تحظى بهـا الحواس الخمس، بـل حس سادس مظنته القلب، لا يدركه إلا من كان له قلب.

الأصـل الثالث: لا يخفى أن الإنسـان إنمـا يحب نفسـه، ولا يخفى أنـه قـد يحب غيره لأجل نفسه، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته، لا لأجل نفسه؟ هـذا مما يشكـل على الضعفاء، حتى يـظنون أنـه لا يتصـور ذلـك. والحق أن ذلـك متصـور وموجود لأسباب:

الأول: أنّ المحبوب الأول عند كل حي ذاته، وكمال ذاته، ودوام ذلـك كله، والمكروه عنده ضد ذلك.

الثاني: الإحسان، فإن الإنسان عبد الإحسان، وجبلت القلوب على حب من

---

(١) أخـرجه التـرمذي (ع) وكـذا الإمام أحمـد وأبو يعلى والـطبـراني في الأوسط والبيهقي في السنن (ش).

أحسن إليها، وبغض من أساء إليها. وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة مما يتهيأ به حصول الحظوظ.

الثالث: أن يحب الشيء لذاته، لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن.

فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها.

والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان، الحسنة الشكل، المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الهموم بالنظر إليها، لا لطلب حظ وراء النظر.

الأصل الرابع: في بيان الحسن والجمال:

أعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات، ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال، إلا تناسب الخلقة والشكل، وحسن اللون.. فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى الصور، وهذا خطأ ظاهر، فإن الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، فإنا نقول: هذا خط حسن، وهذا صوت حسن، وهذا إناء حسن، فأي معنى لحسن الصوت والخط، إن لم يكن الحسن إلا في الصور؟!

ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كانت جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الخط، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب.

واعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة. . وهذه الصفات لا تدرك بالحواس بل بنور البصيرة الباطنة، وآية ذلك وأن الأمر كذلك: أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وعلى حب الصحابة مع أنهم لم يشاهدوا.

وإذن: ترجع أقسام الحب إلى الأسباب الآتية:

ـ حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه.

ـ وحبه من أحسن إليه.

ـ وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس.

ـ وحبه لكل ما هو جميل في ذاته.

وإذا اجتمعت هذه الأسباب في شخص تضاعف الحب لا محالة.

المستحق للمحبة هو الله وحده:

إن الأسباب ـ السابقة ـ لا يتصور كمالها واجتماعها إلاَّ في حق الله تعالى. فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

وإن من أحب غير الله ـ لا من حيث نسبته إلى الله ـ فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب. وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز إلى غيره.

وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حقه سبحانه وتعالى بجملتها، ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حقه تعالى، ومجاز ووهم في حق غيره.

أما السبب الأول: وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه، وهو جبلة كل حي، فيقتضي غاية المحبة لله تعالى. فإن من عرف نفسه، وعرف ربه، عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته، وإنما كمال وجوده من الله، فهو المخترع الموجد له، وهو المبقي له.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟!

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن إليه وواساه، ولاطفه بكلامه، وأمده بمعونته، وقمع أعداءه، ودفع شر الأشرار عنه.. فهذا يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى، لأنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط، فأنواع إحسانه إلى عبيده ليس يحيط بها حصر، كما قال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وأما السبب الثالث: وهو حب المحسن لذاته، وإن لم يصل إليك إحسانه، فإذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم، رفيق بالناس متلطف بهم، متواضع لهم.. فإنك تجد في قلبك ميلاً إليه، مع أنك آيس من خيره..

وهذا المعنى يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً، إلا من تعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلى الكافة، والمتفضل على جميع أصناف الخلائق.

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال، لا لحظ يدرك من وراء إدراك الجمال، فقد بينا أن الطباع مجبولة على ذلك.

وكل جمال محبوب، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب بالقلب، كحب الأنبياء، فإنه إدراك بالقلب لحسن الصورة الباطنة، من العدل والكرم.. فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى.

أما العلم، فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال تعالى:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٤).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

وأما صفة القدرة، فهي كمال، والعجز نقص، وإن الإنسان ليسمع شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما فيهتز قلبه فرحاً بمجرد السماع فضلاً عن المشاهدة، وذلك يورث في القلب حباً ضرورياً للمتصف به فإنه نوع كمال. فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى..؟! فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء، فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته، فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً سبحانه وتعالى.

وأما صفة التنزه عن العيوب.. فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق، الملك القدوس، ذي الجلال والإكرام.

فإذن: الجميل محبوب، والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندَّ له، الفرد الذي لا ضدَّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل مايشاء، ويحكم ما يريد، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض.

معرفة الله تعالى:

وبيان أن أجل اللذات معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة.

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذتها، كالسمع والبصر والشم..

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي قال تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١).

وقد تسمى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين.

(١) سورة الزمر: الآية (٢٢).

وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم، وذلك لذتها، وهي الصفة التي فارق الإنسان بها البهائم، وبها يدرك معرفة الله تعالى.

وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة، حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، والذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به.

وليست لذة العلم بالخياطة.. كالعلم بالله وملائكته.. بل لذة العلم بقدر شرف العلم. وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، وبهذا تبين أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها، ومكملها ومزينها، ومبدئها ومعيدها، ومديرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال، والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية، التي لا يحيط بمبادىء جلالها وصف الواصفين؟

فإن كنت لا تشك في ذلك، فينبغي أن لا تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية، والعلم بترتيب الأمور الإلهية بكل الموجودات، هو أعلى أنواع المعارف وألذها، وبهذا يتبين أن العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وتدبيره في ملكه.

وينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من لذة سائر الحواس الخمس، فالمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة. وأعلى اللذات الباطنة هي لذة الرياسة، ولذة معرفة الله تعالى ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق.

ثم هذه المعرفة أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى. ومحلها الروح، الذي هو أمر رباني سماوي.

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض، وكل عارف فله مثلها، من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم. وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال: من ذاق عرف.

ولعمري، إن طلاب العلوم ـ وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ـ قد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها ـ أيضاً ـ معارف وعلوم، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية. فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به. وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى.

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها.

لذة الرؤية ولذة المعرفة:

اعلم أن المدركات تنقسم:

ـ إلى ما يدخل في الخيال: كالصور المتخيلة والأجسام الملونة، والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات.

ـ وإلى ما لا يدخل في الخيال، كذات الله تعالى، وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها.

ومن رأى إنساناً، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر، أدرك تفرقة بينهما.

إذن: فالخيال أول الإدراك، والرؤية هي الاستكمال لإدراك الخيال، وهو غاية الكشف، وسمي ذلك «رؤية» لأنه غاية الكشف، لا لأنه في العين.

وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بد من ارتفاعها لحصول الرؤية. وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد تخيل، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات، وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال.

بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار، والقول في سبب كونها حجاباً يطول. ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام:

﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[2].

أي: في الدنيا، والصحيح أن الرسول ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج[3].

فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة.

فمن لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة.

فلذة النظر في الآخرة تزيد على لذة المعرفة في الدنيا، وهي أضعافها.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٠٣).

(٣) حديث أنه ﷺ ما رأى ربه ليلة المعراج في الصحيح، وفي الصحيحين من قول عائشة أنها قالت: (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب) ولمسلم من حديث أبي ذر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه» (ع).

وسائر الخلق نظرهم مقصور على شهوات الدنيا، إذا اتسعت أحبوا البقاء، وإن ضاقت تمنوا الموت، وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة، وهما مغرس كل شقاوة. والعلم والمعرفة أساس كل سعادة.

فقد عرفت بما ذكرناه: معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال.

الأسباب المقوية لحب الله تعالى:

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها: القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه، وهذا النعيم على قدر قوة الحب، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة.

وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا، وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وإنما يحصل ذلك بسببين:

الأول: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء، لا يتسع للخل ـ مثلاً ـ ما لم يخرج منه الماء. وكمال الحب: في أن يحب الله عزَّ وجلّ بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، فبقدر ما يشغل بغير الله، ينقص منه حب الله.

فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب، قوة حب الدنيا، ومنه: حب الأهل والمال، والولد والأقارب، والعقار والبساتين، وبقدر ما يأنس بالدنيا، ينقص أنسه بالله، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً، إلَّا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة.

وسبيل قلع حب الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وكل ذلك مقدمات تطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[1].

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣).

الثاني: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وذلك ـ بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها ـ يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش، وهو الشطر الثاني.

ثم يتولد من ذلك البذر شجرة المحبة والمعرفة، وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(1).

ومهما حصلت هذه المعرفة، تبعتها المحبة بالضرورة، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة ـ بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب ـ إلاَّ بالفكر الصافي، والذكر الدائم، والجد البالغ في الطلب والنظر الدائم في ملكوت السماوات وسائر المخلوقات.

ويتفاوت المؤمنون في الحب، وإن كانوا مشتركين في أصله، وسبب ذلك تفاوتهم في المعرفة، وفي حب الدنيا. وأكثر الناس ليس لهم من [معرفة] الله تعالى إلاَّ الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم، فآمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين.

ونضرب مثالاً لتفاوت الحب فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حبه، منهم الفقهاء ومنهم العوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله وعلمه، ولكن العامي يعرف علمه مجملاً، والفقيه يعرفه مفصلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم، وإعجابه به وحبه له أشد.

والعالَم بجملته صنع الله تعالى، والعامي يعتقد ذلك، وأما البصير فإنه يطالع

---

(1) سورة إبراهيم: الآية (٢٤).

تفصيل صنع الله تعالى فيه، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل بذلك على عظمة الصانع وجلاله، وبحر هذه المعرفة لا ساحل له، فلا جرم يتفاوت أهل المعرفة في الحب.

ومن أحب الله تعالى لكونه محسناً إليه ومنعماً إليه، كان حبه أضعف من حب من أحبه لذاته، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته. والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1].

سبب قصور الأفهام عن معرفته تعالى:

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى. وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضد من ذلك، فلا بد من بيان السبب.

وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات، لمعنى نوضحه بالمثال التالي: وهو أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً، كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وإرادته للخياطة أو الكتابة أمر جلي عندنا من غير أن يتعلق حسّ البصر بهذه الصفات، لأنها لا تدرك بشيء من الحواس الخمس، ولم تعرف حياته وقدرته وإرادته إلاّ بخياطته أو كتابته وحركته.

وهذا دليل واحد على وجود الخياط وحياته وعلمه وقدرته، وهو مع ذلك جلي واضح.

ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه، وسائر صفاته، يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة، من حجر ومدر، ونجوم وكواكب، وشجر وحيوان، وسماء وأرض، وجوهر وعرض. بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا..

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٢١).

فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا، وليس لها إلاَّ شاهد واحد، وهو ما أحسسنا به من حركة يده، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور شيء في الوجود، داخل نفوسنا وخارجها إلاَّ وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟ إن كل ذرة تنادي بلسان حالها أن ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وإنما تحتاج إلى موجد ومحرك لها.

وتقصر العقول عن الفهم في حالتين:

إحداهما: خفاء الشيء في نفسه وغموضه، وهذا لا يحتاج إلى مثال.

الثانية: ما تناهى وضوحه. ومثاله الخفاش الذي يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش الذي يبهره نور الشمس إذا أشرقت. فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلاَّ إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

وكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلٓهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الشمول، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره.

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإنّا لا نشاهد في الأسود إلاَّ السواد وفي الأبيض إلاَّ البياض. فأما الضوء فلا ندركه وحده، فإذا غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه. وما كنا نطلع عليه ــ لولا عدمه ــ إلاَّ بعسر شديد.

هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، وهو ظاهر في نفسه ومظهر لغيره. انظر كيف تتصور استبهام أمره بسبب ظهوره، لولا طريان ضده؟

فالله تعالى هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها. فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاءً، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

محبة الله للعبد ومعناها:

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله يحب عبده. قال الله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

ورد الله على من ادعى أنه حبيب الله فقال:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[4].

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[5].

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الحديث[6].

والمحبة في وضع اللسان، عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق. وحب الله للعبد لا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى، وعلى غيره، لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً. وواضع اللغة

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤).

(٢) سورة الصف: الآية (٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٢٢).

(٤) سورة المائدة: الآية (١٨).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٣١).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).

إنما وضع هذه الأسامي للخلق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل.

فإذن محبة الله للعبد: هي تقريبه إليه، بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه، حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم أن المحبة يدَّعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى، وما أعز المعنى. فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة.

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة، دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار. وهي كثيرة:

● **منها**: حب لقاء الحبيب، وإذا علم أنه لا وصول إلاَّ بالارتحال عن الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت، غير فارٍّ منه، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه، ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المشاهدة. قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[1].

وفي وصية أبي بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما: «إن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا.. فإذا حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه»[2].

---

(١) متفق عليه(خ ٦٥٠٧، م ٢٦٨٣).

(٢) ذكر المصنف آخر الوصية وذكرت أولها من الشرح للزبيدي (٨/٦١٦)، وقال: أخرجها أبو نعيم في الحلية.

وكان الثوري وبشر الحافي يقولان: لا يكره الموت إلاَّ مريب، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه.

وأما من كره الموت، فقد يكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد. وهذا ينافي كمال حب الله تعالى، ولا يبعد أن يكون له مع حب الأهل شائبة من حب الله ضعيفة فإن الناس متفاوتون في الحب.

وقد يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت، وإنما يكره عجلته، قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب. وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره، ويعد له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل. فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً، وعلامته الدأب في العمل، واستغراق الهمّ في الاستعداد.

● ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات.

وبالجملة فإن في دعوى المحبة خطراً، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك: أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقت.

● ومنها: أن يكون مولعاً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره، وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ، وحب كل من ينسب إليه. وذلك ليس شركة في الحب، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، لم يتجاوز حبه إلى غيره، بل هو دليل على كمال حبه.

● ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاته لله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدأة الليل، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله، كيف تصح محبته؟

قيل لإبراهيم بن أدهم، وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ قال: من الأنس بالله.

وقال قتادة في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

قال: هشَّت إليه واستأنست به.

● ومنها: أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عزَّ وجلَّ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والتوبة.

● ومنها: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها. كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة.

● ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه، كما قال الله تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه على الغضب لله صارف.

فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه فقد تمت محبته، وخلص حبه، فصفا في الآخرة شرابه، ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه. كما قال تعالى:

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[3].

أي: وافق الجزاء أعمالهم.

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٢) سورة الفتح: الآية (٢٩).

(٣) سورة النبأ: الآية (٢٦).

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

● **ومنها**: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم.

وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد. وهذا المعنى في سورة هود، هو الذي شيَّب سيد المحبين[2] إذ سمع قوله تعالى:

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾[3].

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[4].

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب، وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين، يشيب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد.

● **ومنها**: كتمان الحب، واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار المحبة تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبة منه، لأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حدَّ المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، فتعظم عليه العقوبة في العقبى، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا.

فإن قلت: المحبة منتهى المقامات، وإظهارها إظهار للخير، فلماذا يستنكر؟

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧ ـ ٨).

(٢) حديث: «شيبتني هود وأخواتها» أخرجه الترمذي من حديث أبي جحيفة، وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه. قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري (ع).

(٣) سورة هود: الآية (٦٨).

(٤) سورة هود: الآية (٩٥).

فاعلم: أن المحبة محمودة، وظهورها محمود أيضاً، وإنما المذموم التظاهر بها، لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينمَّ عن حبه الخفي أفعالُه وأحواله دون أقواله، وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب، وقادح فيه.

فإذن: من عرف نفسه وعرف ربه، واستحيا منه حق الحياء، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى.

دخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ـ ممن كان يذكر المحبة ـ فرآه مبتلى ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره، فقال الرجل: لكني أقول: لا يحبه من لم يتنعم بضره، فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

● **ومنها**: الأنس والرضا، كما سيأتي.

معنى الأنس بالله تعالى وآثاره

قد ذكرنا أن الأنس والخوف من آثار المحبة، إلَّا أن هذه الآثار مختلفة، تختلف على المحب بحسب نظره، وما يغلب عليه في وقته.

والأنس معناه: استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال.

ومن غلب عليه حال الأنس، لم تكن شهوته إلَّا في الانفراد والخلوة. كما حكي عن إبراهيم بن أدهم أنه نزل من الجبل فقيل له: من أين أقبلت؟ فقال: «من الأنس بالله». فالأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله. بل كل ما يعوق عن الخلوة يكون من أثقل الأشياء على القلب.

وعلامة الأنس، ضيق الصدر من معاشرة الخلق، والتبرم بهم، والولع بعذوبة الذكر، فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر.

وذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والحب، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه، وذلك جهل منه: بأن جمال المدركات بالبصائر، أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب.

ومن **آثار الأنس**: أنه إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق ولم ينغصه خوف، فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى. وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم مقام الأنس. ومن تشبه بأهل ذاك المقام في الفعل والقول، هلك به وأشرف على الكفر.

ومن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾[1].

وعندما قيل له:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[2].

قال في الاعتذار:

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾[3].

وقال:

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾[4].

وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب، ولكنه أقيم في مقام الأنس فيلاطف ويحتمل.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

(٢) سورة طه: الآية (٢٤). كان الأولى ذكر الآيتين اللتين في الشعراء وهما: ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون﴾. الآيتان: [١٠ ــ ١١]. وذلك لتكون الآيات في هٰذا الموضوع من سورة واحدة.

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٣).

(٤) سورة الشعراء: الآية (١٤).

ولم يحتمل يونس عليه السلام فيما دون ذلك، لما أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت ــ في ظلمات ثلاث ــ وقيل في حقه:

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾(١).

ونهى نبينا ﷺ أن يقتدي به وقيل له:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(٢).

وهذه الاختلافات، بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد. وقد قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾(٤).

مقام الرضا

اعلم أن الرضا بقضاء الله تعالى ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلّا لمن علمه الله تعالى التأويل، وفهمه وفقهه في الدين.

وقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي. وانخدع بذلك قوم، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق، وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولنبدأ ببيان فضيلة الرضا.

---

(١) سورة القلم: الآية (٤٩).

(٢) سورة القلم: الآية (٤٨).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٥٥).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٥٣).

فضيلة الرضا:

قال تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[2].

ومنتهى الإحسان رضا الله من عبده.

وقال تعالى:

﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[3].

فقد رفع الله تعالى الرضا فوق جنات عدن.

وقال ﷺ: «طوبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً ورضي به»[4].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لأن ألحس جمرة، أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت أحب إليَّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن ليته كان.

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت، إذ لم تخرج في عيني.

وقال ميمون بن مهران: من لم يرضَ بالقضاء، فليس لحمقه دواء.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلَّا في مواقع القدر.

وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت، من شدة أو رخاء.

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٩)، وسورة المجادلة: الآية (٢٢)، وسورة البينة: الآية (٨).

(٢) سورة الرحمن: الآية (٦٠).

(٣) سورة التوبة: الآية (٧٢).

(٤) أخرجه مسلم بلفظ «وقنع به» برقم (١٠٥٤).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

حقيقة الرضا:

إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهمِّ به، فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين:

الأول: أن يبطل الإحساس بالألم، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله: الرجل المحارب، فإنه في حال غضبه، أو في حال خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحسُّ بألم ذلك لشغل قلبه.

وكذلك المحب المستغرق الهم بمشاهدة محبوبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا حبه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه.

هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟

الثاني: أن يحسَّ به، ويدرك ألمه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه مريداً له، أعني بعقله، وإن كان كارهاً بطبعه. كالذي يلتمس من الفَصّاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألم ذلك، إلَّا أنه راضٍ به وراغب فيه.

وكذلك من يسافر في طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيَّبَ عنده مشقة السفر، وجعله راضياً بها.

ومن أصابه بلية من الله تعالى، وكان على يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه، هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه.

قال شقيق البلخي[1]: من يرى ثواب الشدة، لا يشتهي المخرج منها.

فالرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين.

---

(١) شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، صوفي زاهد، من مشاهير المشايخ في خراسان. من أول من تكلم بالأحوال الصوفية فيها. كان من كبار المجاهدين، استشهد في غزوة كولان بما وراء النهر سنة (١٩٤)هـ.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا:

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقامه، وكذاك كراهة المعاصي ومقت أهلها، ومقت أسبابها، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد غلط في ذلك بعض البطالين المفترين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عزَّ وجلّ، فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء، فقد تعبدنا به، وكثرة دعوات الرسول ﷺ تدل عليه. وقد كان ﷺ في أعلى مقامات الرضا، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله:

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1].

وأما إنكار المعاصي وكراهتها، وعدم الرضا بها، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال:

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2].

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم، فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى:

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾[4].

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى. فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال، وهو قادح في التوحيد، وإن كانت

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٩٠).
(٢) سورة التوبة: الآية (٩٣).
(٣) سورة آل عمران: الآية (٢٨).
(٤) سورة الأنعام: الآية (١٢٩).

بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى. وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض؟

فاعلم: أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق. وهو جهل محض.

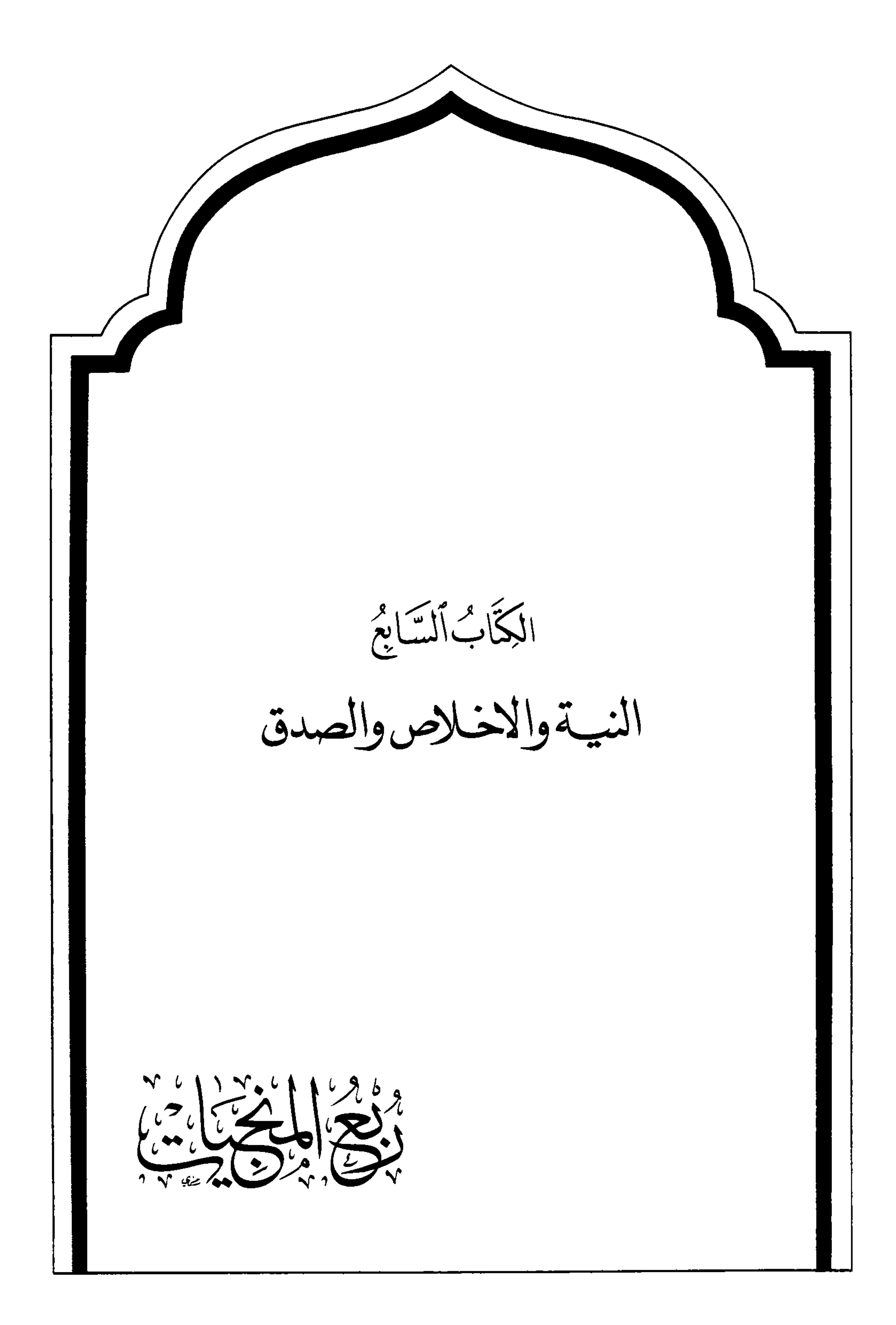
بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فليس من التضاد في شيء واحد: أن يكرهه من وجه، ويرضى به من وجه، إذ قد يموت عدوك، الذي هو ــ أيضاً ــ عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك.

وكذلك المعصية لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنها فعله واختياره وإرادته، فيرضى به من هذا الوجه، تسليماً للملك في ملكه ورضا بما يفعله فيه. ووجه إلى العبد، من حيث إنه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتاً عند الله، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم.

بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله، والحب في الله، والتشديد على الكفار، والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضا بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاء الله عزَّ وجلّ.

وبهذا يعرف أيضاً: أن الدعاء بالمغفرة، والعصمة من المعاصي، وسائر الأسباب المعينة على الدين، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج منهم الدعاء صفاء الذكر، وخشوع القلب، ورقة التضرع، كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب. فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به.

وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنَّة الله تعالى لا يناقض التوكل، فهو أيضاً لا يناقض الرضا، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل.



الكِتَابُ السَّابِعُ

النية والاخلاص والصدق

ربع المنجيات

الـوظيفة الأولى على كـل عبد أراد طـاعة الله تعـالى أن يتعلم النيـة أولاً، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخـلاص. ونحن نذكـر معاني الصـدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصدق وحقيقته.

الباب الأول
في النية

فضيلة النية:

قال تعالى:

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾[1].

فجعل النية سبب التوفيق.

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

وقال ﷺ: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[3]. وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية.

وفي حديث أنس بن مالك: (إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٥).

(٢) متفق عليه (خ ٦٦٨٩، م ١٩٠٧).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٦٤، م ٣٤).

المدينة فقال: «إن بالمدينة أقواماً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1]، فشركوا بحسن النية.

وورد في أخبار كثيرة قوله ﷺ: «من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة»[2].

وفي حديث أم سلمة: أن النبي ﷺ ذكر جيشاً يخسف بهم ببيداء، فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المكره والأجير، فقال: «يحشرون على نياتهم»[3].

وقال ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[4].

وقال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه»[5].

وقال عمر رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل، كما تتعلمون العمل.

وروي أن رجلاً من بني إسرائيل، مرَّ بكثبان رمل في مجاعة، فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٢٣) واللفظ له، ومسلم برقم (١٩١١)، ولم يذكر غزوة تبوك.
(٢) متفق عليه (خ ٦٤٩١، م ١٣٠).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٢) وكذا أبو داود.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٨).
(٥) متفق عليه (خ ٣١، م ٢٨٨٨).

قـل له: إن الله تعـالى قد قبـل صـدقتـك وقـد شكـر حسن نيتـك، وأعـطاك ثـواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به.

حقيقـة النيـة:

اعلم أن «النية» و «الإرادة» و «القصد» عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل يتبع العلم لأنه ثمرته وفرعه.

وذلك لأن كل عمل ـ أعني: كل حـركة وسكـون اختياري ـ فـإنه لا يتم إلاَّ بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة.

لأن الإنسان لا يريد ما لا يعلمه، فلا بد وأن يعلم.

ولا يعمل ما لم يرد، فلا بد من إرادة.

ومعنى الإرادة: انبعـاث القلب إلى ما يـراه موافقـاً للغرض، إمـا في الحال، أو في المآل.

فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمـور ويلائم غـرضه، ويخـالفه بعض الأمـور، فيحتاج إلى جلب المـلائم الموافق إلى نفسـه، ودفع الضـار المنـافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع، حتى يجلب هذا، ويهرب من هذا.

فالنية: عبارة عن الإرادة وانبعاث النفس ـ بحكم الرغبة والميل ـ إلى ما هـو موافق للغرض، إما في الحال، وإما في المآل.

فالمحرك الأول: هو الغرض المطلوب، وهو الباعث.

والغرض الباعث: هو المقصد المنوي.

والانبعاث: هو القصد، والنية.

وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل.

وانتهاض القدرة قد يكون بباعث واحد، وقـد يكون ببـاعثين اجتمعا في فعـل

واحد، وعندها نكون أمام واحد من أربعة أقسام:

الأول: أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد، كما إذا هجم على الإنسان سبع، فلا مزعج له إلاّ غرض الهرب منه، فيقال: نيته الفرار من السبع، لا نية له في القيام غيره. وهذه النية تسمى خالصة، ويسمى العمل بموجبها «إخلاصاً» بالإضافة إلى الغرض الباعث. ومعناه: أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

الثاني: أن يجتمع باعثان. كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد، ومثاله أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها له: لفقره ولقرابته. وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها لمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها لمجرد الفقر. وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره القريب الغني فيقضي حاجته، ويحضره الأجنبي الفقير فيقضي حاجته أيضاً.

فقد اجتمع باعثان على الفعل وكان الثاني رفيق الأول. فلنسمِّ هذا: «مرافقة البواعث».

الثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهماً فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث القدرة بباعثين. ولنسمِّ هذا الجنس «مشاركة».

الرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إليه، لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل. ومثاله: أن يكون للإنسان عادة في الصدقات. فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس. فصار الفعل أخف بسبب مشاهدتهم. وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً، لم يفتر عن عمله، فهو شوب تطرق إلى النية. ولنسمِّ هذا الجنس «المعاونة».

فالباعث الثاني: إما أن يكون «رفيقاً» أو «شريكاً» أو «معيناً» وسنذكر حكمها في باب الإخلاص.

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: معاصٍ، وطاعات، ومباحات.

القسم الأول: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي للجاهل أن يفهم ذلك من عموم قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مسجداً أو مدرسة بمال حرام، وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية.

بل قصد الخير بالشر ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاصٍ بجهله.

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار، والمشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هممهم على مماراة العلماء، ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس، وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا، ويتبع الهوى، ويتباعد عن التقوى.

ولذلك كان علماء السلف ـ رحمهم الله ـ يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فإذا رأوا منه تقصيراً في النوافل أنكروه وتركوه..

فإذن: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» يختص من الأقسام الثلاثة: بالطاعات والمباحات، دون المعاصي.

إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

والمباح ينقلب معصية، وطاعة، بالقصد.

فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً، نعم للنية دخل فيها، وهو: أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها.

ـ أما الأصل: فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية.

ـ وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تتضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثاله: القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي به نيات كثيرة:

منها: أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر لله.

ومنها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في صلاة.

ومنها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره والتذكر به.

ومنها: أن يقصد إفادة العلم، بأمر بمعروف أو نهي عن منكر، إذ المساجد لا تخلو عمن يسيء في صلاته، أو يتعاطى ما لا يحل له.

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد، رزقه الله إحدى سبع خصال: أخاً مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستطرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياءً.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات.

القسم الثالث: المباحات، وما من شيء من المباحات إلاَّ ويحتمل نية أو نيات، يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات. فما أعظم خسران من يغفل عنها، ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة، عن سهو وغفلة.

ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه يوم القيامة.

فالطيب مثلاً في يوم الجمعة وفي سائر الأوقات، وهو حظ من حظوظ النفس، يمكن أن يقصد به التنعم بلذات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو يقصد به التودد إلى قلوب النساء الأجنبيات. . وكل هذا يجعل التطيب معصية إلاَّ القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فإن ذلك ليس بمعصية إلاَّ أنه يسأل عنه.

وأما النية الحسنة، فإنه ينوي به اتباع سنَّة رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله، فلا يرى أن يدخله زائراً الله إلاَّ طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه. .

فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها، إذا كانت تجارة الآخرة غالبة على قلبه.

وبالجملة: فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك، فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد:

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١).

النية غير داخلة تحت الاختيار:

اعلم أن الجاهل إذا سمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها، مع قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو أكله: نويت أن أدرس لله، أو آكل لله، ويظن ذلك نية، وهيهات!!

فالنية بمعزل عن ذلك، وإنما النية: انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

---

(١) سورة ق: الآية (١٨).

والميل إذا لم يكن[1]، لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام.

وإنما تنبعث النفس إلى الفعل، إجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها. وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحو قصده. وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين.

ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال.

فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً، ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلَّا على نية قضاء الشهوة، إذ النية هي إجابة الباعث، ولا باعث إلَّا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية. وذلك لعلمهم بأن النية روح العمل، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف، وهو سبب مقت لا سبب قرب. وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه «نويت»، بل هي انبعاث القلب.

ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير، فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا، وغلبت عليه، لم يتيسر له ذلك، بل لا يتيسر له في الفرائض إلَّا بجهد جهيد.



(١) أي لم يكن موجوداً.

الباب الثاني

في الإخلاص

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(1).

وقال تعالى:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(4).

نزلت فيمن يعمل لله، ويحب أن يحمد عليه.

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «إنما نصر الله عزَّ وجلّ هذه الأمة

---

(1) سورة البينة: الآية (5).

(2) سورة الزمر: الآية (3).

(3) سورة النساء: الآية (146).

(4) سورة الكهف: الآية (110).

بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم»[1].

وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من الفرث والدم.

حقيقة الإخلاص:

اعلم أن كل شيء يتصوَّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخلص: «إخلاصاً» والإخلاص يضادّه الإشراك.

فمن ليس مخلصاً فهو مشرك. إلاَّ أن الشرك درجات.. فالإخلاص في التوحيد يضاده الإشراك في الإلّهية. والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص.

والإخلاص وضدُّه يتواردان على القلب، فمحله القلب، وإنما يكون ذلك في القصود والنيات.

وقد ذكر في حقيقة النية، أنها ترجع إلى إجابة البواعث، وإذا كان الباعث واحداً على التجرد، سمي الفعل الصادر عنه «إخلاصاً» بالإضافة إلى ذلك المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء، فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى، فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص على تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب.

وإنما نتكلم الآن، فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر.

ومهما كان الباعث هو التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضافت إليه خطرة من

---

(١) رواه النسائي، وهو عند البخاري برقم (٢٨٩٦)، بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلاَّ بضعفائكم».

هذه الخطرات ــ حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ــ فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

وبالجملة: كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب ــ قلَّ أم كثر ــ إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه.

ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة المرافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة، كما سبق في النية.

وإنما الإخلاص: تخليص العمل عن الشوائب كلها ــ قليلها وكثيرها ــ حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصور إلَّا من محب مستغرق الهمّ بالآخرة، بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قرار.

وعلاج الوصول إلى الإخلاص، هو كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب.

والبيان الشافي في الإخلاص هو بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ إذ قال: «قل: آمنت بالله، فاستقم»[1]، أي: لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلَّا ربك، وتستقيم في عبادته، وهذا إشارة إلى قطع مجرى النظر عما سوى الله، وهو الإخلاص حقاً.

حكم العمل المشوب:

إن العمل الذي لا يريد به صاحبه إلَّا الرياء، فهو عليه قطعاً، وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب.

وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه، والذي ينقدح لنا فيه ــ والعلم عند الله ــ أن ينظر إلى قدر قوة الباعث:

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٨)، وذكرت لفظه وذكر المصنف لفظاً آخر وهو: «أن تقول ربي الله، ثم تستقيم كما أُمرت». قال العراقي فيه: لم أره بهذا اللفظ.

ـ فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي، تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه.

ـ وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى، فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم، العقاب فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب.

ـ وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني.

وهذا لقوله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

ولقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾[2].

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء، هبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

ويشهد لهذا إجماع الأمة: على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه، وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. ومهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك السفر عن ثواب.

وكذلك الغزاة إذا كان الباعث الأصلي المزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً.

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧ ــ ٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٠).

ومع هذا: فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، وإذا ترك العمل، فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً.

حكي أن أحدهم كان يخدم أبا سعيد الخراز[1]، فتكلم أبو سعيد يوماً في الإخلاص، فأخذ الرجل يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص، فتعذر عليه قضاء حوائج الشيخ، واستضر بذلك، فسأله عن أمره، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: إن الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلت لك: اترك العمل، وإنما قلت لك أخلص العمل.

قال الفضيل: ترك العمل من أجل الخلق رياء، والعمل لأجل الخلق شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.



(١) أحمد بن عيسى الخراز البغدادي، صحب ذا النون وغيره، وكان من جملة مشايخ القوم. مات سنة (٢٧٧)هـ.

البَابُ الثَالِثُ

فِي الصِّدق

فضيلـة الصـدق:

قال الله تعالى:

﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾(1).

وقال ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنـة، وإن الرجـل ليصـدق حتى يكتب عند الله صـديقاً، وإن الكـذب يهـدي إلى الفجـور، والفجـور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(2).

ويكفي في فضيلة الصـدق، أن الصـدّيق مشتق منـه، وقـد وصف الله تعـالى الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾(3).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾(4).

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم أن لفظ «الصـدق» يستعمل على سـتـة معانٍ: فمن اتصف بـالصـدق في جميعها فهو «صدّيق»، لأنه مبالغة في الصدق، وهذه المعاني هي:

---

(1) سورة الأحزاب: الآية (٣٣).

(2) متفق عليه (خ ٦٠٩٤، م ٢٦٠٧).

(3) سورة مريم: الآية (٤١).

(4) سورة مريم: الآية (٥٦).

الصدق الأول: صدق اللسان، وذلك لا يكون إلاَّ في الإخبار، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه: يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه.

وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلاَّ بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. ولهذا الصدق كمالان:

ـ الأول: الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل: «في المعاريض مندوحة عن الكذب»، وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب: تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه.

ولكن ذلك مما تمسّ الحاجة إليه، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنساء، وفي الحذر من الظلمة، وفي قتال الأعداء..

فمن اضطر إلى شيء من ذلك، فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته، بل للدلالة على الحق، والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه.

نعم، في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً.

كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى السفر ورَّى بغيره[1]، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء، وليس هذا من الكذب في شيء، قال ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو أنمى خيراً»[2]. ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، وما كان في مصالح الحرب.

والصدق هنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلاَّ صدق النية وإرادة الخير.

---

(١) متفق عليه من حديث كعب (خ ٢٩٤٧، م ٢٧٦٩).

(٢) متفق عليه (خ ٢٦٩٢، م ٢٦٠٥).

ومثاله: ما حكي عن بعضهم أنه طلبه بعض الظلمة وهو في داره، فقال لزوجته: خطي بإصبعك دائرة، وضعي الإصبع على الدائرة وقولي: ليس هو ها هنا.

فكان قوله صدقاً، وأفهم الظالم أنه ليس في الدار.

فالكمال الأول في اللفظ: أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلّا عند الضرورة.

ـ الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1].

فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذاب.

وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية، وكان له مطلب سوى الله تعالى لم يكن كلامه صادقاً، إذ العبد الحق، هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه، وهذه هي درجة الصديقين.

فهذا هو معنى الصدق في القول.

الصدق الثاني: في النية والإرادة، ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلّا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، ويجوز أن يسمى صاحبه كذاباً.

قال تعالى في حق المنافقين:

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

وقد قالوا: (إنك لرسول الله)، وهذا صدق. ولكن كذّبهم لا من حيث نطق

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٧٩).

(٢) سورة المنافقون: الآية (١).

اللسان، بل من حيث ضمير القلب، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النيـة، وهو الإخلاص.

الصدق الثالث: صدق العزم. فإن الإنسان قد يقدِّم العزم على العمل، فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت بشطره.. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه: وهي عزيمة صادقة جازمة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد يضاد الصدق في العزيمة.

فالصدق ها هنا، عبارة عن التمام والقوة.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم.

وهذا يضاد الصدق فيه.

قال تعالى:

﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1].

فقد روى أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ، فشق ذلك على قلبه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة، إني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون، ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلاّ ببنانه. فنزلت هذه الآية:

﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، وهو عند البخاري مختصراً: =

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1].

فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً، والوفاء به صدقاً.

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث.

الصدق الخامس: في الأعمال، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به. لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجرَّ الباطن إلى تصديق الظاهر.

فرب واقفٍ على هيئة الخشوع في صلاته ـ ولا يقصد به مشاهدة غيره ـ وقلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته.

وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار، وباطنه ليس موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله. وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق، ولا مرائياً إياهم.

ولا ينجو من هذا إلَّا باستواء السريرة والعلانية، بأن يكون باطنه مثل ظاهره، أو خيراً من ظاهره.

إذن: مخالفة الظاهر للباطن:

ـ إن كانت عن قصد، سميت رياء، ويفوت بها الإخلاص.

ـ وإن كانت عن غير قصد، فيفوت بها الصدق.

= أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر (ع).

(١) سورة التوبة: الآيات (٧٥ ـ ٧٧).

فمساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها: الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور.

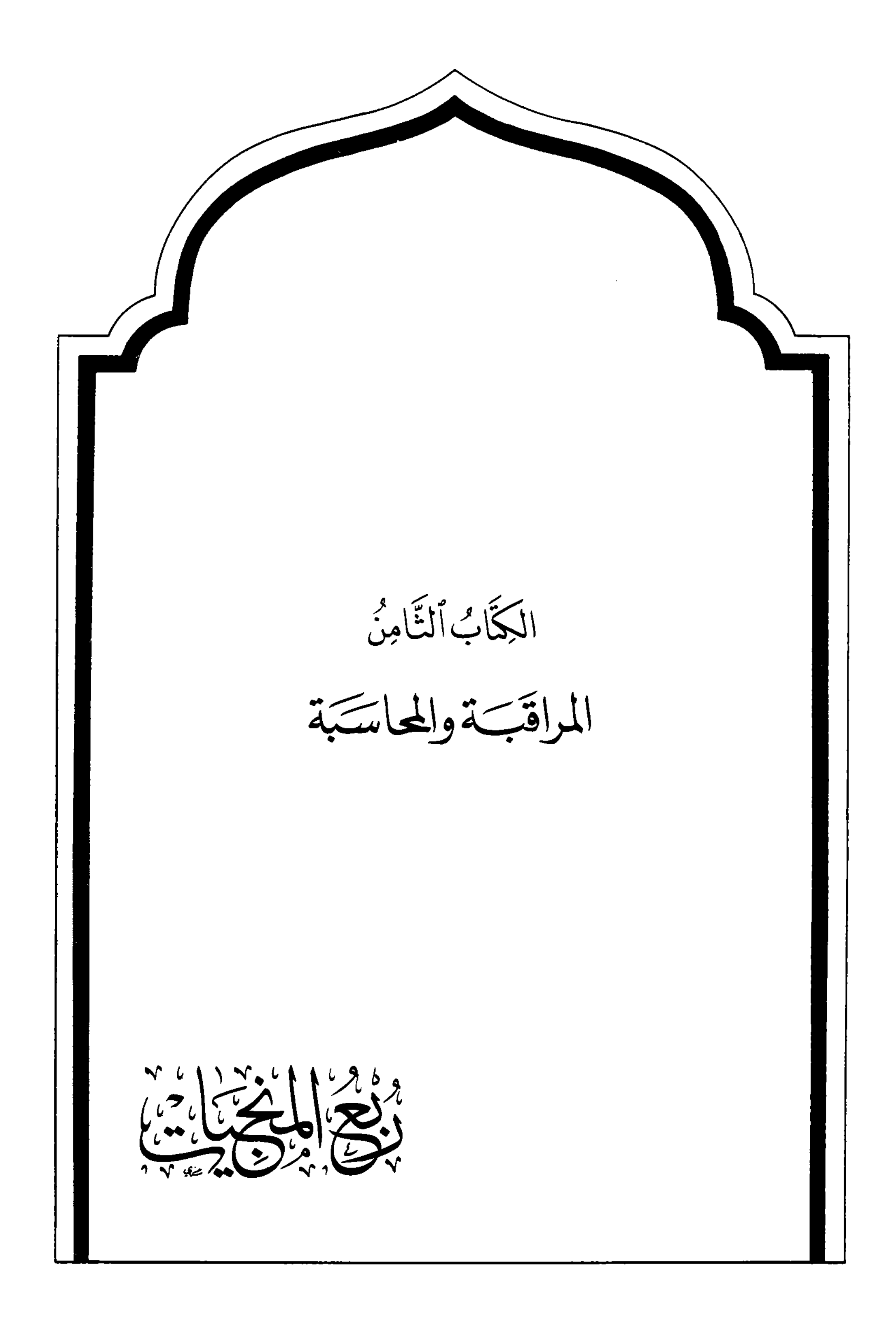
فإن هذه الأمور لها بدايات ينطلق الاسم بظهورها، ولها غايات وحقائق، والصادق المحق من نال حقيقتها فيقال: هذا هو الخوف الصادق.

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلاَّ وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويتنغص عليه عيشه، ويتعذر عليه أكله ونومه، كل ذلك خوفاً من درك المحذور.

ثم إنه يخاف النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصية عليه، فالصادق في جميع هذه المقامات عزيز.







الكِتَابُ ٱلثَّامِنُ

المراقبة والمحاسبة

رُبع المنجيات

[بيان لزوم محاسبة النفس]:

قال الله تعالى:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٤٧).

(٢) سورة الكهف: الآية (٤٩).

(٣) سورة المجادلة: الآية (٦).

(٤) سورة الزلزلة: الآيتان (٦ ــ ٧).

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[3].

عرف أرباب البصائر ـ من جملة العباد ـ أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفَّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته.

فلما انكشف لهم ذلك، علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله تعالى، وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عزَّ من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[4].

فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم بذلك ست مقامات.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٣٥).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٢٠٠).

وأصل ذلك المحاسبة، ويكون الحساب بعد المشارطة والمراقبة، ويتبعه عند الخسران: المعاتبة والمعاقبة. فلنذكر هذه المقامات:

المقام الأول: المشارطة

كما أن التاجر يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح، ويشارطه ويحاسبه، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس.

والعقل يستعين بالنفس، في تجارة طريق الآخرة، فيحتاج إلى أن يشارطها أولاً، ويراقبها ثانياً، ويحاسبها ثالثاً، ويعاقبها أو يعاتبها رابعاً.

وفي المشارطة: يوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطريق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنها لو أهملها لحظة، لم ير منها إلا الخيانة، وتضييع رأس المال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بالشروط. فتدقيق الحساب مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا التي هي محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى.

فحتم على كل ذي حزم، آمن بالله واليوم الآخر، أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، في حركاتها وسكناتها، فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد.

فإذا أصبح العبد، وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرِّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، فيقول لها: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح. وهذا اليوم الجديد، قد أمهلني الله فيه، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً، حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك توفيت، ثم قد رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه، فيوصيها بحفظها عن معاصيها:

أمـا العين: فيحفظهـا عن النظر إلى وجـه من ليس له بمحـرم، أو إلى عـورة مسلم، أو النـظر إلى مسلم بعين الاحتقـار، بـل عن كـل فضـول مستغنى عنـه. ثم ليشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خلقت لـه من النظر إلى عجـائب صنع الله بعين الاعتبـار، والنـظر إلى أعمـال الخيـر لـلاقتـداء، والنـظر في كتـاب الله وسنـة رسوله ﷺ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو، لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنـايته عـظيمة بالغيبة والنميمـة، وتزكيـة النفس ومذمـة الخلق.. وغير ذلـك، مع أنـه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، وسائر خيراته.

فليشتـرط على نفسه أن لا يحـركه طـول النهار إلا في الـذكر، فنـطق المؤمن ذكر، ونظره عبرة وصمته فكرة.

وأمـا البـطن: فيكلفـه تـرك الشـره، وتقليـل الأكـل من الحـلال، واجتنــاب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة...

وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعـوّد الإنسان شـرط ذلك على نفسـه أياماً، وطـاوعتـه نفسـه في الـوفـاء بجميعهـا استغنى عن المشارطـة فيها، وإن أطـاعت في بعضها بقيت الحـاجـة إلى تجديد المشارطة فيما بقي.

ولكن لا يخلو كـل يوم عن مهمّ جـديد، وواقعـة حـادثـة لهـا حكم جـديـد، ولله عليـه في ذلك حق، ويكثـر هذا على من يشتغـل بشيء من أعمـال الـدنيـا من تجارة وتدريس، إذ قلمـا يخلو يوم عن واقعـة جديـدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها.

المقام الثاني: المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت.

فضيلة المراقبة:

سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وقد قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾[5].

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

وقال عبد الله بن دينار[6]: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة (خ ٥٠، م ٩) وعند مسلم من حديث عمر برقم (٨).

(٢) سورة الرعد: الآية (٣٣).

(٣) سورة العلق: الآية (١٤).

(٤) سورة النساء: الآية (١).

(٥) سورة المعارج: الآيتان (٣٢ ــ ٣٣).

(٦) عبد الله بن دينار العدوي، مولى ابن عمر، مات سنة (١٢٧)هـ روى له الجماعة.

مكة، فعرسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إني مملوك، فقال: قل لسيدك أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه فأعتقه، وقال: أعتقك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وقال حميد الطويل[1] لسليمان بن علي[2]: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك، لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فقد كفرت.

وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل: علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب	وأن غداً للناظرين قريب

حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم أن حقيقة المراقبة، هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه.

ويُعنى بهذه المراقبة: حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أما الحالة فهي: مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة، فهي العلم بأن الله مطلع على الضمائر،

---

(١) حميد بن أبي حميد الطويل، أبو عبيدة البصري، تابعي ثقة، روى له الجماعة، مات سنة (١٤٣)هـ وهو قائم يصلي، وله خمس وسبعون سنة.

(٢) سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، أحد الأشراف، وعم الخليفتين السفاح والمنصور، روى له النسائي وابن ماجه. مات سنة (١٤٢)هـ وله تسع وخمسون سنة.

عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً، أعني أنها خلت عن الشك، ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته ـ ورب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب، كالعلم بالموت ـ فإذا استولت على القلب استجرته إلى مراعاة جانب الرقيب. وصرفت همه إليه. والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون: وهم ينقسمون إلى الصديقين، وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين:

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين، وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة مقصورة على القلب.

أما الجوارح، فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات، فضلاً عن المحظورات.

وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم. وفي مثله قيل: عليك بصحبة من تذكرك بالله رؤيته، وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة «الجلال» بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال، متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، ومع الأعمال لا تخلو عن المراقبة. غلب عليهم الحياء من الله، يمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

ومن كان في هذه الدرجة، فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل:

ـ أما النظر قبل العمل: فلينظر أن ما ظهر له، وتحرك بفعله خاطره، أهو لله

خاصة، أو هو هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف ويتثبت فيه، حتى ينكشف له ذلك، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله، استحيا من الله، وانكفَّ عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه، وهمه به، وميله إليه، وعرَّفها سوء فعلها، وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوة نفسها، إن لم يتداركها الله بعصمته.

وهذا التوقف في بداية الأمور، إلى حد البيان، واجب محتوم لا محيص لأحد عنه.

ولا تخلص هذه المراقبة إلا بالعلم المتين، والمعرفة الحقيقة بأسرار الأعمال، وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمن لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس، ولم يعرف ما يوافق هواه، ولم يميز بين ما يحبه الله ويرضاه.. فلا يسلم في هذه المراقبة.

فإذن: النظر الأول للمراقب، هو نظره في الهمّ والحركة، أهي لله أم للهوى؟

ـ والنظر الثاني للمراقبة، عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل، ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه. فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك، قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية، وحسن الفعل، ومراعاة الأدب.

والعبد لا يخلو، إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة: بالإخلاص، والإكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.

وإن كان في معصية، فمراقبته: بالتوبة والندم، والإقلاع، والحياء.

وإن كان في مباح، فمراقبته: بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة، والشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد من الصبر عليها، ونعمة لا بد من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وعلى العاقل، أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة

يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب.

المقام الثالث: المحاسبة بعد العمل

فضيلة محاسبة النفس بعد العمل:

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا.

وقال تعالى:

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه، بالندم عليه.

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3].

وعن عمر رضي الله عنه، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟

وقال الحسن البصري: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

---

(١) سورة الحشر: الآية (١٨).

(٢) سورة النور: الآية (٣١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

حقيقة المحاسبة بعد العمل:

اعلم أن العبد كما يكون له وقت أول النهار يشارط فيه نفسه، على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها.

ومعنى المحاسبة: أن ينظر في رأس المال، وفي الربح والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان.

ورأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء.

فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه، ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة، كلفها الجبران بالنوافل. وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها، ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط.

فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل خواطره وأفكاره، وقيامه وقعوده، وأكله ونومه.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب الإنسان نفسه فلن تسلم عن مقارفة معصية، وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست نفسه بها وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها.

بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس، فينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محْرم، فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر. وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته.

والعجب أنك تعاقب أهلك وولدك على ما يصدر منهم، من سوء خلق، وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار، وبغوا

عليك. ثم تمهل نفسك، وهي أعظم عدو لك، وأشد طغياناً عليك، وضـررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك.

المقام الخامس: المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضـائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبهـا بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنونـاً من الوظـائف جبراً لمـا فات منـه، وتداركـاً لما فرط. فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى.

فقد عاقب عمـر بن الخطاب نفسـه حين فاتتـه صلاة العصـر في جماعـة بأن تصدق بأرض كانت له.

وكان ابن عمر إذا فـاتته صـلاة في جماعـة أحيا تلك الليلة، وأخـر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين.

فإن قلت: إن نفسي لا تطاوعني على المجاهدة، فما سبيل معالجتها؟

فأقول: من أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عبـاد الله مجتهد في العبادة، إلّا أن هذا العلاج قد تعذر. فينبغي أن يعدل من المشـاهدة إلى السمـاع، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم.

وإياك أن تنظر إلى أهـل عصرك، فـإنك إن تـطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله.

المقام السادس: توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك، نفسـك التي بين جنبيك، وقـد خلقت أمارة بـالسوء، ميالة إلى الشر، فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها، وتقويمها، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها.

فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتـوبيخ والمعاتبة والعذل والملامـة، كانت نفسـك هي النفس اللوامة، التي أقسم الله بهـا،

ورجوت أن تصير النفس المطمئنة، المدعوة أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك، ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك.

وسبيلك أن تقبل عليها فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدَّعين الحكمة والذكاء والفطنة، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تتدبرين قوله تعالى:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾[1].

ويحك يا نفس، إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك، فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك.

ويحك يا نفس، لو كان الإيمان باللسان، فلمَ كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت، وهيهات!

ويحك يا نفس، لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرك بالله الغرور، فانظري لنفسك، فما أمرك بمهم لغيرك، ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة، فإذا مضى عنك نَفَس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها.

ويحك يا نفس، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا، ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم، أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون، يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (١ ــ ٣).

وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد منهم دنياه، وهو مرتحل عنها يقيناً، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم؟!

اعملي يا نفس بقية عمرك، في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال، لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب، لدار نعيم وخلود. اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار.

هكذا كانت طريق القوم في معاتبة نفوسهم.

[مناجاة][1]:

روي عن حبيبة العدوية[2] أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي، قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك. ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي، هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ، أم رددتها علي فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت، لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة[3] أنها كانت تحيي الليل، فإذا كان السحر، نادت بصوت محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي، يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك، أن تجعلني في أول زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عليين، في درجة المقربين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء، وأكرم الكرماء يا كريم..

وكانت شعوانة[4] تقول في دعائها: إلهي، ما أشوقني إلى لقائك، وأعظم

---

(١) أورد المصنف هذه الأدعية، ضمن حديثه عن المجاهدة في المقام الخامس.

(٢) هي إحدى متعبدات البصرة.

(٣) هي إحدى متعبدات البصرة.

(٤) كانت من المتعبدات العارفات، المعاصرات للفضيل بن عياض.

رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين. .

إلهي، إن كان دنا أجلي ولم يقربني منك عمل، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك.

إلهي، قد جرت على نفسي في النظر لها، وبقي لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسعدها.

إلهي، إنك لم تزل بي براً أيام حياتي، فلا تقطع عني برك بعد مماتي، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه، أن يسعفني عند مماتي بغفرانه.

إلهي، كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي، ولم تولني إلا الجميل في حياتي.

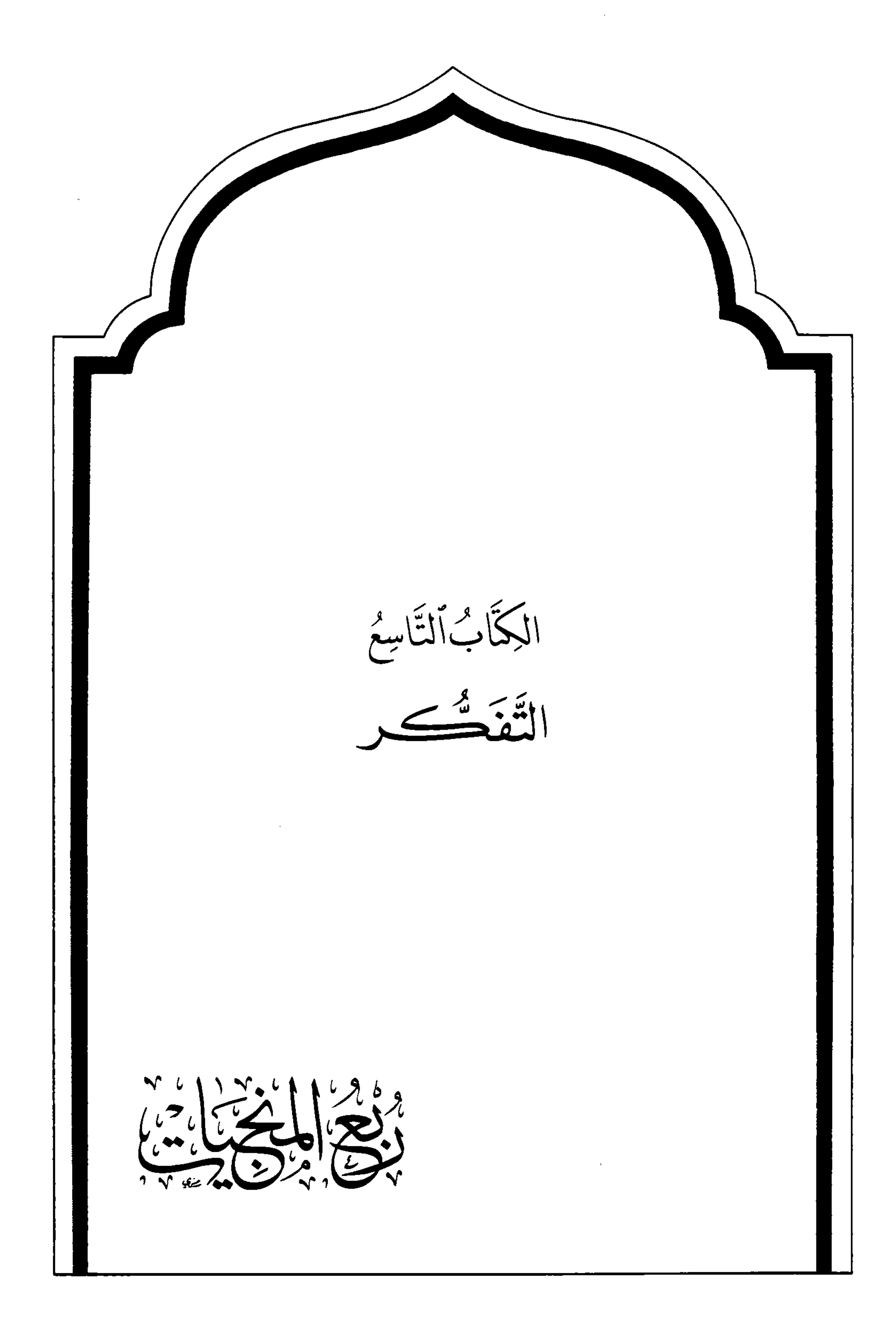
إلهي، إن كانت ذنوبي قد أخافتني، فإن محبتي لك قد أجارتني، فتولَّ من أمري ما أنت أهله، وعد بفضلك على من غره جهله.

إلهي، لو أردت إهانتي لما هديتني، ولو أردت فضيحتي لم تسترني، فمتعني بما له هديتني، وأدم لي ما به سترتني.

إلهي، ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري.

إلهي، لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.




الكِتَابُ ٱلتَّاسِعُ
التَّفَكُّر
رُبعُ المنجيات



فضيلة التفكر:

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، في مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

وعن محمد بن واسع، أن رجلاً من أهل البصرة، ركب إلى أم ذر ــ بعد موت أبي ذر ــ فسألها عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

وقال الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال أيضاً: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله عزَّ وجلّ.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم أن معنى الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

ومثاله: أن من مال إلى العاجلة، وآثر الحياة الدنيا، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، فعليه:

- أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار.
- ثم يعرف أن الآخرة أبقى.

فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة، هي: أن الآخرة أولى بالإيثار.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة، يسمى: «تفكراً» و«اعتباراً» و«تذكراً» و«نظراً» و«تأملاً» و«تدبراً».

أما «التدبر» و«التأمل» و«التفكر» فعبارات مترادفة على معنى واحد، وليس تحتها معان مختلفة.

وأما اسم «التذكر» و«الاعتبار» و«النظر» فهي مختلفة المعاني. وإن كان أصل المسمى واحداً، كما أن اسم: الصارم، والمهند، والسيف، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة.

فـ«الاعتبار»: يطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة.

فإن لم يقع العبور، ولم يمكن إلاَّ الوقوف على المعرفتين، فيطلق عليه اسم «التذكر» لا اسم: الاعتبار.

وأما «النظر والتفكر» فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة.

فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً. فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً.

وفائدة التذكار: تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب.

وفائدة التفكر: تكثير العلم، واستجلاب معرفة ليست حاصلة.

فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفة أخرى، وازدوجت مع معرفة أخرى، حصل من ذلك نتاج آخر. .

وقد منع أكثر الناس الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً. فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم، ولكنه لا يحسن استعمالها وتأليفها، وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها.

فحقيقة التفكر، هي: إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر: فهي العلم لا غير، وإذا حصل العلم في القلب تغير حاله، وإذا تغير حاله، تغيرت أعمال الجوارح.

فالعمل تابع للعلم، والعلم تابع للفكر.

فالفكر إذن: هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها. وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر، وأنه خير من الذكر والتذكر، لأن الفكر ذكر وزيادة.

وإذا أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر، فنقول: ها هنا خمس درجات:

الأولى: التذكر، وهو إحضار المعرفتين في القلب.

الثانية: التفكر، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما.

الثالثة: حصول المعرفة واستنارة القلب بها.

الرابعة: تغير حال القلب عما كان، بسبب حصول نور المعرفة.

الخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

بيان مجاري الفكر:

جميع أفكار العبد ـ فيما يتعلق بالدين ـ إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، ولا يمكن أن تخرج عن هذين القسمين.

القسم الأول: وهو تفكر الإنسان في صفات نفسه وأفعاله ليميز المحبوب منها عن المكروه، ونحن هنا أمام أربعة أقسام: المعاصي، والطاعات، والصفات المهلكة، والصفات المنجية:

أما المعاصي: فينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة، هل هو ملابس لمعصية فيتركها؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها.

فينظر في اللسان، ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب، وتزكية النفس.. فيقرر أنها مكروهة عند الله، ثم يتفكر في شدة العذاب عليها، ثم يتفكر في أحواله، أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر في كيفية الاحتراز منها.

ويتفكر في سمعه، كيف يصغي به إلى الغيبة وفضول الكلام.. وأنه ينبغي أن يحترز منه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر..

وكذلك يتفكر في بطنه، وأنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب، إما بكثرة الأكل من الحلال، فإن ذلك مكروه، وإما بأكل الحرام أو الشبهة.. فيتفكر بطريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في الاحتراز من الحرام.

وهكذا يتفكر في أعضائه، حتى يحفظها.

وأما الطاعات: فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه، كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل؟

ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى، وتنظر في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

وكذلك يقول في سمعه: أنا قادر على استماع كلامِ ملهوفٍ أو استماع حكمة، أو قراءة، فما لي أعطله.. وأكفر نعمة الله فيه..؟

وكذلك يتفكر في ماله، فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني، فإني مستغنٍ عنه، وإذا احتجت إليه رزقني الله مثله.

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه، وجملة بدنه، وأمواله.. فيتفكر في إخلاص النية فيها، ويتفكر فيما يرغبه بالبدار إلى تلك الطاعات.

وأما الصفات المهلكة: فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات، ويكفيه منها النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

وأما الصفات المنجية: فهي التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه والخشوع والتواضع له، وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته.

فليتفكر العبد كل يوم في قلبه، ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها، وليجمعها على نفسه، وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى تنبعث له حال الندم..

فهكذا طريق الفكر.

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقُّدهم لها وتفكرهم فيها، لا في معاصٍ هم بمعزل عنها.

مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم،

وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس وإما بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلاَّ الصديقون. . فمن أحسَّ في نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه العزلة والانفراد، وطلب الخمول. .

القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه، وذلك عن طريق النظر في أفعاله ــ سبحانه ــ ومجاري قدره، وعجائب صنعه، وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه. وتدل على كمال علمه وحكمته، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنّا لا نطيق النظر إلى صفاته، والنظر في الآثار يدل على المؤثر.

كيفية التفكر في خلق الله تعالى:

اعلم أن كل ما في الوجود ــ مما سوى الله تعالى ــ هو من فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات، وكل جوهر وعرض، وصفة وموصوف، ففيها عجائب وغرائب تظهر فيها حكمة الله وقدرته، وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن.

والمخلوقات منها ما لا نعلمه، قال تعالى:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومنها ما يُعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها، فيمكننا أن نفكر في تفصيلها.

ومن هذه المخلوقات ما لا ندركه بالبصر، كالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك، ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض.

فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام، وهي المدركات بحس البصر.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات، كما قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: الآية (٨).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

وفي القرآن من أوله إلى آخره قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات:

● **فمن آياته**: الإنسان، المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك نفسك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار دون الوقوف على عشره، فيا من هو غافل عن نفسه، وجاهل بها، كيف تطمع في معرفة غيرك؟

وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك فقال:

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[4].

وتكرر ذكر النطفة في الكتاب العزيز، ليس ليسمع لفظه ويترك التفكير في معناه.

فانظر الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة لفسدت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب، وكيف جمع بين الذكر والأنثى، وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى

---

(١) سورة الروم: الآية (٢٠)، وقد وردت في غير هذه الآية عشر مرات في القرآن بهذه الصيغة.

(٢) سورة الذاريات: الآية (٢١).

(٣) سورة الروم: الآية (٢٠).

(٤) سورة يس: الآية (٧٧).

الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؟

ثم كيف خلق المولود من النطفة.. حتى نما وكبر، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء، علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة، إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق: الأعضاء الظاهرة، فدوَّر الرأس، وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل، وقسم رؤوسها بالأصابع، والأصابع بالأنامل؟

ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة، من القلب والمعدة والكبد والطحال والرحم والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص.. ثم ركب العين طبقات..

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس، وكيف جمعها وركبها.. ثم جعل الرقبة مركباً للرأس، ثم ركب الرقبة على الظهر. ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر..

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام، وهي العضلات في بدن الإنسان، ولكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص..

ثم العروق والأوردة والشرايين.. وانشعاباتها.. وشرح ذلك يطول.

فارجع الآن إلى النطفة، وتأمل حالها أولاً، وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً، أو بصراً، أو عقلاً، أو قدرة، أو علماً، أو روحاً، أو يخلقوا فيها عظماً، أو عرقاً، أو عصباً، أو جلداً، أو شعراً، هل يقدرون على ذلك؟

والعجب منك، لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط، تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه إنسان، عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه، وخفة يده، وتمام فطنته، وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة

وبـالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلـك ليس من فعل النقـاش، ولا خلقه، بـل هـو من خَلْق غيره، وإنما منتهى فعله الجمـع بين الصبغ والحـائط على ترتيب مخصـوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

ثم انظر إلى رحمته ـ تعـالى ـ كيف أخر خلق الأسنـان إلى تمام الحـولين، لأنه في الحولين لا يتغذّى إلاّ باللبن فيستغني عن السن..

ثم انـظر كيف رزقه القـدرة والتمييز والعقـل والهـدايـة تـدريجـاً.. حتى بلغ وتكامل..

فهـذه نبذة من عجـائب بدنـك التي لا يمكن استقصاؤهـا، فهو أقـرب مجال لفكرك، وأجلى شاهد على عظمة خالقـك، وأنت غافـل عن ذلك مشغـول ببطنـك وفرجك، ولا تعرف من نفسك إلاّ أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت عن البهـائم، معرفـة الله تعالى، بـالنـظر في ملكـوت السمـاوات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس.

● **ومن آياته الأرض** التي هي مقرك، فتفكر في أنهارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماوات.

فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت، وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات.

ثم انـظر كيف أحكم جـوانب الأرض بـالجبـال الـراسيـات الشـوامـخ الصم الصـلاب، وكيف أودع المياه تحتهـا، ففجـر العيـون، وأسـال الأنهـار تجـري على وجههـا.. وأخرج فنـون الأشجار والنبـات من حب وعنب وزيتـون ونخـل ورمـان، وفواكه كثيرة لا تحصى، مختلفة الأشكال والطعـوم، تسقى بماء واحـد، وتخرج من أرض واحدة.

● **ومن آياته الجواهر** المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض، من ذهب وفضة ونحاس ورصـاص وحديـد، وكيف هدى الله النـاس لاستخراجهـا،

وتنقيتها، واتخاذ الأواني والآلات، والنقود والحلي منها، ثم انظر إلى معادن النفط والكبريت وغيرها، وأقلها الملح الذي يحتاج إليه لتطييب الطعام. . ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً. .

● **ومن آياته** أصناف الحيوانات، وانقسامها إلى ما يطير، وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة. . . كما يشاهد في بعض الحشرات.

ثم انقسامها في المنافع والصور، والأشكال والأخلاق والطباع، فانظر إلى طيور الجو، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية، ترى فيها العجائب، مما لا تشك معه في عظمة خالقها ومقدرها وحكمة مصورها.

بل لو أردنا أن نذكر عجائب العنكبوت في بنائها بيتها، وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها، وفي حذقها في هندسة بيتها، وفي هدايتها إلى حاجاتها، لم نقدر على ذلك.

وما من حيوان صغير ولا كبير إلاَّ وفيه من العجائب ما لا يحصى.

أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه، أو تكوَّن بنفسه، أو كونه آدمي، أو علمه، أو لا هادي ولا معلم؟!

فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكماله وقدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات.

وهذا الباب أيضاً لا حصر له، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة.

● **ومن آياته** البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، وفيها من عجائب الحيوان والجواهر أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض. وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان، إلاَّ وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ في صدفه تحت الماء، وانظر كيف أنبت

المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر..

ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيَّر فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها..

وأعجب من ذلك، كله، ما هو أظهر من كل ظاهر، وهو كيفية قطرة الماء، وهو جسم رقيق لطيف، سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات.

فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها، لبذل جميع خزائن الأرض في تحصيلها لو ملك ذلك، وكذا لو منع خروجها.

فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر، ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء؟!

كل ذلك شواهد متظاهرة، وآيات ناطقة بلسان حالها، عن جلال بارئها. معربة عن كمال حكمته.

● ومن آياته الهواء اللطيف، وجملته مثل البحر، والطيور سابحة فيه بأجنحتها، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، جعله الله نشراً بين يدي رحمته:

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ ﴾[1].

وإن شاء جعله عذاباً على العصاة:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[2].

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢٢).

(٢) سورة القمر: الآيتان (١٩ ــ ٢٠).

ثم انظر إلى لطف الهواء، ثم شدته وقوته، مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه.. وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء.

ثم انظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق، والأمطار والثلوج، والشهب والصواعق.. فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾(1).

● **ومن آياته** ملكوت السماوات، وما فيها من الكواكب، والأرض والبحار والهواء.. وكل ذلك بالإضافة إلى السماوات قطرة في بحر أو أصغر.

ثم انظر كيف عظم الله أمر السماوات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلاّ وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها، كقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾(2).

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾(3).

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾(4).

وقوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾(5).

فارفع الآن رأسك إلى السماء، وانظر فيها، وفي كواكبها، وفي دوراتها، وطلوعها وغروبها، وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها، ودؤوبها في

---

(1) سورة الدخان: الآية (38).
(2) سورة البروج: الآية (1).
(3) سورة الطارق: الآية (1).
(4) سورة الشمس: الآية (5).
(5) سورة الواقعة: الآيتان (75 ــ 76).

الحركة على الدوام، من غير فتور في حركتها ومن غير تغيُّر في سيرها، بل تجري جميعاً في منازل مرتبة بحساب مقدر، لا يزيد ولا ينقص، إلى أن يطويها الله تعالى كطي السجل للكتاب.

وتدبر عدد كواكبها وكثرتها، واختلاف ألوانها..

وقد أثنى الله تعالى على المفكرين فقال:

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وذم المعرضين عنها فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[3].

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت.

فسبحان من عرف عباده ما عرف، ثم خاطب جميعهم فقال:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[4].

فهذه معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق ـ لا محالة ـ معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته.

***

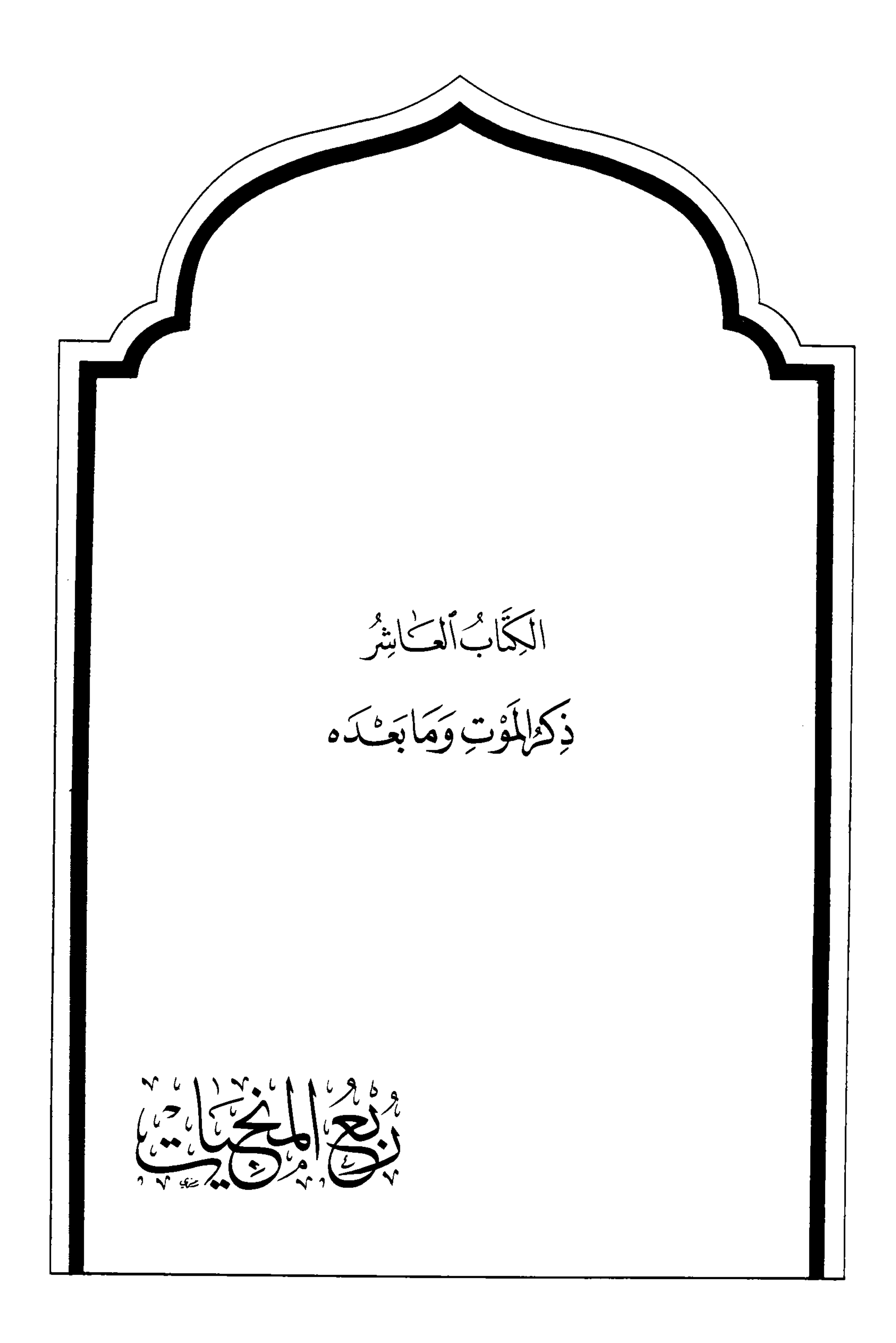
(١) سورة آل عمران: الآية (١٩١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٢).

(٣) سورة النبأ: الآية (١٢).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٨٥).





الكتاب العاشر

ذكر الموت وما بعده

ربع المنجيات



جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق أن يعد نفسه من الموتى، ويراها في أصحاب القبور فإن كل ما هو آت قريب.

ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

الأول: في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه أبواب.

الثاني: في أحوال الميت من وقت نفخة الصور، إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ذلك.



الشطر الأول

مُقَدِّمَاتُ الْمَوْتِ وَتَوَابِعُهُ إِلَى نَفْخَةِ الصُّور

الباب الأول

في ذِكْرِ الْمَوْت

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

وقال ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[٢] ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها، فتقبلوا على الله تعالى.

قال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فرحاً.

وقال مطرف بن عبد الله: إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

واعلم أن الناس في ذكر الموت: إما منهمك، وإما تائب مبتدىء، وإما عارف منته..

أما المنهمك في الدنيا، المكب على غرورها، المحب لشهواتها، فإن قلبه

---

(١) سورة الجمعة: الآية (٨).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه (ع).

ـ لا محالة ـ يغفل عن ذكر الموت، وإذا ذكّر به كرهه، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً.

وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت، لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما كره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل صلاحِ الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه. وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه.

وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت، ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين.

فالتائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منها رتبة، من فوض أمره إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه، أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى إلى مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكره التجافي عن الدنيا، إذ ينغص عليه نعيمه، ويكدر عليه صفو لذته، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

واعلم أن الموت هائل، وخطره عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه، وذكرهم له، ومن يذكره فإنما يذكره بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجح ذكر الموت في قلبه، والطريق فيه أن يفرغ قلبه عن كل شيء، إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة، فإنه لا يتفكر إلا فيها.

وأنجح طريق فيه، أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم ومناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب حسن صورهم، وكيف خلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم. فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وأن عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعدَّ نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزَّ وجلّ، تضعونه في صدع الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب؟

فملازمة هذه الأفكار، مع دخول المقابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه، فعند ذلك يتجافى عن دار الغرور.

نظر ابن مطيع[1] ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرَّت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاء شديداً، حتى ارتفع صوته.

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة[2]: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك.



(١) عبد الله بن مطيع بن الأسود، القرشي العدوي، ولد في حياة النبي ﷺ، ولأبيه صحبة، كان من رجال قريش، جلداً شجاعاً، كان على قريش يوم الحرة، وقتل مع ابن الزبير بمكة، وكان قد استعمله على الكوفة، روى له مسلم حديثاً واحداً.

(٢) عنبسة بن سعيد بن العاص الأموي، ثقة، روى له البخاري ومسلم وأبو داود. مات بالكوفة على رأس المائة.

البَابُ الثَانِي

فِي طُولِ الأَمَلِ وَقِصَرِهِ

فضيلة قصر الأمل:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»[١].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً، وخط وسطه خطاً، وخط خطوطاً إلى جنب الخط، وخط خطاً خارجاً، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا الإنسان ـ للخط الذي في الوسط ـ ، وهذا الأجل محيط به، وهذه الأعراض ـ للخطوط التي حوله ـ تنهشه،

---

(١) اقتصر المؤلف على ذكر قول ابن عمر وجعله مرفوعاً. ولم يذكر الشطر الأول وهو المرفوع. وذكرت النص بكامله كما هو في البخاري برقم (٦٤١٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً توطئة للحديث ذي الرقم (٦٤١٧). وذكره المصنف ضمن نص بصيغة الرفع.

إن أخطأ هذا نهشه هذا، وذاك الأمل، يعني: الخط الخارج»[1].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم، وتشبّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»[2].

قال مطرف بن عبد الله: لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي، ولكن الله منَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق.

وقال الحسن البصري: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم، ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق.

وقال الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة.

وقال الحسن البصري: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً، لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمل ذلك، وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار؟

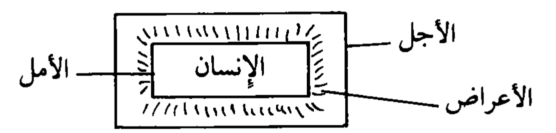
وكتب رجل إلى أخيه: أما بعد، فإن الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام والسلام.

سبب طول الأمل وعلاجه:

اعلم أن طول الأمل له سببان: أحدهما: حب الدنيا، والآخر: الجهل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٧). ويمكن تصور الخطوط بالشكل التالي:



(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٤٧).

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه عن الفكر في الموت، الذي هو سبب مفارقتها.

وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه، ويقدر البقاء، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه. فيلهو عن ذكر الموت. فلا يقدر قربه.

فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت، والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر وتتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخاً، فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار. . فلا يزال يسوّف ويؤخر، وهكذا على التدريج، يوماً بعد يوم، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب. وليس يتفكر ــ المسكين ــ أن مشايخ بلده لوعدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد، وإنما قلّوا لأن الموت في الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ يموت ألفا صبي وشاب.

وقد يستبعد الموت لصحته، ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيد فالمرض فجأة غير بعيد. .

وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز، ولا يقدّر أن تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، وألفه، وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه فلم يألفه، ولم يتصور أن يألفه، فإنه لم يقع، وإذا وقع فهو الأول وهو الآخر.

وسبيله، أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته، ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه، وهو لا يدري، فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت السبب فالعلاج دفع السبب.

أما الجهل: فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العضال، أعيا الأولين والآخرين علاجه، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك، ارتحل عن قلبه حب الدنيا.

ولا علاج في تقرير الموت في القلب، مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مغروراً بطول الأمل، فقد خسر خسراناً مبيناً.

المبادرة إلى العمل:

قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1] أي: أنه لا يغتنمهما، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما.

وقال ابن عباس قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[2].

وقال ﷺ: «من خاف أدلج[3]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[4].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٤١٢).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن (ع) قلت: ورواه الحاكم في الرقاق والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وقال الحاكم: على شرطهما، وأقره الذهبي في التلخيص، ورواه أحمد في الزهد والنسائي (ش).

(٣) أدلج: أي سار في أول الليل.

(٤) أخرجه الترمذي، وقال: حسن (ع) وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي (ش).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف، وما له عاريَّة، والضيف مرتحل، والعاريَّة مؤداة.

وكان الحسن البصري يقول في موعظته: المبادرة المبادرة، فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عزَّ وجلَّ، رحم الله امرأ نظر إلى نفسه، وبكى على عدد ذنوبه.

وقال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير، إلا في أعمال الآخرة.



الباب الثالث

في سكرات الموت وشدته

سكـرات المـوت:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عـذاب سوى سكـرات الموت بمجـردها، لكـان جديـراً بأن يتنغص عليـه عيشـه، ويتكـدر عليـه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيـه فكره، ويعـظم له استعـداده، لا سيمـا وهو في كـل نفس بصدده، كمـا قال بعض الحكمـاء: كرب بيـد سـواك، لا تدري متى يغشاك.

والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، وأطيب مجالس اللهو، فانتظر أن يدخل عليه جندي، فيضربه خمس خشبـات، لتكدرت عليـه لذتـه، وفسد عليـه عيشه، وهو في كل نَفَس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

واعلم أن شـدة الألم في سكرات المـوت لا يعرفهـا بالحقيقـة إلا من ذاقهـا، ومن لم يذقها فإنما يعرفها بالقياس، فإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوتـه في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شـدة ألمه، لأن الكـرب قد بالغ فيه، وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه. .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقـه، ولو كـان المجذوب عـرقاً واحـداً لكان ألمـه عظيمـاً، فكيف والمجـذوب نفس الـروح المتـألم؟ لا من عـرق واحد، بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائـه تدريجيـاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى

يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة. قال ﷺ: «تقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1].

وقال مجاهد في قوله تعالى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[2].

قال: إذا عاين الرسل، فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت، فلا تسأل عن طعم مرارة الموت، وكربه عند ترادف سكراته.

وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء، ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهم هوّن علي سكرات الموت»[3].

فهذه سكرات الموت.. وتتوالى بقية الدواهي، فإن دواهي الموت ثلاث:

الأولى: شدة النزع كما ذكرناه.

الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروع والخوف منه على القلب، والمطيع يراه في أحسن صورة وأجملها.

الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم في النار.

عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة، أو بعض أزواجه: إنا نكره الموت، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه (ع).

(٢) سورة النساء: الآية (١٨).

(٣) لفظ الترمذي: «اللهم أعني...» وعند البخاري برقم (٦٥١٠): «لا إله إلا الله إن للموت سكرات».

لقاء الله، وكره الله لقاءه»[1].

ما يستحب من أحوال المحتضر:

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

أما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهو علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله»[2]، وقال عثمان: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[3].

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك، ويؤدي إلى استثقاله التلقين، وكراهيته للكلمة، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وإنما معنى هذه الكلمة: أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب شغوفاً بالدنيا متأسفاً على لذاتها، وكانت الكلمة على رأس اللسان، ولم ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى، إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

وأما حسن الظن، فهو مستحب في هذا الوقت، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي»[4].



(١) متفق عليه (خ ٦٥٠٧، م ٢٦٨٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩١٦).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦).
(٤) متفق عليه (خ ٧٤٠٥، م ٢٦٧٥).

البَابُ الرَّابِع

وَفَاةُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَصَاحِبَيْه

وفاة رسول الله ﷺ:

اعلم أن في رسـول الله ﷺ أسوة حسنـة، حياً وميتـاً، وجميـع أحـوالـه عبـرة للنـاظـرين، وتبصـرة للمتبصـرين، إذ لم يكن أحـد أكـرم على الله منـه، إذ كـان خليل الله، وحبيبه، وكان صفيه ورسوله ونبيه، فانظر: هل أمهله سـاعة عنـد انقضاء مدته، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟

فهـل رأيت منصب النبـوة دافعـاً عنـه مقـدوراً؟ وهـل راقب الملك فيـه أهـلاً وعشيراً؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً؟

فالعجب أنا لا نعتبر، فما بالنا لا نتعظ بمـوت محمد سيـد المرسلين، وإمـام المتقين، وحبيب رب العاملين، لعلنا نظن أنا مخلدون.. هيهات! هيهات!

قالت عائشـة رضي الله عنها: أمـرنا رسـول الله ﷺ أن نغسله بسبع قـرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس وخطبهم[1].

وعن أبـي سعيد الخدري قال: خطب رسـول الله ﷺ الناس، وقـال: «إن الله خيـر عبداً بين الـدنيا وبين مـا عنده، فـاختار ذلـك العبد مـا عند الله». قـال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه، أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيـر، فكان رسـول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكـر أعلمنا، وقـال: «لا يبقين في المسجد بـاب إلا سُدَّ، إلا باب أبـي بكر»[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٢) دون ذكر سبعة آبار.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٥٤) ومسلم برقم (٢٣٨٢).

وقـالت عـائشـة: تـوفي رسـول الله ﷺ في بيتي، وفي يـومي، وبين سحـري ونحـري، وإن الله جمع بين ريقي وريقـه عنـد مـوتـه، دخـل عبـد الـرحمن وبيـده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فـرأيته ينـظر إليه، وعـرفت أنه يحب السـواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتنـاولته فـاشتد عليـه، وقلت: ألينه لـك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليّنته فأمرَّه، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديـه في الماء، فيمسح بهمـا وجهه، يقـول: «لا إله إلا الله، إن للمـوت سكرات» ثم نصب يـده، فجعـل يقـول: «في الـرفيق الأعلى» حتى قبض ومـالت يـده»[1] فقلت: إذن لا يختارنا[2].

وعن عبد الله بن زمعة قال: أذن بلال بـالصلاة، فقـال رسول الله ﷺ: «مـروا أبا بكر يصلي بالناس، فخرجت فلم أر بحضرة البـاب إلا عمر في رجـال ليس فيهم أبـو بكر، فقلت: قم يـا عمر فصـل بالنـاس، فقام عمـر، فلما كبـر ــ وكـان رجـلاً صيِّتاً ــ سمع رسـول الله ﷺ صوتـه بالتكبيـر، فقال: «أين أبـو بكر؟ يـأبـى الله ذلك والمسلمون» قالها ثلاث مرات، فبعث إلى أبـي بكر، فجاء بعد أن صلى عمـر تلك الصلاة فصلى بالناس[3].

قـالت عائشـة: مات رسـول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصـاف النهار يـوم الاثنين[4].

وبلغ أبـا بكر الخبـر، وهو في بني الحـارث، (فأقبـل على فرس من مسكنـه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بـأبـي أنت وأمي: والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها)[5].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٤٩).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٣٧).
(٣) أخرجه أبو داود بإسناد جيد (ع) كتاب السنة باب ١١.
(٤) رواه ابن عبد البر (ع) قلت: وجزم موسى بن عقبة بأنه مات حين زاغت الشمس (ش).
(٥) أخرجه البخاري برقم (٤٤٥٣).

ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس، من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[1].

فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ[2].

وفاة أبي بكر رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت[3] يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذا، ولكن قولي:

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[4].

انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت.

واستخلف عمر رضي الله عنه، وأوصاه فقال: اعلم أن لله حقاً في النهار لا يقبله في الليل، وأن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل، وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف.. فإذا حفظت وصيتي، فلا يكون غائب أحب

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٥٤).

(٣) الحشرجة: الغرغرة عند الموت.

(٤) سورة قٓ: الآية (١٩).

إليك من الموت، ولا بدَّ لك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت، ولا بدَّ لك منه، ولست بمعجزه.

وفاة عمر رضي الله عنه:

لما طعن أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنه ونقل إلى منزله قال لابنه عبد الله: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام ـ ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ـ وقل: يستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي. فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت قال: الحمد لله. ما كان من شيء أهم إلي من ذلك. فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين[1].

وعن ابن عباس قال: «وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع، وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل آخذ منكبي، فإذا علي بن أبي طالب، فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»[2].



(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٠٠).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٦٨٥).

البَابُ الخَامِسُ

في الجَنَائِزِ وَالمَقَابِرِ

الاعتبار بالجنائز:

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير إلَّا لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلَّا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم ـ لا محالة ـ عليها يحملون.

يروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنّا على الأثر.

وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنّا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة، يذهب الأول، والآخر لا عقل له.

وقال الأعمش[1]: كنا نشهد الجنائز، فلا ندري من نعزي، لحزن الجميع.

وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز، فلا نرى إلَّا متقنعاً باكياً.

فهكذا كان خوفهم من الموت، والآن، لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلَّا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلّمون إلَّا في ميراثه، وما خلفه لورثته.. وأحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت.

ومن آداب حضور الجنائز: التفكر والتنبُّه، والاستعداد، والمشي أمامها على

---

(١) الأعمش: هو سليمان بن مهران الأسدي، من التابعين، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض. قال الذهبي: كان رأساً في العلم النافع والعمل الصالح، توفي عام (١٤٨)هـ.

هيئة التواضع. ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا يُدرَى حقيقتها.

زيارة القبور:

قال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً إلاَّ والقبر أفظع منه»[١].

وقال ﷺ: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد»[٢].

وقال حاتم الأصم: من مر بالمقابر، فلم يتفكر لنفسه، ولم يدعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم.

وكان الربيع بن خثيم[٣] قد حفر في داره قبراً، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه، فاضطجع، ومكث ما شاء الله، ثم يقول:

﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[٤].

يرددها. ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فاعمل.

وزيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، قال ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[٥].

وقال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان، وقال: صحيح الإسناد. قال الترمذي: حسن غريب (ع).

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه، والحاكم وصحح إسناده (ع).

(٣) الربيع بن خثيم، الثوري، الكوفي العابد. قال أبو يعلى: كان في بني ثور ثلاثون رجلاً ما فيهم رجل دون الربيع بن خثيم.

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٩٩).

(٥) أخرجه مسلم برقم (٩٧٧).

(٦) أخرجه أحمد، ولمسلم: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» رقم (٩٧٦).

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبراً القبلة، مستقبلاً بوجهه الميت، وأن يسلم، ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله.

قال نافع: كان ابن عمر ــ رأيته مائة مرة أو أكثر ــ يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه، ولا للميت.

ويستحب الثناء على الميت، وألا يذكر إلَّا بالجميل، قالت عائشة: قال ﷺ: «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه»[1] وقال ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[2].

قال أنس بن مالك: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال ﷺ: «وجبت» ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً، فقال ﷺ: «وجبت» فسأله عمر عن ذلك، فقال: «إن هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار. وأنتم شهداء الله في الأرض»[3].

موت الولد:

حق على من مات ولده، أو قريب من أقاربه، أن ينزله منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لأنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلَّا تقدم وتأخر.

وهكذا الموت معناه السبق إلى الوطن، إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قلَّ جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزّى به كل مصاب.

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد حسن (ع).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٩٣).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٦٧، م ٩٤٩).

قال ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فيحتسبهم إلاَّ كانوا له جُنة من النار». فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان؟ قال: «أو اثنان»[1].

وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت، فإنه أرجى دعاءً وأقربه إلى الإجابة.

لما مات ذرّ بن عمر بن ذر، قام أبوه عمر بن ذر[2] ـ بعدما وضعه في لحده ـ فقال: يا ذر، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، فليت شعري ماذا قلت، وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللَّهم إن هذا ذر متعتني به ما متعتني، ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه. اللَّهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللَّهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك، فهب لي عذابه ولا تعذبه ـ فأبكى الناس ـ ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر، وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك، ولو أقمناك ما نفعناك.



---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٢) بلفظ: «لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه..».
وفي المتفق عليه: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسَّه النار إلاَّ تحلة القسم».

(٢) عمر بن ذر بن عبد الله بن ذر الهمداني الكوفي، العابد.

البَابُ السَّادِس

فِي حَقِيـقَةِ المَوْتِ وَعَـذَابِ القَبْر

حقيقـة المـوت:

ظن بعضهم أن الموت هو العدم، وأنه لا حشر..

وقال آخرون: إن الـروح باقيـة، والمعاقب هي الأرواح دون الأجسـاد، التي لا تبعث..

وقال غيرهم غير ذلك.

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق.

والذي تشهد له طرق الاعتبار، وتنطق بـه الآيات والأخبـار: أن الموت معنـاه تغير حال فقط، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد، إما معذبة، وإما منعمة.

ومعنى مفارقتها للجسـد: انقطاع تصـرفها عن الجسـد، بخروج الجسـد عن طـاعتها، فـإن الأعضاء آلات للروح تستعملهـا، حتى إنها لتبـطش باليـد، وتسمـع بالأذن.. والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، ولـذلك قـد يتألم بنفسـه بأنـواع الحزن والغم، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء.

فكل ما هـو وصف للروح بنفسها، فيبقى معهـا بعد مفـارقة الجسـد، وما هـو بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد.

ولا يبعـد أن تعاد الـروح إلى الجسد في القبـر، ولا يبعـد أن تؤخـر إلى يـوم البعث.

فـالـروح: المعنى الـذي يـدرك من الإنسـان العلوم وآلام الغمـوم، ولــذات الأفراح.

والموت: انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة له.

نعم؛ لا يمكن كشف الغطاء، عن كنه حقيقة الموت، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول:

﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[1].

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح، وانعدام إدراكها، آيات وأخبار كثيرة:

قال تعالى:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾[2].

ولما قتل صناديد قريش يوم بدر، ناداهم رسول الله ﷺ فقال: «يا فلان، يا فلان، يا فلان، قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً»؟ فقيل: يا رسول الله، أتناديهم وهم أموات، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلَّا أنهم لا يقدرون على الجواب»[3].

فهذا نص في روح الشقي، وبقاء إدراكها ومعرفتها.

والآية نص في أرواح الشهداء. ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة.

وقال ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك، حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[4].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٦٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٧٣، ٢٨٧٤).

(٤) متفق عليه (خ ١٣٧٩، م ٢٨٦٦).

وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال.

ولهذا قال عبد الله بن عمرو: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه، مثل رجل بات في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها.

عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه، ثم قال: «اللَّهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» ثلاثاً، ثم قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة، بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس، معهم حنوطه وكفنه، فيجلسون مد بصره، فإذا خرجت روحه، صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء، فليس منها باب إلَّا يحب أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه، قيل: أي رب، عبدك فلان، فيقول: أرجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة، فإني وعدته:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾(١).

وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين. حتى يقال: يا هذا، من ربك، وما دينك وما نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، قال: فينتهرانه انتهاراً شديداً، وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك، نادى منادٍ: أن قد صدقت، وهي معنى قوله تعالى:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾(٢).

ثم يأتيه آتٍ حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: أبشر برحمة ربك، وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، والله ما علمت إن كنت لسريعاً إلى طاعة الله، بطيئاً عن

---

(١) سورة طه: الآية (٥٥).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٢٧).

معصية الله فجزاك الله خيراً، قال: ثم ينادي منادٍ أن افرشوا له من فرش الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيفرش له من فرش الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقول: اللَّهم عجِّل قيام الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وأما الكافر، فإنه إذا كان في قبل من الآخرة، وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد، معهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران، فيحتوشونه، فإذا خرجت نفسه، لعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وغلقت أبواب السماء، فليس منها باب إلَّا يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه، نبذ وقيل: أي رب، عبدك فلان، لم تقبله سماء ولا أرض. فيقول الله عزَّ وجلّ: ارجعوه، فأروه ما أعددت له من الشر، إني وعدته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، حتى يقال: يا هذا، من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت، ثم يأتيه آتٍ قبيح الوجه، منتن الريح، قبيح الثياب، فيقول: أبشر بسخط من الله، وبعذاب أليم مقيم، فيقول: بشرك الله شراً، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، والله إن كنت لسريعاً في معصية الله، بطيئاً عن طاعة الله، فجزاك الله شراً، ويقول: وأنت فجزاك الله شراً، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم معه مرزبة من حديد، لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً، يضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثم تعود فيه الروح، فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين، ليس الثقلين، قال: ثم ينادي منادٍ: أن افرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيفرش له لوحان من نار، ويفتح له باب إلى النار»[1].

وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر، وللآخر نكير، فيقولان له: ما كنت تقول في النبي؟ فإن كان مؤمناً

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم بكماله، وقال: صحيح على شرط الشيخين. وضعفه ابن حبان. ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً (ع). قلت: وكذا رواه أحمد وابن أبي شيبة في المصنف، والطيالسي وعبد بن حميد في مسنديهما، وهناد في الزهد، وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، والبيهقي في عذاب القبر وغيرهم، من طرق صحيحة (ش).

قال: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسـول الله، فيقولان: إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعـاً في سبعين ذراعاً، وينـوَّر له في قبـره، ثم يقال لـه: نم، فيقول: دعـوني أرجع إلى أهلي فـأخبـرهم، فيقـال له: نم، فينـام كنـومـة العـروس الـذي لا يـوقـظه إلاَّ أحب أهله إليـه، حتى يبعثـه الله من مضجعه ذلـك. وإن كان منـافقاً قـال: لا أدري، كنت أسمـع النـاس يقولون شيئاً وكنت أقوله فيقولان: إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك، ثم يقـال للأرض: التئمي عليـه، فتلتئم عليه، حتى تختلف فيهـا أضـلاعـه، فـلا يـزال معـذبـاً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

وقالت عائشـة رضي الله عنها: قـال ﷺ: «إن للقبر ضغـطة، لو سلم أو نجـا منها أحد، لنجا سعد بن معاذ»[2].

[وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنـه أنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه ــ وإنه ليسمع قرع نعالهم ــ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأمـا المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعـدك من النار، قـد أبدلـك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذكر لنـا أنه يفسـح له في قبـره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقـول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول مـا يقول النـاس، فيقال: لا دريتَ ولا تليتَ، ويضـرب بمـطارق من حـديـد ضــربـة، فيصيــح صيحـة يسمعهــا من يليـه غيــر الثقلين»[3]][4].



(١) أخرجه الترمذي وحسنه (ع).

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد (ع).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٧٤، م ٢٨٧٠).

(٤) ما بين القوسين [ ] لم يذكره المصنف، وإنما ذكرته لأنه يغني عن أحاديث ذكرها ليست في الصحيحين.

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت
في أحوال الميت حتى الاستقرار في الجنة أو النار

عرفت فيما سبق شدة سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة.. ثم منكراً ونكيراً وسؤالهما، ثم عذاب القبر إن كان مغضوباً عليه، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه، من نفخ للصور، وبعث ليوم النشور والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير..

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحر جهنم، وزمهريرها، مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال.

بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم، ثم غفلت عنه قلوبهم. ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم، فقال للذي أخبره: صدقت، ثم مد يده لتناوله، كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان.

فإن كان في إيمانك ضعف، فقوِّه بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل، وإن كنت قوي الإيمان، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكير والاعتبار.

صفة نفخة الصور:

تفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور، من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة، تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى، فيثورون دفعة واحدة.

فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك، مغبراً بدنك من فرقك إلى قدمك، من تراب قبرك، مبهوتاً من شدة الصعقة، شاخص العين نحو النداء. وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد أزعجهم الفزع والرعب، مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم، وشدة الانتظار لعاقبة الأمر.

قال تعالى:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[3].

فلو لم يكن بين يدي الموت إلاَّ هول تلك النفخة لكان جديراً بأن يتقى، فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض ــ يعني يموتون بها ــ إلاَّ من شاء الله. وهو بعض الملائكة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم؟ وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى الجبهة، وأصغى بالأذن، ينتظر متى يؤمر فينفخ»[4].

---

(١) سورة الزمر: الآية (٦٨).

(٢) سورة المدثر: الآية (٨).

(٣) سورة يس: الآيات (٤٨ ــ ٥٢).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حسن (ع). قلت: ورواه أحمد وأبو يعلى وابن خزيمة والحاكم وصححه وغيرهم. (ش).

قال مقاتل[1]: الصور هو القرن، وذلك أن إسرافيل عليه السلام، واضع فاه على القرن، كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش، ينتظر متى يؤمر، فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السماوات والأرض، أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلاَّ من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل. فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2].

فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم عند الانبعاث خوفاً من شدة هذه الصعقة، وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم، متحير كتحيرهم، بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء، فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل الأرض، وأصغرهم وأحقرهم..

وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال، منكسة رؤوسها، مختلطة بالخلائق بعد توحشها، ذليلة ليوم النشور، من غير خطيئة، ولكن حشرتهم شدة النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[3].

ثم أقبلت الشياطين والمردة بعد تمردها وعتوها، وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى، تصديقاً لقوله تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[4].

---

(١) مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي، أبو بسطام، صدوق فاضل. روى له أبو داود.

(٢) سورة الزمر: الآية (٦٨).

(٣) سورة التكوير: الآية (٥).

(٤) سورة مريم: الآية (٦٨).

فتفكَّر في حالك وحال قلبك هنالك.

صفة أرض المحشر:

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة إلى أرض المحشر، أرض بيضاء قاع صفصف، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا ترى عليها ربوة ولا وهدة، بل هو صعيد واحد بسيط، لا تفاوت فيه، يساقون إليه زمراً.

فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم بالراجفة تتبعها الرادفة، وحق لتلك القلوب أن تكون يومئذٍ واجفة، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى، ليس فيها معلم لأحد»[١].

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع، والنقى: هو النقي عن القشر والنخالة، ومعلم: أي لا بناء يستتر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا، بل لا تساويها إلَّا في الاسم. قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[٢].

قال ابن عباس: يزاد فيها وينقص، وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها.

فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء، وطمس الشمس والقمر، وانشقت فيه السماء مع شدتها، ثم صارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش المبثوث، وهم حفاة عراة مشاة.

---

(١) متفق عليه (خ ٦٥٢١، م ٢٧٩٠).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٤٨).

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: ركباناً ومشاة وعلى وجوههم»، فقال رجل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[1].

فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً متحيراً، منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو الشقاوة، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق:

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع، من ملك وجن وإنس وشيطان، ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس، وقد تضاعف حرّها، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها.

ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبقَ على الأرض ظل إلاّ ظل عرش ربِّ العالمين، ولا يمكن من الاستظلال به إلاّ المقربون. فمن مستظل بالعرش، ومن مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها، واشتد كربه وغمه من وهجها.

ثم تدافعت الخلائق، ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس، وحرّ الأنفاس، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف، ففاض العرق من أصل كل شعرة، حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفعت على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه. وفي الصحيحين من حديث أنس، أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» (ع)، (خ ٤٧٦٠، م ٢٨٠٦).

قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[1].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يعرق الناس يوم القيامة، حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[2].

فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر، وشدة كربهم، وفيهم من ينادي فيقول: ربِّ أرحني من هذا الكرب ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا حساباً ولا عقاباً، فإنك واحد منهم، لا تدري أين يبلغ منك العرق؟

صفة يوم القيامة:

يوم تقف فيه الخلائق، شاخصة أبصارهم، منفطرة قلوبهم، لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، حتى إذا بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم.

فاستعد يا مسكين، لهذا اليوم، العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدت.

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذٍ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية، يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

---

(١) متفق عليه (خ ٤٩٣٨، م ٢٨٦٢).

(٢) متفق عليه (خ ٦٥٣٢، م ٢٨٦٣).

فيومئذٍ لا يسـأل عن ذنبه إنس ولا جـان، يوم يمنـع فيه العـاصي من الكلام، ولا يسـأل فيه عن الإجـرام، بـل يؤخـذ بـالنـواصي والأقـدام، يـوم تجـد كـل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينـه أمداً بعيـداً، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت، وتشهد ما قـدَّمت وأخَّرت، يـوم تخرس فيـه الألسن وتنطق الجوارح.

يـوم شيَّب ذكره سيـد المرسلين إذ قـال: «شيبتني هـود وأخـواتهـا»[1] وهي: الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت.

وقد وصف الله بعض دواهي القيامة، وأكثر من أساميها، لتقف بكثرة أساميهـا على كثـرة معانيهـا، فتحت كل اسم من أسمـاء القيامـة نعت من نعوتهـا. ومن هذه الأسامي:

يـوم القيامـة، يوم الحسـرة، يوم النـدامة، يـوم القارعـة، يوم الـراجفة، يـوم الغـاشية، يـوم الآزفة، يـوم الحاقَّـة، يوم الـطامَّة، يـوم الصافَّـة، يـوم التنـاد، يـوم الحساب، يوم الحشـر، يوم الـوعيد، يـوم الجمع، يـوم البعث، يوم الخـزي، يوم الفـزع، يوم السكـرة، يوم التغـابن، يوم السـاعة، يـوم تشخص فيه الأبصـار، يـوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً.

فيـا أيها الإنسـان، ما غـرك بربـك الكريم، حيث أغلقت الأبـواب، وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق، فقارفت الفجـور، فماذا تفعـل وقد شهـدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين.

صفـة المساءلة:

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال، فيما يتوجه عليـك من السؤال، شفاهـاً من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير، والنقير والقطمير.

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (ع).

قال تعالى:

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[3].

فيالشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء، وتنمحي علومهم من شدة الهيبة، إذ يقال لهم: ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق؟ وكانوا قد علموا، فتدهش عقولهم، فلا يدرون بماذا يجيبون، فيقولون من شدة الهيبة: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب. وهم في ذلك الوقت صادقون، إذ طارت منهم العقول، وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى.

وقبل الابتداء بالسؤال، يظهر نور العرش:

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[4].

وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد. وجيء بجهنم، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره. فامتلأت القلوب فزعاً ورعباً، فتساقطوا جثياً على الركب:

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧).

(٢) سورة الحجر: الآية (٩٣).

(٣) سورة المائدة: الآية (١٠٩).

(٤) سورة الزمر: الآية (٦٩).

(٥) سورة الجاثية: الآية (٢٨).

وسقط بعضهم على الوجوه، وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون: نفسي نفسي.

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال: (ماذا أجبتم). فإذا رأى الناس ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء، اشتد الفزع على العصاة، ففر الوالد من ولده، والأخ من أخيه، والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظراً لأمره، ثم يؤخذ واحد واحد، فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره، وعن سره وعلانيته، وعن جميع جوارحه وأعضائه.

قال أبو هريرة: قالوا يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب»، قالوا: لا، قال: «فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب» قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تضارّون في رؤية ربكم. فيلقى العبد فيقول له: ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول العبد: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فأنا أنساك كما نسيتني»[1].

وعن أنس قال: كنا عند رسول الله فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه[2]: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً لكن وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[3].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٨). ومعنى (تربع) من المرباع الذي كان يأخذه الرئيس من الغنيمة. والمعنى: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً.

(٢) أي جوارحه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٦٩).

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء، إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه، ولا يطلع عليه غيره:

سأل رجل ابن عمر فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْنَى المؤمن يوم القيامة من ربه عزَّ وجلّ، حتى يضع عليه كنفه[1]، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أي رب، أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته..»[2].

فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم، واحتمل في حق نفسه تقصيرهم، ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم، ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة. ثم تفكر في عظيم حيائك، إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً، إذ يقول: يا عبدي، أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح، واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي؟ استخففت بنظري إليك فلم تكترث، واستعظمت نظر غيري.

قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان»[3].

صفة الميزان:

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، حيث تشخص الأبصار، وتطيش عقول الخلائق.

قالت عائشة رضي الله عنها: ذكرت الآخرة فبكيت، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، في ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا

(١) هو ستره وعفوه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٦٨).
(٣) متفق عليه (خ ٧٤٤٣، م ١٠١٦/٦٧).

نفسه، إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال، حتى ينظر ابن آدم: أيخف ميزانه أم يثقل؟ وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله، وعند الصراط»[1].

صفة الخصماء ورد المظالم:

قد عرفت هول الميزان وخطره، وأن الأعين شاخصة إليه:

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾[2].

واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا.

وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟» قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع، قال: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضَى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[3].

وقال أبو هريرة في قوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[4].

---

(١) أخرجه أبو داود، وإسناده حسن (ع).

(٢) سورة القارعة: الآيات (٦ ــ ١١).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٨١).

(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٨).

(إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ــ البهائم والدواب والطير وكل شيء ــ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء[1] ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر:

﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾[2])[3].

فتفكر الآن في نفسك، إن خلت صحيفتك عن المظالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك، وأيقنت بسعادة الأبد، كيف يكون سرورك في منصرفك من فصل القضاء. وإن تكن الأخرى ــ والعياذ بالله ــ بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهي عند الله عظيمة، فمقتك الله تعالى لأجلها!! وعندها تنادي بالويل والثبور.

صفة الصراط:

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى:

﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾[5].

فالناس، من بعد هذه الأهوال، يساقون إلى الصراط، وهو جسر ممدود على متن النار، أحدّ من السيف وأدق من الشعر. فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خفَّ على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى.

---

(١) الجماء، هي الشاة التي لا قرن لها، والقرناء: هي التي لها قرون.

(٢) سورة النبأ: الآية (٤٠).

(٣) رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي (ش).

(٤) سورة مريم: الآيتان (٨٥ ــ ٨٦).

(٥) سورة الصافات: الآية (٢٣).

قال ﷺ: «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز بأمته من الرسل، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم، اللهم سلم، وفي جهنم كلالبب مثل شوك السعدان[1]، هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل[2] ثم ينجو»[3].

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «يمر الناس على جسر جهنم، وعليه حسك وكلاليب، وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً، وعلى جنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم، اللهم سلم، فمن الناس من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس المجرى، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يزحف زحفاً، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحماً، ثم يؤذن في الشفاعة»[4].

فهذه أهوال الصراط، فطوّل فيه فكرك، فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد. ولست أعني بالخوف أن تدمع عينك، ويرق قلبك، بل من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى، ويحثك على طاعته.

---

(١) الكلاليب: جمع كلوب وكلاب، وهي خشبة في رأسها عقافة حديد، والسعدان: نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب.

(٢) في اللغة: المخَرْدَل: المصروع [القاموس المحيط].

(٣) متفق عليه (خ ٨٠٦ و٧٤٣٧، م ١٨٢).

(٤) متفق عليه (خ ٧٤٣٩، م ١٨٣).

صفة الشفاعة:

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة:

قال الله تعالى:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[1].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول الله عزّ وجلّ في إبراهيم:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

وقول عيسى عليه السلام:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

ثم رفع يديه وقال: «اللهم، أمتي أمتي» ثم بكى. فقال الله عزّ وجلّ: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ــ والله أعلم به ــ فقال: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك»[4].

وقال ﷺ: «لكل نبيّ دعوة مستجابة، وأردت أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[5].

---

(١) سورة الضحى: الآية (٥).
(٢) سورة إبراهيم: الآية (٣٦).
(٣) سورة المائدة: الآية (١١٨).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٠٢).
(٥) متفق عليه (خ ٣٦٠٥، م ١٩٨).

قال أبو هريرة: قال ﷺ: «أنا سيد المرسلين يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام. فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك الله تعالى بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي. نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين، وغفر الله لك

ما تقدم من ذنبك وما تـأخر، اشفـع لنا إلى ربـك، ألا ترى مـا نحن فيه؟ فـأنطلق، فآتي تحت العرش فأقع سـاجداً لـربـي، ثم يفتح الله لي من محـامده وحسن الثنـاء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمـد، ارفع رأسـك، سل تعط، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب، فقال: يـا محمد، أدخـل من أمتك من لا حساب عليهم من البـاب الأيمن من أبواب الجنـة، وهم شركـاء الناس فيمـا سوى ذلـك من الأبواب» ثم قـال: «والذي نفسي بيـده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكه وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

صفـة الحـوض:

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ، وقد اشتملت الأخبـار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الـدنيا علمـه، وفي الآخرة ذوقـه، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً.

عن أنس قال: «أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسمـاً، فقالـوا له: يـا رسول الله لم ضحكت؟ قـال: «آية أنـزلت علي آنفاً، وقـرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر﴾ حتى ختمها، ثم قال: هل تدرون ما الكوثر؟» قالـوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنه نهر وعدنيه ربـي عزَّ وجـلّ في الجنة عليـه خير كثيـر، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء»[2].

وقـال أنس: كان رسـول الله يقول: «مـا بين لابتي حـوضي كمـا بين صنعـاء والمدينة»[3].

وعن أبـي ذر قال: قلت يا رسـول الله، ما آنيـة الحوض؟ قـال: والذي نفس محمـد بيـده، لآنيتـه أكثـر من عـدد نجـوم السمـاء وكـواكبهـا في الليلة المـظلمـة المصحيـة، من شرب منـه لم يظمـأ آخر مـا عليه، يشخب فيـه ميزابـان من الجنة،

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٤).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٠٠).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٤١/٢٣٠٣).

عـرضه مثـل طولـه، ما بين عمـان وأبلة، مـاؤه أشـد بيـاضـاً من اللبن، وأحلى من العسل»[1].

فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكـون متمنياً ومغتـراً وهـو يظن أنـه راج، فإن الـراجي للحصـاد من بث البـذر، ونقى الأرض، وسقـاهـا الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات.

القول في صفة جهنم وأهوالها:

يا أيها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا، المشرفة على الانقضـاء والزوال، دع التفكيـر فيما أنت مـرتحـل عنـه، واصـرف الفكـر إلى موردك، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع، إذ قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[2].

فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شك، فـاستشعر في قلبـك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه.

قـال أبو هـريرة: كنـا مع رسـول الله ﷺ فسمعنا وجبـة فقال رسـول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قـال: «هذا حجـر أرسل في جهنم منـذ سبعين عاماً، الآن انتهى إلى قعرها»[3].

إن أقل الناس عذاباً، لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها، لافتدى بها من شـدة ما هو فيه. قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل النار عذابـاً يوم القيـامة ينتعـل بنعلين من نار، يغلي دماغه من حرارة نعليه»[4].

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٠٠).

(٢) سورة مريم: الآيتان (٧١ ــ ٧٢).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٨٤٤).

(٤) متفق عليه (خ ٦٥٦١، م ٢١٢) واللفظ لمسلم.

ومهمـا شككت في شدة عـذاب النار، فقـرب أصبعك من النـار، وقس ذلك به، ثم اعلم أنك أخـطأت في القياس، فـإن نار الـدنيا لا تنـاسب نار جهنم. ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا هذه النار، عرف عذاب جهنم بها وهيهات(١).

وقـال أبو هـريرة: قـال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربهـا فقـالت: يـا رب، أكـل بعضي بعضاً، فأذن لهـا في نفسين، نَفَس في الشتاء، ونَفَس في الصيف، فـأشـد ما تجدونه في الصيف من حرها، وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها»(٢).

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾(٣).

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾(٤).

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٥).

قال ابن عباس: قـال ﷺ: «لو أن قـطرة من الزقـوم قطرت في بحـار الدنيـا، أفسدت على أهل الدنيا معايشهم»(٦).

---

(١) جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قـال: «فإنهـا فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلها مثل حرها» (خ ٣٢٦٥، م ٨٢٤٣).

(٢) متفق عليه (خ ٣٢٦٠، م ٦١٧).

(٣) سورة الواقعة: الآيات (٥١ ــ ٥٥).

(٤) سورة الصافات: الآيات (٦٤ ــ ٦٨).

(٥) سورة المزمل: الآيتان (١٢ ــ ١٣).

(٦) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، وابن مـاجه (ع) قلت: وأحمـد والنسائي وابن حبـان والحاكم والبيهقي (ش).

ثم انظر بعد هذا، في تعظيم أجسام أهل النار، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار، ولدغ العقارب والحيات دفعة واحدة. قال أبو هريرة: قال ﷺ: «ضرس الكافر في النار مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث»(1).

ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات، فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن البصري في قوله تعالى:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾(2).

قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فيعودون كما كانوا.

وقال ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»(3).

وعدد أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، الأعلى: جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

ومن أعظم ما يلاقيه أهل جهنم من شدة العذاب: حسرة فوت نعيم الجنة، وفوت لقاء الله تعالى، وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا.

القول في صفة الجنة ونعيمها:

وتفكر في أهل الجنة، وفي وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالحور العين، كأنهن الياقوت والمرجان، قاصرات الطرف عين، يطاف عليهم

---

(1) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥١).

(2) سورة النساء: الآية (٥٦).

(3) متفق عليه (خ ٦٥٤٨، م ٢٨٥٠).

بـأكواب وأبـاريق، وكأس من معين، بيضـاء لذة للشـاربين، ويـطوف عليهم خـدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون.

مقـام أمين، في جنات وعيـون، في مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر، عبـاد مكرمون، فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، ويشـربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً، أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، ترابها مسك أذفـر، ونباتها زعفران.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ينادي مناد: يـا أهل الجنـة، إن لكم أن تصحـوا فلا تسقمـوا أبداً، وإن لكم أن تحيـوا فلا تمـوتوا أبـداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عزَّ وجلّ:

﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]»[2].

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة، فاقرأ القـرآن، فليس وراء بيان الله تعـالى بيان، واقرأ من قوله تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[3].

إلى آخر سورة الرحمن. واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور.

وتأمل عدد الجنان. قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾.

قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتـان من ذهب آنيتهما ومـا فيها، ومـا بين القـوم وبين أن ينـظروا إلى ربهم إلا رداء الكبـريـاء على وجهـه في جنـة عدن»[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٤٣).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٨٣٧).
(٣) سورة الرحمن: الآية (٤٦).
(٤) متفق عليه (خ ٤٨٧٨، م ١٨٠).

ثم انظر إلى أبواب الجنة، فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين[1] من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها، وللجنة ثمانية أبواب. فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد» فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي، فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[2].

ثم تأمل الآن في غرف الجنة، واختلاف درجات العلو فيها، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً. وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر. فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى:

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[4].

قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم، كما يتراءون الكوكب العابر في الأفق من المشرق إلى المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[5].

(١) قال الهروي في تفسير هذا الحديث: قيل: ما زوجان؟ فرسان أو عبدان أو بعيران، وقال ابن عرفة: كل شيء قرن بصاحبه فهو زوج.
(٢) متفق عليه (خ ١٨٩٧، م ١٠٢٧).
(٣) سورة الحديد: الآية (٢١).
(٤) سورة المطففين: الآية (٢٦).
(٥) متفق عليه (خ ٣٢٥٦، م ٢٨٣١).

تأمل في صورة الجنة، وتفكر في غبطة سكانها، فقد قال ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم:

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[1]»[2].

وقال تعالى:

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[3].

وقال ﷺ: «إن أول زمرة تلج الجنة، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً»[4].

وطعام أهل الجنة مذكور في القرآن، من الفواكه والطيور، والمن والسلوى، والعسل واللبن، وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[5].

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة.

[وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلّ: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر

---

(١) سورة الواقعة: الآية (٣٠).
(٢) متفق عليه (خ ٣٢٥٢، م ٢٨٢٧).
(٣) سورة فاطر: الآية (٣٣).
(٤) متفق عليه (خ ٣٢٤٥، م ٢٨٣٤/١٧).
(٥) سورة البقرة: الآية (٢٥).

على قلب بشر»[1]][2].

صفة النظر إلى وجهه تبارك وتعالى:

قال الله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3].

وهذه الزيادة، هي النظر إلى وجه الله تعالى.

قال جرير بن عبد الله البجلي: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[4]»[5].

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى:

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾.

قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عزّ وجلّ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[6].

وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى.

***

---

(١) متفق عليه (خ ٣٢٤٤، م ٢٨٢٤).

(٢) لم يذكر المصنف هذا الحديث، وهو أصل في الموضوع، ولذلك ذكرته في نهاية البحث.

(٣) سورة يونس: الآية (٢٦).

(٤) سورة طه: الآية (١٣٠).

(٥) متفق عليه (خ ٥٧٣، م ٦٣٣).

(٦) أخرجه مسلم برقم (١٨١).

الخاتمة

في سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك، فقد كان ﷺ يحب الفأل[1]، وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة، فنقتدي برسول الله ﷺ في التفاؤل.

ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى. فقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلَّت به القدم، أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما

---

(١) متفق عليه (خ ٥٧٥٥، م ٢٢٢٤).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٨).

(٣) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(٤) سورة النساء: الآية (١١٠).

ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بـدين الله تعالى مـع التقصير فيـه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره.

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفـره من كـل نعمة أنعم بهـا علينا فـاستعملناهـا في معصيته، ونستغفـره من كل تصـريح وتعـريض بنقصان نـاقص وتقصير مقصِّـر كنا متصفين بـه. ونستغفره من كـل خـطرة دعتنا إلى تصنُّع وتكلُّف تزيناً للناس في كتاب سطرناه أو كـلام نظمنـاه، ونرجـو بعد الاستغفار من جميع ذلـك كله لنا ولمن طـالع كتـابنا هـذا، أو كتبه، أو سمعـه، أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً، فـإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض.

ونحن خلق من خلق الله عـزَّ وجلّ، لا وسيلة لنـا إليه إلاَّ فضله وكـرمه، فقـد قـال رسول الله ﷺ: «إن لله تعـالى مائـة رحمة، أنـزل منها رحمـة واحدة بين الجن والإنس والـطير والبهـائم والهوام، فيهـا يتعاطفـون، وبها يتـراحمـون. وأخـر تسعـاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[1].

ويروى أنه إذا كان يوم القيـامة أخـرج الله تعالى كتـاباً من تحت العـرش فيه: «إن رحمتي سبقت غضبـي»[2].

وقال ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها»[3].

ويروى أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ:

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[4].

فقـال الأعرابـي: فـوالله ما أنقـذكم منها وهـو يريـد أن يـوقعكم فيهـا. فقـال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٢/١٩).

(٢) متفق عليه (خ ٧٤٠٤، م ٢٧٥١).

(٣) متفق عليه (خ ٥٩٩٩، م ٢٧٥٤).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

قال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت، وهو في مرض الموت، فبكيت فقال: مهلاً. لمَ تبكي؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلاَّ حدثتكموه إلاَّ حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله حرَّم الله النار عليه»[1].

وقال ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط:

«إن الله يقول للملائكة: من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا، لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به» فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

قال: «فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلاَّ أرحم الراحمين. فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل.. فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة يقولون: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه..»[3].

فهذه أحاديث تبشِّر بسعة رحمة الله، فنرجو الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بما هو أهله، بمنِّه وسعة جوده ورحمته.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٩)، وهو متفق عليه من غير هذه الرواية.

(٢) سورة النساء: الآية (٤).

(٣) متفق عليه (خ ٧٤٣٩، م ١٨٣).

فهرس الأعلام

اقتصرت على ذكر الأعلام المترجم لها، وبيان موضع الترجمة ليرجع إليها عند الحاجة، ما كان منها في المجلد الأول اقتصرت على ذكر رقم الصفحة، وما كان في المجلد الثاني أشير إليه.

فهرس حرفي للموضوعات الواردة في الكتاب

ك: تعني أن الموضوع ورد خلال كتاب من كتب المهذب.
ف: تعني أن الموضوع ورد ضمن فصل من الفصول.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

﴿ربع المهلكات﴾

١ ـ كتاب شرح عجائب القلب

الموضوع	الصفحة

٢ ـ كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

٣ ـ كتاب كسر الشهوتين

الموضوع	الصفحة

٤ ــ كتاب آفات اللسان

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٦ ـ كتاب ذم الدنيا

٧ ـ كتاب ذم البخل وحب المال

الموضوع	الصفحة

٨ ــ كتاب ذم الجاه والرياء

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

﴿ربع المنجيات﴾

١ ـ كتاب التوبة

الموضوع	الصفحة

٢ ـ كتاب الصبر والشكر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٧ ـ كتاب النية والإخلاص والصدق

٨ ـ كتاب المراقبة والمحاسبة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

١ ـ من معين السيرة.
٢ ـ السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).
٣ ـ أضواء على دراسة السيرة.
٤ ـ هكذا فهم السلف.
٥ ـ تحقيق «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٤ مجلدات).
٦ ـ الفن الإسلامي (التزام وإبداع).
٧ ـ دراسة جمالية في ثلاثة أجزاء:
(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام.
(٢) ميادين الجمال.
(٣) التربية الجمالية في الإسلام.
٨ ـ أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).
٩ ـ حجة الإسلام الإمام الغزالي.
١٠ـ تحقيق (شرح المعرفة) للإمام الحارث المحاسبي.

تحت الطبع:

١ ـ تقريب (طريق الهجرتين) للإمام ابن القيم.
٢ ـ جامع الصحيحين، للإمامين: البخاري ومسلم.

● ● ●